حضرموت الثقافية

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر
Hadhramaut Centre for Historical Studies Documentation and Publication.

Hadhramaut AL-Thaqafiah Magazine - June - 2018 شوال ١٤٣٩هـ

مجلة فصلية - السنة الثانية العدد (8)

لمحة عن أسواق حضرموت

المجلات الصادرة بحضرموت بين التوقف والاستمرار

الصلات التجارية بين حضرموت والهند

في مفهوم حضرموت والحضارمة

الشاعر الحذاد من الشعر الغنائي إلى مساجلات الدان

البرتغاليون في مصادر القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي

من أعلام حضرموت

السيد العلامة

عبدالله بن محفوظ الحدّاد

محتويات العدد

حديث البداية

- في رحلة الحرف نلتقي! ..... أ. محمد بن سالم بن علي جابر 4

أضواء

- البرتقاليون في مصادر القرن العاشر الهجري -السادس عشر الميلادي ..... أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي 9
- وثيقة تولية السُّلطان غالب القعيطي القضاء للسيد محسن بن جعفر أبي نُمي ..... محسن علوي باعلوي 14
- لمحة عن أسواق حضرموت في الجاهلية والإسلام ..... منير بن سالم بازهير 16

كتابات

- التاريخ والكتابة الصحفية ..... د. عبدالقادر علي باعيسى 20
- عدن - المكلا - ستطرى ..... د. سعيد سالم الجريري 22
- النهارات حضرمية ..... سالم العبد الحمومي 23

دراسات

- الصلات التجارية بين حضرموت والهند ..... أ.د. محمد بن هاوي باوزير 24
- حضرموت السكان وإنتاج الغذاء ..... د. رزق سعدالله الجابري 29
- إنسان العصور الحجرية في حضرموت ..... د. محمد صالح بلعفير 32
- في مفهوم حضرموت والحضارمة ..... عيضة حسن العامري 38
- لهجة حضرموت ..... محمد عوض محروس 46
- ملاحظات على معجم شعراء العامية ..... أ.د. عبدالعزيز سعيد الصيغ 54
- رأس المرزبان.. من عصور ما قبل التاريخ حقبة الوجود الفارسي بساحل حضرموت .. ظاهر ناصر المشطي 58

تراث وآثار

- البدايات الأولى لنشوء المدن في وادي حضرموت ..... حسن عبيد طه عبيد 69

مدارات

- في رحاب مخطوطات الأحقاف ١٩٨٢- ٢٠٠٢م ..... د. أحمد صالح رابضة 73
- قراءة نقدية في كتاب (أربعون حديثًا في الأدب النبوي) ..... د. أحمد هادي باحارثة 77
- المجلات الصادرة بحضرموت بين التوقف والاستمرار ..... محمد سالم بن صويلح 81
- الشاعر الحدّاد من الشعر الغنائي إلى مساجلات الدان ..... د. عبدالباسط سعيد الغرابي 89

لغويات

- وقفتان في التّصحيح اللّغويّ ..... أ. د. عبدالله صالح بابعير 92

شخصيات

- الناشر الأستاذ عبدالهادي باقتير ودوره في الطباعة والنشر ..... سعيد سبتي 96
- الأستاذ والمربّي الحبيب حامد أبوبكر الجفري ..... صالح باحيدرة 98

نقد

- بحثًا عن رؤية للعالم في أدب الأستاذ صالح سعيد باعامر ..... أ. د. عبدالله حسين البار 99
- استراتيجية العنونة في مجموعة (ناهية) لسالم العبد ..... د. طه حسين الحضرمي 105
- العبودية في رواية (سالمين) ..... د. أحمد عبدالله السومحي 108

إبداع

- ما لعينيك لا تحكيان؟ (قصيدة) ..... مريم بن سمير 111
- المكلا (قصيدة) ..... يعقوب بلسعد 111

حكايات

- حكايات من المشقاص .. مقتل عاشور بن حميد ..... فائز محمد باعباد 112

توقيع قلم

- (السماوة ولا جاوة) ..... أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي 114

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة الثانية العدد (8)

إبريل - يونيو 2018م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

صاحب الامتياز

الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

رئيس التحرير

د. عبدالقادر علي باعيسى

سكرتير التحرير

أنور سالم باكركر

السكرتير الفني

حسن أحمد بلجعد

الصور

م.عبدالله جمال بن عبدالعزيز

التدقيق اللغوي

د. جمال رمضان حديجان

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبدالله حسين البار

أ. د. عبدالله صالح بابعير

أ. د. ناجي جعفر الكثيري

أ. د. مسعود سعيد عمشوش

أ.د. خالد يسلم بلخشر

د. طه حسين الحضرمي

د. أحمد سعيد عبيدون

د. صادق عمر مكنون

- المواضيع المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

- ترتيب المواد جاء وفق ضرورات فنية إخراجية.

- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تسلمها للنشر، سواء نُشرت أم لم تُنشر، ولا تلتزم بنشر المقالات المرسلة إليها بخطابات.

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baaesa-١@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان: المكلا - حي الشهيد - (بعد بانشريف مباشرة) - ت: ٠٥-٣٠٣١٢٥

العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

في رحلة الحرف نلتقي!

الأستاذ :
محمد بن سالم بن علي جابر

عزيزي القارئ الكريم:

ما إن نطوي تجهيز آخر صفحة من صفحات مجلتكم (حضرموت الثقافية) حتى ينتابنا شعور بالغبطة والسرور لاستكمال عدد جديد من أعدادها التي تتوالى تباعًا بفضل من الله عزّ وجلّ وبمثابرة من الجميع لمدّها بالمواضيع والأبحاث والاستطلاعات والتحقيقات التي تجد طريقها إلى النشر في رحلة المتعة والحرف.

عزيزي القارئ الكريم:

ونحن في (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) نجد لزامًا علينا أن نكثّف جهودنا لكي تستمر رسالة المركز وأهداف المجلة في خدمة تاريخ حضرموت وتراثها، واستعادة حضورها الثقافي في منظومة العمل المعرفي والحضاري العربي والإسلامي، منطلقين في ذلك من إيمان عميق بقدرة الإنسان الحضرمي على النهوض من كبوته والعودة إلى فضاءات الإبداع وفنون القول وعوالم المعرفة الإنسانية وعمقها الحضاري.

العدد الثامن
إبريل
يونيو
2018م

عزيزي القارئ الكريم:

سنظل نعمل على تحقيق حلم حضرموت الذي ارتأينا السعي الحثيث لإنجازه والمتمثل في (الموسوعة الحضرمية) لكي نؤسس لحاضر أكثر رسوخًا ونرسم خارطة المستقبل المنشود لكل حضرموت وطنًا ومهجرًا، وهذه الطموحات الحضرمية لن ترى النور إلا إذا تكاتفت جهود الجميع من أجل الانطلاق بالمشروع الاستراتيجي والسير به حتى لحظة الإنجاز.

وحتى نصل إلى هذه اللحظة -الأمل- ندرك حجم الجهد الذي سيقع على عاتقنا ونعلم يقينًا ما سيعترضنا من مصاعب للوصول إلى المادة التاريخية والوثائقية للموسوعة في ظل الغياب التام لمراكز البحث العلمية التي تختزل الأزمنة وتختصر المسافات، ولكننا اتخذنا قرارنا واتكلنا على مولانا فحسمنا خياراتنا لنبدأ رحلة الألف ميل.

عزيزي القارئ الكريم:

بين يديك (العدد الثامن) وكلنا أمل أن ينال رضاك، وتجد فيه الفائدة المرجوة والمتعة المأمولة، مؤكدين حرصنا على تلقي ملاحظاتكم واقتراحاتكم لتطوير عملنا في المركز بشكل عام والمجلة على وجه الخصوص.

ختامًا نلتقي في رحلة الحرف والعدد القادم.

الاجتماع الدوري للجنة العلمية بمركز حضرموت

عقدت اللجنة العلمية بـ(مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) اجتماعها الدوري الثاني للعام ٢٠١٨م برئاسة أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز، ناقشت فيه عددًا من النقاط المتعلقة بتنفيذ بنود الخطة السنوية للمركز، والندوة العلمية عن صحيفة (الرأي العام) المزمع انعقادها في نهاية شهر إبريل القادم، والندوة التاريخية المتعلقة بالمظاهر العسكرية والتقليدية في حضرموت، فضلًا عن متابعات إصدار الكتب الخاصة بالمركز، والعدد السابع من مجلة (حضرموت الثقافية) هذا وقد حظيت هذه النقاط بمزيد من النقاشات الجادة من قبل أعضاء اللجنة لما فيه تفعيل عمل المركز وزيادة دوره في النشاط الثقافي لا سيما في المجال التاريخي، وقد أكد المجتمعون على الاهتمام الكبير بمشروع (الموسوعة الحضرمية) فهو مشروع الأمة الحضرمية بامتياز لا سيما عند انتقال إدارة المركز إلى موقع العمل الجديد مما يقتضي تنظيمًا إداريًا ومكتبيًا أكبر وفقًا للإمكانات المكتبية والمخزنية المتاحة أكثر من ذي قبل لا سيما في مجال جمع المخطوطات وتوثيقها وتصويرها وأرشفة الإدارة بشكل عام.

محاضرة عن (الأحقاف في المصادر القديمة)

في إطار نشاطاته المتواصلة في الاهتمام بتاريخ حضرموت وتراثها نظم (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) مساء يوم الأربعاء ٢٨ مارس ٢٠١٨م في (قاعة نادي متطوعون) بالمكلا محاضرة للأستاذ المشارك الدكتور عبدالله كرامة التميمي أستاذ التاريخ القديم بكلية الآداب - جامعة حضرموت، بعنوان (الأحقاف في المصادر العربية والكلاسيكية) تطرق فيها إلى ما ورد في القرآن الكريم من ذكر للأحقاف وقوم عاد، وما ذكرته كتب التفسير والمصادر العربية والكلاسيكية اليونانية.

وأثارت المحاضرة بنتائجها المحفزة على التفكير التي وصلت إليها عددًا من الاستفسارات والنقاشات بغية تحفيز الأذهان للتنقيب في التراث الحضرمي بجدية ومسؤولية علمية ومنهجية بعيدًا عن الانفعالات والانحيازات والدعايات الإعلامية.

هذا وقد حضر المحاضرة أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز، وأ. د. صادق عمر مكنون رئيس جامعة الأحقاف، والروائي الحضرمي عمار باطويل ومديرو الدوائر بالمركز، وجمع من الأساتذة والباحثين والمهتمين والطلبة.

ندوة عن صحيفة (الرأي العام) الحضرمية في كلية الآداب

نظم (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) صبيحة يوم الأحد ٢٩ إبريل ٢٠١٨م ندوة علمية بعنوان (صحيفة الرأي العام الحضرمية - الرؤية والرسالة) بقاعة الفقيد أحمد عوض باوزير بكلية الآداب - جامعة حضرموت، تضمنت محورين الأول بعنوان (قضايا موضوعية) تحدث فيه أ. د. علي صالح الخلاقي عن الاحتفاء بالتعليم وأهله في صحيفة الرأي العام الحضرمية ١٩٦٣-١٩٦٧م، والأستاذ صالح مبارك عصبان عن القضايا الحقوقية في الصحيفة، والأستاذ صالح حسين الفردي عن الرسالة الإعلامية المضمونية، وقد أدار الجلسة د. ماهر سعيد بن دهري.

أما المحور الثاني فكان بعنوان (قضايا فنية ومهنية) تحدث فيه د. طه حسين الحضرمي عن تسريد الواقع في سرود صحيفة الرأي العام، وقدم الأستاذ ياسر علي لرضي دراسة تحليلية عن الصحفة الأولى من الصحيفة، وأدار الجلسة أ. أحمد زين باحميد، تلت الجلستين مجموعة من الحوارات والنقاشات التي أثرت مضامين الأبحاث المقدمة.

هذا وقد ألقى رئيس (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي كلمة في مستهل الندوة قال فيها: «سيبدو الانطباع الأولي لمن يقرأ بنر هذه الفعالية وكأن هناك طرفين مستقلين يشتركان في هذه الفعالية، وفي حقيقة الأمر نحن أمام مشهد أقرب إلى أن يكون فريقًا من جهة واحدة تم إعادة انتشار كوادره لأسباب تكاملية، فمعظم كوادر المركز من كوادر الكلية أو كان من طلابها، ونحن بصدد تعزيز التلاحم من خلال التوقيع على اتفاق الشراكة العلمية بين المركز والكلية لتنشيط الحركة العلمية وبما يحقق الأهداف العامة المرجوة، وهذه ليست أولى فعاليات التعاون فقد كان للمركز شرف تنظيم محاضرات وندوات مشتركة مع قسمي التاريخ والصحافة والإعلام، ونتمنى في قادم الأيام المزيد من الشراكة العلمية المثمرة». وأضاف قائلًا «بتنظيم هذه الفعالية يكون لنا في مركز حضرموت محاولة شرف استكمال دراسة ثلاثية الصحافة الحضرمية الأهلية في عصرها الذهبي في ستينيات القرن الماضي، وهي صحف (الطليعة)، و(الرائد)، و(الرأي العام) لقد صنعت هذه الثلاثية مداميك الحركة الصحفية الحديثة في حضرموت من حيث التبويب والإخراج ورصانة الموضوعات وعمق التناول ونأت بنفسها عن متاهات النفاق، بل كانت أقرب في رسالتها إلى تنوير المجتمع وتثويره وتطويره».

وأشاد د. محمد عوض بارشيد عميد كلية الآداب بجامعة حضرموت إلى أهمية هذا التعاون المثمر بين الكلية والمركز لا سيما أن هذه الندوة تنعقد في قاعة الفقيد أحمد باوزير بكلية الآداب، كما عقدت قبلها عام ٢٠١٦م ندوة صحيفة (الطليعة) الحضرمية في القاعة نفسها، مبديًا سعادته بتنفيذ هذه الندوة بكلية الآداب قائلًا: «إننا نتطلع إلى عقد مزيد من اتفاقيات الشراكة والتفاهم المعرفي والثقافي مع المركز لما فيه خدمة المعرفة والثقافة والتاريخ الحضرمي».

محاضرة عن العلاقة التاريخية بين مينائي الحامي وبروم

نظم (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) في السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ٨/ ٥/ ٢٠١٨م في مدينة بروم بالتنسيق مع مؤسسة الأمل للتنمية - بروم محاضرة للأستاذ محمد علوي باهارون بعنوان (العلاقة التاريخية بين موانئ ساحل حضرموت - بروم والحامي أنموذجًا) حضرها أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز، وعدد من مديري الدوائر بالمركز وأ. د. سالم عبدالله باصريح رئيس لجنة البلدان

في (الموسوعة الحضرمية) التي يعمل على تنفيذها (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر)، ود. عبدالله بامهدي رئيس مجلس إدارة مؤسسة الأمل للتنمية، ود. خالد الجوهي عضو مجلس الإدارة، وأ. عبدالله بازرعة المدير التنفيذي للمؤسسة، ود. سعيد العوادي الأستاذ بجامعة عدن، وعدد من مثقفي المدينة ووجهائها وطلابها. حيث عرض الأستاذ المحاضر للعلاقة بين المدينتين الساحليتين الحضرميتين (بروم والحامي)، ذاكرًا كثيرًا من تفاصيل التاريخ البحري للمدينتين اللتين عاصرتا الأحداث التاريخية معًا منذ القرن الهجري الثامن الهجري حتى العصر الحاضر، وكان لذلك التفاعل بينهما أثر امتدت مساحته إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية بين المدينتين بل إلى ميناء عدن في مرحلة معينة من مراحل التاريخ المعاصر لا سيما في أثناء الحملات البرتغالية على السواحل الجنوبية.

هذا وقد أعقب المحاضرة عدد من النقاشات والمداخلات المستفيضة التي أدلى بها الأساتذة المختصون وجمهور الحاضرين عمومًا. وقد أبدى وفد المركز سعادته بهذه الزيارة وبحسن الاستقبال والحفاوة التي حظي بها من قبل الإخوة في إدارة مؤسسة الأمل للتنمية - بروم، ومن الجمهور، هذا وقد ختمت المحاضرة الساعة الثامنة والنصف مساء.

الروائي باطويل والدكتور سرور في زيارة لمركز حضرموت

قام الروائي عمار باطويل ود. مسعد أحمد سرور بزيارة ودية إلى (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) للتعرف على النشاط الذي يقوم به المركز وإسهامه بفعالية في خدمة التراث والتاريخ الحضرمي، وقد التقوا في الزيارة بـ أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز، وعددًا من مديري الدوائر فيه، وطافوا في أروقته مبدين إعجابهم بهذا الصرح الذي سيمثل المركز تمثيلًا اعتباريًا لا نقًا لا سيما عند البدء بمشروع (الموسوعة الحضرمية) التي قدم عنها الدكتور الجعيدي شرحًا وافيًا عنها بأقسامها الخمسة، والتي سيضم المبنى الكبير بجنباته الواسعة مكانها وأرشيفاتها المتعددة.

9
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

البرتغاليون

في مصادر القرن العاشر الهجري -السادس عشر الميلادي-

(قراءة تاريخية في النصوص)

أ.د. عبدالله سعيد الجعيدي

تمهيد:

ظهور البرتغاليين على السواحل العربية الجنوبية:

تعد البرتغال الدولة الأوروبية الأولى التي كرست أكبر قدر من جهودها في البحث عن طريق ملاحي يوصلها إلى الشرق من غير المرور بالخط الملاحي الذي يسيطر عليه العرب(١). وقد أحدثت حركة الكشوف الجغرافية تغييرات جذرية في الأوضاع القائمة في البحار الشرقية بوجه عام، والسواحل العربية في شبه الجزيرة العربية بشكل خاص، فهي لم تؤدِّ إلى تدهور السيادة الإسلامية على التجارة الدولية ونظمها الاقتصادية فحسب(٢)، بل أحدثت أيضًا تغيرات في موازين القوى العالمية ووضعت أول ركيزة للاستعمار الأوروبي في سواحل المحيط الهندي، ومنها السواحل العربية، ووجد العرب أنفسهم يهاجمون من الخلف وأصبحت جزيرتهم وسواحلها الجنوبية على وجه الخصوص في قلب الأحداث الدولية(٣).

وابتداءً من سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) أي بعد خمس سنوات من وصول البرتغاليين إلى الهند نشطت الأعمال العدائية البرتغالية ضد الملاحة العربية في السواحل العربية، والمحيط الهندي، وقد استخدم البرتغاليون أسطولهم المزود بالمدفعية ليس في أعمال القرصنة ضد السفن التجارية العربية في عُرض البحر حسب بل في العمل على إغلاق منافذ البحر الأحمر والخليج العربي أيضًا، وشجعهم على ذلك عدم تعرضهم لأية مقاومة جادة ضدهم(٤).

مصادر الدراسة:

هذه الورقة لا تبحث في تفاصيل الهجمات العدائية للبرتغاليين على السواحل العربية الجنوبية وبخاصة موانئ حضرموت بل تحاول قراءة بنية النصوص التاريخية في مصادر القرن العاشر الهجري التي تناولت تاريخ الوجود البرتغالي في المحيط الهندي وموقف القوى الإقليمية والمحلية إزاءه، ومعروف أن هذا القرن تميز بزخم التطورات التاريخية، وبازدهار الكتابة التاريخية الحولية التي تهتم بذكر أهم الأحداث، ووفيات الأعيان، والمصادر التي رجعنا إليها هي: (تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل) مؤلفه أحمد بن عبدالله شنبل، وكتاب (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) تأليف أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بامخرمة، وكتاب (تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر) لمؤلفه عبدالله بن محمد باسنجله، وكتاب (تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر) تأليف محمد بن عمر بافقيه، كما اعتمدنا على نصوص من كتاب الربان سالم بن عوض باسباع الموسوم (بهجة السمر في أخبار بندر سعاد المشتهر) تضمنها كتاب محمد عبدالقادر بامطرف (الشهداء السبعة).

انتهجت هذه المصادر أسلوب الحوليات والتراجم وذلك امتدادًا للمدرسة التاريخية الإسلامية. ومما يؤخذ عمومًا على كتب الحوليات أنها لا تعطي سوى القليل من المعلومات المعزولة بعضها عن بعض، وعلاوة على ذلك فهي بخيلة في ذكر أسباب الحوادث التاريخية ومن ثم نتائجها، وتجدر الإشارة إلى أن كتب الحوليات والتراجم تتميز عن غيرها من المؤلفات التاريخية بالنقل الحرفي مما سبقها فضلًا عن أن مؤلفيها يزيدون ما يخص الحوادث والتراجم المعاصرة لهم، ورغم عيوب هذا الأسلوب في الكتابة التاريخية إلا أن الموجود منها أسهم في حفظ التاريخ الوطني في وقتٍ كان فيه عرضة للتلف، والضياع لعوامل لا مجال لذكرها.

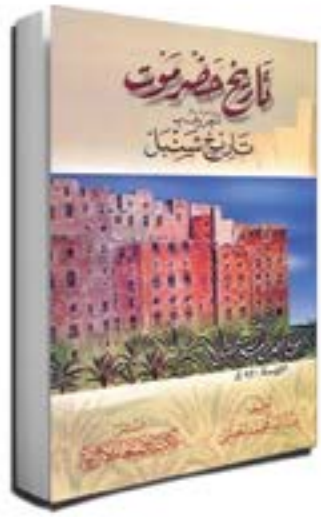

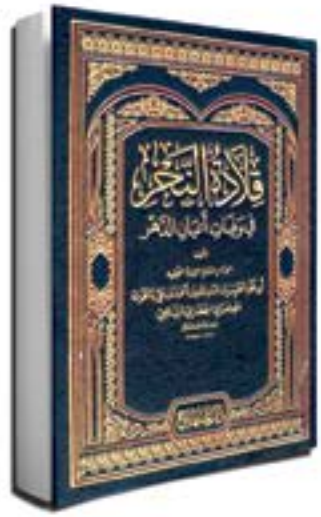

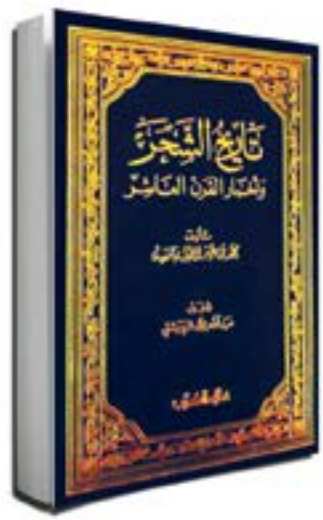

مصطلح البرتغاليين:

لم تغفل النصوص في المصادر التاريخية عن ذكر الهجمات البرتغالية على السواحل العربية الجنوبية في سياق تناولها لأحداث هذا القرن بل إن الإشارات الأكثر سخونة في تلك المصادر نجدها عند تعرضها لتاريخ هذه الهجمات على السفن العربية والموانئ والجزر والمضايق الحيوية.

وأقدم إشارة للبرتغاليين وجدناها عند المؤرخ شنبل في حوادث سنة (٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م) إذ ذكر: «وفيها ظهر الإفرنج الكفرة في مقدشوه وساح في الهند» (٥)، ويليه بافقيه الذي أورد أول إشارة له عن البرتغاليين في حوادث سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م)(٦) أما بامخرمة فقد ذكر: «أنه في سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣هـ ظهرت مراكب الفرنج في البحر بطريق البحر»(٧)، وعلى العموم كانت الإشارات الأولية مقتضبة وخالية من التفاصيل مما يدل على عدم توافر المعلومات عن البرتغاليين، ولهذا لاحظنا إشارات المؤرخ باسنجلة غير قاطعة ففي أخر إفادته عن ظهور البرتغاليين سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م قال: «والله أعلم» (٨) وفي السنة التالية يذكر أن الإفرنج أخذ هرموز صلحًا ويختتم النص أيضًا بجملة (والله أعلم/)(٩) وفي حوادث السنة نفسها يورد المؤرخ العيدروس المتأخر في التأليف عن باسنجلة المعلومة نفسها من غير الإشارة إلى (والله أعلم/)، (١٠) فقد صارت المعلومات في عصره معروفة ويتناقلها الناس.

وقد أطلقت النصوص على البرتغاليين لفظة الفرنج، والفرنجة والإفرنج، ولم ترد لفظة البرتغاليين إلا في كتاب الشهداء السبعة الذي اعتمد على مخطوط معاصر وذلك بتحريف كلمة البرتغاليين (Portuguese) إلى (البردجيز)(١١)، أما لفظة الإفرنج التي تسيدت النصوص فقد تماهت مع الأدبيات الإسلامية التاريخية المتعلقة بتاريخ الحملات الصليبية على بلاد الشام ومصر وكانت اللفظة الشائعة في المصادر قبل الحملات الصليبية هي لفظة الرومان أو الروم وجاء في الآية الكريمة: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٢-٣] ويقصد بالروم الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وهم الذين كانوا على تماس مباشر مع المسلمين في جغرافيا متحركة وعبر مراحل متعددة من التاريخ.

ولفظة الإفرنج التي تسللت في الثقافة الإسلامية وصفًا عام للأوروبيين المسيحيين بخاصة بعد الحملات الصليبية على بلدان المشرق العربي فإنها تعطي مؤشرات على ضعف معلومات المؤرخين عما يدور في القارة الأوربية من تشكلات سياسية وظهور دول مركزية قوية بمسميات معروفة.

ويتضح البعد الديني للنصوص عندما ترد لفظة الإفرنج بصور متوازية مع لفظة الكفار وأحيانًا تكتفي النصوص بلفظة الكفرة التي تؤدي الغرض نفسه في دلالته وخاصة عندما تتقابل مع لفظة المسلمين بوصفهما طرفين نقيضين وهذه الثنائية الضدية المحكومة بتاريخ من الصراع الحربي والصدام الحضاري تؤشر إلى ما يمكن وصفه بوحدة العالم الإسلامي وديار الإسلام ويقابلها بلاد الكفار بعموميته الإفرنجية المسيحية. أو العالم المسيحي ورغم ضعف الدولة المركزية الإسلامية وغياب شوكتها في مناطق الأطراف فإن الشعور الوجداني بالوحدة الإسلامية أو الأخوة الإسلامية غالبًا ما يتعزز عند ظهور المخاطر والتحديات التي تمس المسلمين في عقيدتهم وأوطانهم، ولعل هذا ما يفسر تمترس النصوص في توصيف

المواجهات بين البرتغاليين وسكان حوض المحيط الهندي من العرب وغير العرب بأنه صراع بين المسلمين والكفار، ولهذا تصف النصوص قتلى المسلمين بالشهداء وصرعى البرتغاليين بالأموات، ويعطي بامخرمة بعداً خاصاً لكن غير بعيد عن ثنائية المسلمين والكفار عندما صنف الطرفين بحزب الرحمن ويقصد بهم المسلمين وحزب الشيطان ويقصد البرتغاليين(١٣).

لكن هذه النصوص وهي تعطي توصيفها العام للمسلمين العرب وغير العرب القاطنين في حوض المحيط الهندي فإنها تشير إلى مصطلح الروم، والأروام ، وورومي، ويقصد به الأتراك العثمانيين وهم من القوى الإسلامية الكبرى التي تلقب سلاطينها بخليفة المسلمين ومع هذا ربما يثير هذا المصطلح بعض الغموض عند الإحالة التاريخية إلى الرومان أو الروم (الإمبراطورية الرومانية) لكن ظهور هذا المصطلح جنباً إلى جنب مع مصطلح الإفرنج في المصدر الواحد يدل على أن المصطلح الأخير استقر في الثقافة الإسلامية، والذاكرة الجمعية بوصفه مفهوماً يحيل إلى الشعوب الأوروبية أو أوروبا الصليبية.

الاعتداءات البرتغالية في المصادر التاريخية:

شكل ظهور البرتغاليين على السواحل العربية الجنوبية صدمة كبيرة لسكان هذه السواحل ، وتتجلى هذه الصدمة في لغة النصوص التي اعتراها الارتباك والغضب الشديدين لكنها لم تمض على وتيرة واحدة وارتبطت بمدى قسوة الهجمات البرتغالية وبالمسافة التاريخية التي دوّنت فيه هذه الهجمات، وإذ توحدت مشاعر النصوص ضد البرتغاليين فإن المصادر التاريخية تباينت في

معلوماتها واختلفت نبرتها بخاصة عند إشاراتها المباشرة أو الضمنية لموقف الحكام المحليين أو موقف الأهالي من هذه الاعتداءات .كما سوف نشير إلى ذلك لاحقًا، وعلى أية حال فقد غلب على هذه النصوص الطابع الخبري، وكشفت حالة الفقر العربي في المعلومات عما يجري في القارة الأوروبية الناهضة.

وعمومًا انحازت المصادر لهويتها العربية وثقافتها الإسلامية وذلك لما تمثله الهجمات البرتغالية من تهديد محتمل للأماكن المقدسة في الحجاز، وعلى المصالح الاقتصادية لسكان السواحل العربية الجنوبية والقوى الإسلامية الأخرى التي اهتزت تجارتها البحرية بتغير الخط الملاحي بعد أن تمكن البرتغاليون من الدوران حول أفريقيا. كما أن البرتغاليين لم يحملوا أي فكرة حضارية ولو تمويهية بل نجدهم يمارسون أبشع الأساليب لفرض سيادتهم على تجارة المحيط الهندي على حساب حركة الملاحة الإسلامية.

كما اتسمت هذه النصوص بالروح الانفعالية وعكست حالة الضعف العربي الذي اعتمد في أمنه الخارجي على القوى الإسلامية الرئيسة في مصر والشام بوصفهما كانتا تمثلان الحاجز الاستراتيجي من الهجمات المتوقعة شمالًا، وتجلى هذا الضعف في ردود فعل النصوص التي ركنت إلى أسلوب الشتائم عند إشاراتها إلى الاعتداءات البرتغالية على السواحل العربية والإسلامية ولهذا لا تكاد تغادر النصوص مربع اللعنات من قبيل : (خذلهم الله- لعنهم الله- لا صحبهم الله السلامة – فهرب الملعون – أهلكهم الله)، ومن أمثلة النصوص عند بامخرمة: « وحصل على المسلمين ضرر عظيم في ناحية الهند وهرموز أهلكهم الله»(١١) وعند باسنجلة: «وقتل من الإفرنج لعنهم الله جماعة فهرب الملعون إلى هرموز» (١٢)، وتكررت مثل هذه الألفاظ في المصادر الأخرى واللافت في كتاب شنبل تركيزه فقط على ثنائية المسلمين والكفرة وربما يعود ذلك لتوقف نصوص مؤلفه عند سنة ٩١٥ هـ/ ١٥١٠م أي قبل أن تشتد هجمات البرتغاليين وتشتهر اعتداءاتهم.

وهكذا عبرت النصوص عن وجهة النظر العربية كما أسلفنا القول ولعله لا مجال هنا في البحث عما يمكن وصفه بالحيادية أو بالموضوعية فمنهجية الكتابة عن طريق الحوليات كما هو معروف تعنى بذكر الحوادث وأحيانًا التعليق العابر عليها وهي مرحلة متسقة مع واقعها ومع الثقافة التقليدية السائدة. كما أنه أمام ديمومة الهجمات البرتغالية التي اتسمت بالقسوة والوحشية يصير من المثالية بمكان البحث عن نصوص في المصادر خالية من الأسلوب القوي أو التعبوي - إن صح التعبير- وهي بهذا

عبرت بصدق عن حالة السخط العام بصرف النظر عن النبرة الجامحة التي اتصفت بها.

وإذا أعطينا بعداً آخر لغضب النصوص فإنها في الأصل أعراض صدمة حضارية عند العرب أكثر منها حالة غضب. فالبرتغاليون تقدموا إلى عمق السواحل العربية بنشوة الانتصار على الممالك الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، وبتطلعات امتزجت فيه روح الحروب الصليبية مع الأطماع في الاستحواذ على ثروات الشرق، ومما شجعهم على مغامراتهم تحرر الأفكار في أوروبا من أغلال العصور الوسطى واستخدامهم الأسلحة النارية غير المعروفة وقتئذ عند سكان السواحل العربية الجنوبية، وأمام هذه الفجوة الحضارية التي كانت في غير صالح العرب عبثت السفن البرتغالية في السواحل العربية الجنوبية وكانت لها اليد الطولى، وبالمقابل زخرت النصوص بذكر عدد الشهداء والمأسورين والسفن المنهوبة وعُمّدت النصوص في ثناياها بالدعاء باللعنات.

ومع هذه الصورة القاتمة إلا أن بعض النصوص قدمت معلومات عرضية عن موقف الحكام المحليين والأهالي من هذه الهجمات البرتغالية بل وصل بالبعض منها بتقديم الانتقادات أو السخرية جراء غياب الموقف القوي ضد تلك الهجمات من ذلك ما ذكره باسنجلة في حوادث سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م عندما قال: «... إن غرابًا من الإفرنج مر ببندر عدن وضرب إليها مدافع، ثم تجاوزها إلى باب المندب ومر إلى سواكن ودهلك وصادف جملة خشب وقتل جماعات من المسلمين في الخشب اللي أخذها.. ولم يصده صاد ولا أزعجه مزعج هذا مع أن عدن وزبيد ملآنتان من الأروام وعُدد وغيرها، وهذا شيء عجيب تضرب به الأمثال ويؤرخ في التواريخ ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١٦]. كما لاحظنا أن المؤرخ باسنجلة ينفرد في نصوصه بذكر ما تصمت عنه المصادر من ذكر المواقف الإيجابية النادرة عند البرتغاليين فبعد أن ذكر أعمالهم الإجرامية في رمي الحجاج في البحر قال في النص نفسه: «وجماعة افتكوا سالمين»[١٧]، ومن جانب يورد إشارة ضمنية انتقد فيها تصرفات العثمانيين لقيامهم بفك سفينتين برتغاليتين مقابل مبلغ من المال[١٨].

كما سجلت نصوص المؤرخ بافقيه بعض المواقف الانهزامية لقوات السلطان بدر بوطويرق بخاصة بعد سيطرة البرتغاليين على عدد من السفن الراسية في مدينة الشحر من غير مقاومة تذكر وعلق على هذه الحادثة بنقد لاذع إذ قال: «ارتجت البلاد ارتجاجًا عظيمًا من فعلهم وحزن المسلمون لذلك وحصلت شناعة عظيمة، ذلك كله ظنًا منهم أن ذلك مما يرضي الإفرنج ومما يتقربون به إليهم وهيهات لا الإفرنج راضين عنهم ولا الرومي ولا المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١٩].

أما الحادثة الشهيرة في تاريخ الهجمات البرتغالية على السواحل الحضرمية هي هجومهم البري المباشر على مدينة الشحر سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م وتناولت النصوص هذا الحدث الكبير بصيغ متفاوتة وأحيانًا متباينة ونحن لسنا بصدد الحديث عن تفاصيل الأحداث وحيثياتها، وعلى أية حال فلم ترد أخبار هذه الحادثة عند كل من المؤرخ شنبل والمؤرخ بامخرمة، فالأول توقف عند حوادث سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م أي قبل حادثة الشحر بتسع سنوات، أما المؤرخ بامخرمة فقد توقفت حولياته في سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م.

وهناك مصادر عاصرت أو كانت قريبة العهد بهذه الحادثة من ذلك ما جاء عند باسنجلة في حوادث ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م سجل فيها الآتي: «وفيها يوم الخميس لتسع خلت من ربيع الثاني: توصل تجهيز الإفرنج -لعنهم الله- إلى الشحر نحو أربع عشر خشبة صغارًا وكبارًا فلما كان صبح يوم الجمعة خرج بعسكره إلى البلاد لعشر خلت من ربيع الثاني ونهبها وحرق فيها وقتل بها الأمير مرجان... وقتل بها الفقيه أحمد بن عبدالله فضل وأخوه فضل .... وخلق

كثير وأسر خلق كثير فممن أسر وافتك في الحال الفقيه أحمد بن عبدالله بالرعية»(٢٠). أما بافقيه فسجل الآتي «وفي يوم الخميس تاسع ربيع الثاني: وصل الإفرنجي المخذول في نحو تسع خشب ونزل إلى البلد يوم الجمعة وابتدأ القتال بعيد الفجر ولم يثبت له أحد من الناس بل انهزموا انهزامًا قبيحًا واستشهد أمير البلد الأمير المرحوم مطران بن منصور رحمه الله أصابته بندقة من بعيد فسقط مكانه»(٢١). وفي (النور السافر) للعيدروس وردت الإشارة كما يأتي: «وفيها استشهد بافضل في معركة الكفار لما دخل الإفرنج الشحر وقتلوا الأمير مطران وغيره وأسروا ونهبوا»(٢٢).

أما المؤرخ باسباع فقد انفرد بذكر تفصيلات المقاومة وقال بأسلوبه العامي:

«هدّت [عاركت] الناس يد واحدة ..كل واحد يشوف دار الثّاني داره والعار عاره والخو [الأخ] خوه وإذا شافوا واحد من البردجيز الملاعين حملوا عليهم»(٢٣).

قدمت هذه النصوص قراءات خاصة بأصحابها فالمؤرخ باسنجلة يؤكد ضمنيًا على انتصار البرتغاليين الساحق. أما العيدروس فقد تبنى رواية باسنجلة مع بعض التخفيف.

أما الروايتان المغايرتان فنجدهما عند بافقيه الذي انتقد الأهالي انتقادًا لاذعًا، بينما نجد باسباع الأكثر قربًا من هذه الحادثة يمتدح صمود الأهالي وتكاتفهم، وقد ناقشت بعض الأدبيات التاريخية هذا الأمر ولا يسمح مجال الدراسة بالتعليق أو ترجيح الآراء، بيد أن القاسم المشترك بين هذه الروايات اتفاقها على تمكّن البرتغاليين من إحكام سيطرتهم على مدينة الشحر والدليل على ذلك إشارات النصوص للخراب الذي أحدثوه في مدينة الشحر لكن هذا لا يلغي تضمين النصوص نفسها لفعل المقاومة والتصدي من خلال ذكرها لأسماء الشهداء من أعيان الشحر ورجالها البارزين ومن عدد القتلى والأسرى وهذا لا يتم إلا في ظل معارك حقيقية، ولأن ميزان القوى لم يكن في صالح أهالي الشحر المتزودين فقط بالأسلحة البيضاء (العصي والسيوف) فإن صوت المنتصرين غالبًا ما يسمع بعد انتهاء المعارك بخاصة في نصوصهم الخاصة . لكن شجاعة النصوص المحلية في نقل مشاهد الانكسار لا ريب سيعطيها نوعًا من المصداقية لا سيما عند أولئك الذين يحبذون في استنباطاتهم الإشارة إلى المقولة الشهيرة (وشهد شاهد من أهلها)، ومما سيحسب أيضًا لصالح النصوص بحسب الروايات السابقة المتباينة أنه رغم طريقة الحوليات في الكتابة التي تعتمد في النقل الحرفي للمتأخرين عن المتقدمين فإن النصوص تحركت ليس فقط في ظاهر نصوصها بل أيضًا في بعض مضمونها مما أكسبها نوعًا من الحيوية.

بقي أن نختتم بجملة لعلها الخلاصة وهي أن هذه النصوص ربما لم تسعفنا بالمعلومات التي تشبع فضول أهل التاريخ لكنها ضمنيًا ألمحت إلى أن الانكسارات غالبًا ما تكون نصيب الشعوب التي ركنت إلى الجمود، وتركت تيارات التاريخ المتدفقة تتجاوزها.

الهوامش والمراجع:

١) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر و الخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل، مجلة (المناهل)، السنة (١٠)، العدد (٢٦)، مارس ١٩٨٣م، ص٧٧.

٢) فاروق عثمان أباظه، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٣٣.

٣) جمال زكريا قاسم، تاريخ الخليج الحديث والمعاصر- الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي ١٥٠٧- ١٨٤٠م، المجلد الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٤٦.

٤) نفسه والصفحة نفسها وينظر: د. عبدالله سعيد الجعيدي، السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت ١٤١١ – ١٧٣٠م ط، تريم للدراسات والنشر، تريم، ٢٠١٣م، ص١٢٢.

٥) أحمد عبدالله شنبل، تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط٤ ١٩٩٤م، ص٢١٦.

٦) محمد عمر بافقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ص٤٦.

٧) أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بامخرمة، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: محمد يسلم عبدالنور، ط١، وزارة الثقافة صنعاء، ٢٠٠٤م، المجلد ٣، ص٢٧٢٧.

٨) عبدالله بن محمد باسنجلة، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، ص٣٢.

٩) عبدالله بن محمد باسنجلة، المرجع السابق، ص٣٠.

١٠) عبدالقادر شيخ العيدروس، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص٥٨.

١١) محمد عبدالقادر بامطرف، الشهداء السبعة، ص١٠، وفي كتاب (البرق اليماني في الفتح العثماني) لمؤلفه قطب الدين محمد بن حمد النهروالي المكي يطلق على البرتغاليين لفظة (البرتقال) جنبًا إلى جنب مع لفظة الإفرنج.

١٢) أبو محمد الطيب بامخرمة، المرجع السابق، ص ٣٧٣٢.

١٣) نفسه، ص ٣٧٢٧.

١٤) عبدالله بن محمد باسنجلة، المرجع السابق، ص٦٠.

١٥) نفسه، ص ص٦٨- ١٦٩.

١٦) نفسه، ص٥٥.

١٧) نفسه، ص٩١.

١٨) محمد عمر بافقيه، المرجع السابق، ص٢٠٧.

١٩ عبدالله بن محمد باسنجلة، المرجع السابق، ص٤١.

٢١) محمد عمر بافقيه، المرجع السابق، ص١٥٧.

٢٢) عبدالقادر شيخ العيدروس، المرجع السابق، ص١٢٦.

٢٣) محمد عبدالقادر بامطرف، الشهداء السبعة، ص١٠١.

من وثائق التاريخ الحضرمي

وثيقة تولية السُّلطان غالب القعيطي القضاء للسيد محسن بن جعفر أبي نُمي

محسن علوي أبوبكر باعلوي

نصُّ الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمْدُ لله الذي قضى بنصب الشَّرائع والأحكام، وحَكَمَ باختصاص الإسلام بدوام الأحكام، وألزم بإعلاء أعلامه [1] بين الأنام، وأثبت البقاء لهذه الشريعة الغراء ببقاء الأيام، وتعطَّف بسماع دعوة المظلوم، ورفعها فوق الغمام [2].

والصَّلاةُ والسَّلامُ على أعلم حاكم، وأحكم عالم، وأقضى من عدل، وأعدل من قضى سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الكرام البررة، أولئك أهل التقوى وأهل المغفرة.

وبعد:

فهذا عهد السيد محسن ابن [3] جعفر بن علوي أبو نمي باعلوي بتولية القضاء عَهِدَ إليه وليُّ الأمر فخامة السُّلطان المعظَّم غالب ابن [4] المرحوم السُّلطان عوض ابن [5] عمر ابن [6] عوض القعيطي؛ وذلك بعد أن عرف سيرته، وخلوص عقيدته، ونزاهة نفسه، وكونه عارفًا بالفقه، الذي به انتظام الأفعال الدنيوية والأخروية، وغيره من العلوم، وقلَّده قضاء بلاد غيل أبي وزير، وما يتبعها من القرى والنواحي، كشحير، والحزم، وحباير، والقارة، والنقعة، وجعله حاكمًا فيها، وفيما دونها، وولي الأنكحة، ولي [7] من لا ولي لها بتلك البلاد، وما حولها مما لم يكن بها متولي العقود، وأذن له في استخلاف غيره، ونهاه عن سماع دعوى مضت لها خمسة عشر [8] سنة؛ فإن تعلقت بوقف، أو إرث، أو صدرت من غائب، فيرفع حكمها للسُّلطان المكرَّم.

ووصَّاه بتقوى الله تعالى، وطاعته في حلِّه وعقده، وجميع شؤونه [فإن خير الزاد التقوى].

وأمره بأن يستضيء بنور كتاب الله تعالى في دُجَى المشكلات، وأن يستفتح بمفاتيحه مغالق المعضلات؛ فإنه الفارق بين الحلال والحرام، والدَّال على مظنة الصَّواب في الأحكام، وأن يتمسَّك بسنة رسوله الأكرم؛ فإن كل من تمسَّك بها نجا، وكذلك يتمسَّك بإجماع الأمة؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة، وسأل [9] أهل العصر في المشكلات، ومعضلات القضايا.

وأن يقضي بالراجح من مذهب الشافعي، وإن رأى مقابله تقتضيه المصلحة رفعه لجلالة السُّلطان ليوافق [10] على ما يقضي به فيرتفع الخلاف حينئذٍ، وأن يحتاط في أموال الأيتام والغائبين والأوقاف؛ ليصونها عن خيانة الخائنين، وأن يسوِّي بين الخصمين، ويحكم بينهما بالعدل، ويبحث عن حال الشهود؛ فيقبل الأمثل فالأمثل، ويأخذ بالحزم والديانة في أمور المسلمين، وينصب الأمناء من الكُتَّاب والأعوان، والقاسمين [11]، ويراعي في جميع ذلك ما فيه رضى الله تعالى -جعلنا الله وإياه ممن رضي الله عنه-، وتقبل علمه بمنه وكرمه.

وللبيان حُرِّر في ٢٢ شعبان سنة ١٣٣٤هـ الأربعة والثلاثين والثلاثمائة وألف.

بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٣٤١هـ، فقد عهد جلالة السلطان المعظم عمر بن عوض بن عمر القعيطي إلى السيد محسن بن جعفر أبونمي بما تضمنه هذا العهد المذكور أعلاه.

التحقيق والتعليق:

احتوت وثيقة تولية القضاء على عدة أمور:

١- **الدِّيباجة**: وهي المقدمة، وفيها الابتداء بالبسملة، والحمدلة، وفيها كذلك براعة الاستهلال، وهو قوله: (الحمد لله الذي قضى بنصب الشرائع، والأحكام، وحكم باختصاص الإسلام بدوام الأحكام).

وكذلك في قوله: (والصلاة والسلام على أعلم حاكم، وأحكم عالم، وأقضى من عدل، وأعدل من قضى ...إلخ).

٢- بيان اسم السلطان المعهد بولاية القضاء، وهو أولاً السُّلطان غالب الأول بن السُّلطان عوض الأول بن الجمعدار عمر القعيطي، تولى حكم السُّلطنة سنة (١٣٢٨هـ)/ ١٩١١م، وتوفي بحيدر أباد الدُّكن سنة (١٣٤٠هـ)/١٩٢٢م.

وقد وُصف السُّلطان بعبارات تدل على شخصه؛ مثل: ولي الأمر، فخامة السُّلطان المعظَّم، وفي موضع آخر: المكرَّم، وفي آخر: جلالة السُّلطان.

ثم السُّلطان: عمر بن السلطان عوض الأول بن الجمعدار القعيطي، ولد بحيدر أباد الدُّكن سنة (١٢٨٧هـ)، وتولى السلطنة يوم وفاة أخيه غالب سنة (١٣٤٠هـ)، وتوفي بالهند سنة (١٣٥٤هـ).

٣- ذكر اسم القاضي المعهد إليه بالقضاء، وهو العلامة القاضي السيد محسن بن جعفر بن علوي أبو نمي باعلوي، مفتي الساحل ولد سنة (١٣٠٦هـ)، وأخذ عن الشيخ محمد بن عمر بن سلم، (ت١٣٢٩هـ)، وعن غيره، وولي قضاء غيل باوزير، والنواحي التابعة لها بعد القاضي عبد القادر بن أحمد بامخرمة، وذلك سنة (١٣٣٤هـ)، ولاه بذلك السُّلطان غالب القعيطي، وبقي في

القضاء إلى وفاة السلطان غالب، ثم جدّد له العهد السُّلطان عمر، وذلك في ٩ شعبان سنة (١٣٤١هـ)، أي بعد نحو تسعة أشهر من وفاة السُّلطان غالب. وبقي السيد محسن في قضاء الغيل إلى سنة (١٣٤٤هـ)، انتقل بعدها إلى قضاء المكلا، وعيّن الشيخ علي بن سعيد بامخرمة، (ت١٣٨٩هـ) خَلَفًا له على قضاء غيل باوزير، وأعيد السيّد محسن على قضاء الغيل مرة ثالثة في عهد السلطان عمر سنة (١٣٥٠هـ)، وبقي على قضائها إلى سنة (١٣٥٦هـ)، توفي السيد محسن بعد حياة حافلة بالعطاء سنة (١٣٧٩هـ).

٤- ذكر بعض صفات القاضي المتوافرة في المتولي للقضاء، وهو السيد محسن، وهي:

أ- حسن سيرته.

ب- خلوص عقيدته، وصفاؤها.

ج- نزاهته.

د- تمكُّنه ومعرفته بالفقه، وغيره من علوم الشريعة.

٥- تحديد البلاد المعهد للقاضي بالقضاء فيها، وهي مدينة غيل باوزير، والنواحي التي تتبعها، وغيل باوزير نسبة إلى مؤسسها الشيخ عبدالرحيم بن عمر باوزير (ت٧٤٧هـ)، تقع في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة المكلا، والنواحي التابعة للغيل هي: شحير، والقارة، والنقعة، وحباير، وهي قرية تأتي بعد القارة، في الجهة الشرقية للغيل، وكذلك الحزم في الجهة نفسها.

٦- تعيين الأعمال التي يكلّف بها القاضي، وهي:

أ- الحكم، والقضاء بالعدل بين الناس.

ب- تولي عقود الأنكحة في الغيل، ونواحيها.

ج- الولاية على مَنْ لا ولي له.

د- الولاية على أموال اليتامى، والغائبين.

هـ- الولاية على أوقاف مدينة غيل باوزير.

و- البحث عن حال الشهود الذين يشهدون عند القاضي.

ز- تنصيب الأمناء من الكُتّاب، والأعوان، والقسّامين.

٧- ذكر أوامر السُّلطان ووصاياه في مسائل القضاء خاصة، وهي:

أ- التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإجماع الأمة.

ب- سؤال علماء العصر في مشكلات المسائل، ومعضلات القضايا.

ج- القضاء بالراجح من مذهب الإمام الشافعي.

د- رفع الأمر للسلطان في حالة ما إذا رأى القاضي أن المصلحة تقتضي الحكم بخلاف الراجح من مذهب الشافعي.

هـ- التسوية بين المتخاصمين، والحكم بينهما بالعدل.

و- الاحتياط في أموال اليتامى والغائبين والأوقاف.

٨- ذكر المنهيات، وهو ما نهاه عنه السُّلطان، ونص على: النهي عن سماع الدعوى التي مضى عليها خمسة عشر عامًا.

٩- ذكر الأعمال التي أذن السُّلطان للقاضي بفعلها، وهي:

الاستخلاف: وهو أن يستخلف القاضي شخصاً آخر يخلفه عند سفره، أو مرضه.

١٠- ذكر وصية السُّلطان، وهي: الوصية بتقوى الله.

١١- الخاتمة، واحتوت على الدعاء، والتاريخ في قوله: (جعلنا الله وإياه ممّن رضي الله عنه، وتقبل علمه - (لعل صوابه عمله)-، وللبيان حُرّر في ٢٢ شهر شعبان سنة ١٣٣٤هـ.

١٢- توقيع السلطان، وتوقيع السلطان غالب القعيطي، موجود أعلى الصفحة كما هي عادته، وتوقيع السلطان عمر موجود في الأسفل.

١٣- وقد ألحق بالوثيقة نفسها عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي للسيد محسن بما تضمّنه عهد السلطان غالب، وذلك بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٣٤١هـ.

الهوامش:

(١) لعل في السياق حذفًا، ولعل الأصل: والزم بأعلى إعلامه الحكم بين الناس.

(٢) الغمام: السحاب.

(٣) الصواب حذف الألف.

(٤) لعل الصواب: ووني بزيادة واو العطف.

(٥) صوابه: خمس عشرة سنة.

(٦) لعل صوابه: يسأل، أو سؤال.

(٧) كلمة غير واضحة، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٨) القاسم: هو الذي يقسم الأشياء بين الناس.

(٩) انظر كتابنا: عجالة المقتصد من بر الوالد - الترجمة المختصرة للسيد محسن بن جعفر أبي تمي - غير مطبوع ص١٧٥.

16
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

لمحة عن أسواق حضرموت في الجاهلية والإسلام

انتشرت في بلاد حضرموت في العصر الجاهلي، وكذلك الإسلامي أسواق كثيرة، اتجر بها الناس في مختلف أصناف التجارة، الرائجة في تلك العصور، وهي بحاجة لتسليط الأضواء البحثية، لتوفير مادة علمية حافلة؛ تغني الباحث الطموح ولو من بعض الوجوه، بمعلومات وافية حول تاريخ وطبيعة هذه الأسواق، وما مارسته من تأثير على الذات الحضرمية؛ ومن ثمَّ المجتمع الحضرمي في تلك الأحقاب التاريخية السحيقة.

وفي هذه السطور سأتكلم عن الأسواق الحضرمية.. وسأتعرض في مقالي هذا لتحديد أماكن هذه الأسواق، وأوقاتها، وما يباع فيها، ومن يتردد عليها من الناس، وأثرها على الاقتصاد والثقافة في المجتمع الحضرمي الجاهلي والإسلامي.

منير بن سالم بازهير*

وهذا الموضوع في اعتقادي من الأهمية بمكان لعدة أسباب منها:

١. تأكيد النبوغ التجاري لدى الحضارمة وأنه يعود إلى عصور موغلة في القدم، وأن حب الاتجار والمغامرة متأصل في النفس الحضرمية منذ أزمنة سحيقة، كما تؤكده النقوش العائدة إلى ما قبل الميلاد.

٢. كشف طبيعة الحركة التجارية في مرحلة الجاهلية التي ندر من يتحدث عنها بشكل تفصيلي دقيق.

٣. تحديد أماكن الحراك التجاري داخل حضرموت، وتحديد السلع المعروضة في تلك الأسواق ولو على جهة الإجمال.

٤. ذكر كيفية التأمين لتلكم الأسواق والطرق المؤدية إليها، وفي هذا إبراز لهوية القبائل الأكثر قوة ونفوذًا في تلك الأحقاب.

٥. التعريج على ذكر أنواع الصناعات والسلع التي اشتهرت بها حضرموت على مستوى الجزيرة العربية والعالم، إلى غير ذلك من الفوائد.

٦. إبراز أثر الأسواق على الحراك الأدبي والثقافي في المجتمع الحضرمي.

وسأسلك في كتابة بحثي هذا مسلك الوصف والتحليل والاستقراء؛ ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولا أشك في أن الكتابة في موضوع كهذا؛ ستفتقر إلى مزيد من المتابعة والتعمق، والمسح الميداني، لجمع مادة أكثر دقة ورصانة، ولعلي بطرق هذا الموضوع أجد بين عالم الباحثين والمتخصصين، من يرشدني إلى ما يكمل ويتمم الفراغ في جوانب كثيرة أخرى تتصل بأسواق حضرموت في العصر الجاهلي أو الإسلامي. ولكن كما قيل: (ما لا يدرك جله لا يترك كله)، و(الميسور لا يسقط بالمعسور). ولهذا سأتحدث عن هذه الأسواق حسب ما تيسر لدي من معلومات أعدها أولية بالنسبة لي.. أثمرتها المطالعة الخاصة في كتب التاريخ ومصادره ومظانه.

وقبل الخوض في صلب الموضوع سأعرف بمعنى السوق عند علماء اللغة والاقتصاد.

معنى السوق لغويا واقتصاديا:

جاء في (المعجم الوسيط) أن (السُّوق): الموضع الذي يجلب إليه المتاع والسلع للبيع والابتياع؛ وسوق القِتَال أو العراك أو الحَرْب مَوضع اشتباك المتحاربين، وجمع سوق أسواق.

والسوق المَالِيَّة: سوق استغلال الأمْوَال لأجل طَوِيل؛ والسوق الحرَّة: سوق يتعامل فيها في خارج البورصة أو الجمرك، والسوق السَّوْدَاء: سوق يتعامل فيها خُفْيَة هربًا من التسعير الجبري.

أشهر أسواق حضرموت في العصر الجاهلي:

أولًا: سوق الرابية:

ويعد من أشهر الأسواق بحضرموت، ولم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة -أي حماية قبلية- لأنها لم تكن أرض مملكة، وكان من عز فيها بزَّ صاحبه - أي من غلب تمكن من حماية غيره- فكانت قريش تتخفر فيها ببني أكل المرار من كندة، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة، فكانت مكرمة لأهل البيتين، وفضل أحدهما على الآخر كفضل قريش على سائر الناس[1].

فيستفيد هذان الحيان من الخفارة والدلالة معًا ربحًا ماديًا، إذ كان كسبهم من أولئك التجار الذين يمشون بين أيديهم بسلاحهم يحرسون بضائعهم، ويحمون حياتهم، من اللصوص والصعاليك وقطاع الطرق، ويدلونهم على الطريق الآمنة بحذق وحنكة.

وكان سوق الرابية خاص بحضرموت ومن حولها، ولكن كثيرًا ما يأتيها الناس من بعيد، ولقريش قوافل إلى هذه السوق ترسلها في تجاراتها، وكان وقت هذا السوق من منتصف ذي القعدة حتى آخره، وربما قامت هي وعكاظ في يوم واحد، فكان بعض الناس يأخذ في التوجه إلى عكاظ وبعضهم يتوجه إلى رابية حضرموت[2].

وإنما جعل زمن سوق الرابية بشهر ذي القعدة؛ لأنه من الأشهر الحرم، بل هو من أشهر الحج، إذ إن الحج لم يترك في الجاهلية لكنه مشاب بعقائد الكفر والضلال، وكان العرف العربي العام يمنع القتال في الأشهر الحرم.

وذكر أهل التاريخ مكان موقع سوق الرابية، فقال المؤرخ علوي بن طاهر الحداد: «وسوقٌ بالرابية، بوادي العين»[3].

وفصل المؤرخ ابن عبيداللاه السقاف في تحديد الموقع فقال: «وبين البويرقات وغورب، مكان لا جمعة فيه يقال له الرابية، كانت تقيم فيه العرب سوقًا»[4].

ومن هذه النصوص التاريخية تستفاد فوائد عديدة، هذه الفوائد تتصل بتسليط الضوء على زوايا مهمة عن طبيعة سوق الرابية، نلخصها فيما يلي:

١- أن الغلبة والشوكة كانت لقبيلة كندة في تلك العصور، وأنه لم يكن هناك حكم سياسي موحد يمتاز بالقوة والحزم والضبط لشئون البلاد، وهذا ما أشارت إليه عبارة صاحب (المحبر) القائلة: «ولم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة.. إلخ» وقد تقدمت.

٢- أن الأصل في سوق حضرموت أنه سوق يعقد لأهل حضرموت وما جاورها، يتزودون فيه بما يحتاجون من سلع مختلفة لحول كامل أو ما يقاربه، وتعرض فيه مختلف المعروضات المسهمة في توفير حاجات الناس المتنوعة، والموسعة لحركة المال والاقتصاد بأرض حضرموت.

٣- كما أفادت النصوص السابقة، أن هناك قبائل وافدة تشارك في توفير بضائع هذا السوق الحضرمي كقريش، ولا يمنع أن يكون هناك غيرها، فإذا كانت قريش القصية تشارك بالتجارة في أرض حضرموت، فلا مانع أن يأتي تجار من صنعاء، وتجار من عُمان وهكذا، وكل هذه القبائل المتاجرة بسوق الرابية تدفع ضريبة حماية كما تقدم تسهم في توسيع دورة عجلة الاقتصاد عند القبائل الحاكمة.

٤- كان وقت هذه السوق من منتصف ذي القعدة حتى آخره، وربما قامت هي وعكاظ في يوم واحد، فكان بعض الناس يأخذ في التوجه إلى عكاظ وبعضهم يتوجه إلى رابية حضرموت، واختير الشهر ذو القعدة لتكون التجارة والتاجر أكثر أمانًا من اللصوص والصعاليك.

٥- لعل أبرز ما يباع في هذا السوق، الجلود، والمواشي من الإبل والبقر والغنم، والمراكيب من خيول وحمر وبغال، وبخور، وأطعمة وتوابل وعقاقير تليق بذاك الزمن، وثياب ونعال، وزينة النساء، من الحلي كالفضة والذهب، وأنواع من وسائل الزينة كالنعال، بالإضافة إلى الأدوات المنزلية المصنوعة من الفخار والحديد والنحاس.

٦- ذهب بعض أهل التاريخ من الحضارمة وهو العلامة عبدالرحمن بن عبيداللاه السقاف -رحمه الله تعالى- إلى أن موقع سوق الرابية يقع بوادي العين بين بلدتي البويرقات وغورب، وهما من القرى المعرفة بوادي العين، ولعل هذا التحديد وصلهم عبر التناقل اللفظي عبر أجيال متعاقبة من التاريخ، وبالجملة فما قدمناه يعد معلومات أولية عن سوق الرابية تفتقر إلى خروج ميداني، وتنقيب آثاري متخصص وأمين، يتولى التنقيب في هذه القرى، ونحن بحاجة إلى استقصاء تاريخي أدق، يكشف لنا عن حقائق أكثر دقة وتمحيصاً.

ثانيا: سوق الشحر:

ويعرفه أهل التاريخ بـ(شحر مهرة)، فتقوم السوق تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود، وهو مكان معروف بحضرموت، هكذا ذكره المؤرخ محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ) في كتابه (المحبر)[٥]، حيث قال: «ولم تكن بهذا السوق عشور -أي ضرائب-؛ لأنها ليست بأرض مملكة، وكانت التجار تتخفر فيها ببني محارب بن هرب من مهرة، وكان قيامها للنصف من شعبان، وكان بيعهم بها إلقاء الحجارة، وكان غالب ما يعرض فيها الأدم والبز وسائر المرافق، ويشترون بها الكندر[٦] والمرّ، والصبر، ويقصدها تجار من البر والبحر»، وقوله: «يقصدها تجار من البر والبحر»، يفيد كثرة من يفد إليها من التجار من البحر العربي، ومن خلف البحار كالهند والسند ونحوها، وهذا يفيد كثرة وتنوع البضائع الآتية إلى هذا السوق.

ثالثا: سوق قعوضة:

قعوضة: هي بلدة عريقة في جنوب هينن في حصن جبل، وهي: «سوق عظيم تردها القوافل، من: صنعاء والجوف وبيحان ونصاب ونجران»، هكذا قال ابن عبيداللاه السقاف في (إدام القوت)[٧]. ويظهر من هذا النص، أنه كان يوجد ببلاد قعوضة سوق تجاري عظيم ، يتزود منه الناس بمختلف الحاجات.. وأن هذا السوق بقي يمارس دوره إلى وقت قريب، وأنه محل للبضائع الحضرمية، مع بضائع تأتي من صنعاء والجوف وبيحان ونجران، كما يستفاد من نص (إدام القوت)، إلا أن المصادر لم تفصح عن تاريخ انعقاده.

رابعا: سوق هينن:

قال المؤرخ ابن الحائك (ت ٣٣٤هـ) في كتابه (صفة جزيرة العرب): «ثم هينن وهي قرية كبيرة، في أسفلها سوق»[٨]. وتأمل قوله: «قرية كبيرة»، لتعلم أنه كان بهذا البلد حضارة قائمة تقتضي حكومة قائمة، ومعطيات اقتصادية وحياتيه تليق بهذا الوصف الصادر من ابن الحائك، وهي التي اقتضت إقامة سوق كبير بها، حتى لكأن بلدة هينن آنذاك كانت عاصمة لعدد من القرى المجاورة.

وهينن من أقدم بلدان حضرموت، وهذا مما لا شك فيه تاريخيًا، قال المؤرخ السقاف في (إدام القوت): «ولا يزال بهينن كثير من الآثار والكتابة بالمسند على الأحجار، وفيها حصن كندة القديم، الذي كان يسكنه الأشعث بن قيس، وكان يخرج منه ألف وخمسمائة فارس بشَكَتِهم، ويطلق عليه اليوم حصن فرحة»[٩].

وقدم هينن تؤكده النقوش التي يعود تاريخها إلى ما قبل الميلاد، كما ذكر بعض ذلك جواد علي في (المفصل)، وأشار إلى أنها تعود إليها الكتابات المعروفة بـ ٦٤٩ Jamme)).

ولأهمية بلاد هينن التجارية تحدث أهل التاريخ عن طرق التجارة إليها، وذكروا عدد من المراحل بينها وبين صنعاء، فقال السقاف في (الإدام): «أما الطريق من أثناء حضرموت إلى صنعاء، فسبع مراحل: الأولى: من هينن وعروض آل عامر إلى دهر، والثانية: من دهر إلى رملة شبوة، والثالثة: منه إلى صافر، وهو موضع الملح المشهور، الرابعة: إلى مأرب، الخامسة: إلى صرواح، السادسة: إلى الحمرة، والسابعة: إلى صنعاء.

وأهل زماننا ومن قبلهم بردح لا يستطيعون هذا السير؛ وإنما كان الأولون أهل نشاط وعزم، ولذا كثرت بينهم المواصلات؛ لأن الجزيرة قريبة من بعضها في أنظارهم»[١٠].

خامسا: سوق حجر:

ذكره ابن عبيداللاه السقاف في (الإدام)، وقال: «إنه يقع في السفيل من قرى وادي العين»[١١].

وحجر بلاد تقع على بعد خمسين كيلومترًا غرب المكلا، فلعل المراد بسوق حجر إتيان معروضات تجارية إلى هذا المكان من بلدة حجر، فسمي السوق بهذه التسمية، ولا مانع من وجود عروض تجارية أخرى، لكن الغالب للمنتوجات الحجرية هو من تمور ومنتجات خوصية ونحوها.

والمتبادر إلى الذهن من كلام ابن عبيداللاه السقاف أن سوق حجر

المنعقد بسفيل وادي العين غير سوق الرابية المتقدم فليلاحظ!

ولذا فإن مما يشكل على الباحث فيما يتصل بسوق حجر، هل هو من الأسواق الجاهلية القديمة؟ أو أنه سوق قام على غرار ذكريات سوق الرابية الماضي؟ احتمالات! لأن ابن عبيداللاه السقاف لم يصرح بأنه سوق جاهلي قديم، ولذا يحتمل أن يكون حدث في عصور متأخرة، فالمسألة تفتقر إلى مزيد من التحرير والتدقيق والمتابعة، وإنما ذكرته هنا إتحافًا للباحث بمعلومة قد تنير له الدرب في يوم من الأيام، وحسبي أني رصدت سوقًا آخر من أسواق حضرموت؛ قد يقصده بالدراسة المستوعبة غيري في وقت قريب، أو بعيد.

وكما أسهمت الأسواق الحضرمية في الرخاء الاقتصادي بحضرموت آنذاك، أسهمت في تحقيق مكاسب معنوية ومادية أخرى، كالترابط القبلي، وتبادل المعرفة والتجربة والحكمة اللائقة بتلك الحقب، والتلاقح الفكري والحضاري والثقافي، ولا نشك في أنها أسهمت في تقوية الصناعة اللغوية والأدبية والشعرية عند الحضارمة؛ لأنه كان من السائد المتعارف عليه عند العرب أن يصاحب الأسواق التباري في قول الشعر كسوق عكاظ تمامًا.

أما قضية التزاوج بين القبائل الحضرمية والقبائل الشريفة المتاجرة فقد أشار إليه الدكتور يوسف خليف، حينما تكلم عن نظام الخفارة والجوار الذي تتولاه القبائل الحضرمية حماية للقبائل المتاجرة فقال: «وكان هذا الجوار عملًا مربحًا يسعى وراءه سادة الصحراء سعيًا شديدًا، فقد كان أصحاب القوافل يشركونهم في عملياتهم التجارية، أو يقاسمونهم الأرباح، أو يفتحون لهم حسابات جارية في نوافذ مصارفهم على حد تعبير (لامانس). ولم يكن يعدل سعي هؤلاء السادة وراء هذا الجوار إلا حرص أصحاب القوافل عليه، حتى لقد كانوا يستميلونهم أحيانًا بالمصاهرة»[١٢].

وينبغي أن نفهم أن أرباب التجارات الوافدة إلى حضرموت إذا أتموا بيع تجاراتهم تزودوا بالبضائع الحضرمية التي لا توجد ببلدانهم وساروا بها إليها، وهذا كلام منطقي لا مناص عنه، وممن أكده من دارسي التاريخ الدكتور يوسف خليف في كتابه: (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي) حيث قال: «ومن الطبيعي أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية، حيث يوجد الماء مجموعة من الأسواق تنزل فيها القوافل التجارية، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق التي تجاورها بسلعهم، ويقوم بين الفريقين تبادل تجاري، ترحل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه القوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم»[١٣].

وبعد كل ما ذكرته أقول: إن قلمي يرغب في تسطير الكثير من المعلومات، عن طبيعة تاريخ الأسواق الحضرمية، وإن في الذاكرة لوفرة من المعلومات حول السوق الحضرمية، ولكن رومًا للاختصار وخوفًا من الملالة، سأقف هنا، على أن أكتب في مقال قادم عن البضائع المباعة في أسواق حضرموت في تلك الأحقاب القديمة، لنتعرف على الكثير من المصنوعات والمنتوجات الحضرمية.

وختامًا أقول ما قاله المؤرخ الشاطري رحمه الله تعالى: «فحضرموت لا تزال بكرًا ولم يعلن عن اكتشاف شيء مما يظن وجوده فيها. وربما يكشف لنا المستقبل بواسطة تقدم علم الحفريات أو محققي المؤرخين الاختصاصيين عن معلومات واسعة يعتمد عليها»[١٤]. فمتى يا ترى يكشف لنا التاريخ عن مُحجبات آثار وأخبار حضرموت الكثيرة البلدان، الواسعة الأودية، المتصلة بحضارات متنوعة وموغلة في القدم؟ هذا وبالله التوفيق.

الهوامش:

* رئيس تحرير مجلة (التواصل) الصادرة عن (دار المصطفى للدراسات الإسلامية بتريم).

(١) الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢٧٦.

(٢) محمد بن حبيب، المحبر، ص٢٦٧، وأسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢٢٥.

(٣) الحداد علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت، ص، الطبعة القديمة.

(٤) إبدام القوت، ص٤٣٠، طباعة دار المنهاج.

(٥) المحبر، ص٢٦٧.

(٦) الكَنْدَر هو: اللُّبان. انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ص٢، ص٥٤٨.

(٧) ص٤٦٣.

(٨) صفة جزيرة العرب، ص٨٥.

(٩) ص٤٦١.

(١٠) ص٢٥١.

(١١) إبدام القوت، ص٩٢، طباعة دار المنهاج.

(١٢) يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص١٤٢، الناشر: دار المعارف، الطبعة الرابعة.

(١٣) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص١٢٨.

(١٤) أنوار التاريخ الحضرمي، ج١، ص٣٢ وص٣٨.

التاريخ والكتابة الصحفية

عندما نكتب عن الحركة الصحفية في حضرموت في ستينيات القرن الماضي فلا بد أولاً من الكشف عن المعالم السياسية التي رافقت تلك الحركة الصحفية، وحصر أبرز اتجاهاتها السياسية سلطة ومعارضة، ومن ثم حصر أبرز اتجاهات الكتابة الصحفية سلطة ومعارضة، وما قد ينشأ داخل هذا من تناقضات وتنوعات مختلفة، ذلك لأن حركة السلطة لن تمضي على وتيرة واحدة متسقة من البداية إلى النهاية، وكذلك حركة المعارضة، إذ تخضع العلاقة بين السلطة والمعارضة لحال من المقاومة والرفض، والتجاوب، والتماشي أحيانًا، وكل هذه الحركات في مجموعها تشكل خلفية واسعة للكتابة التاريخية، فليس التاريخ سلطة فحسب، ولا معارضة فحسب، وإنما مجال واسع خاضت فيه هذه الاتجاهات وتعاركت، فلا تحتكر الكتابة التاريخية في زاوية واحدة هي زاوية المعارضة التي خاضت فيها صحف ستينيات القرن الماضي في حضرموت (الطليعة، والرائد، والرأي العام)، وإنما وفق منظور جدلي تنبثق عنه رؤى ربما لا يتم الالتفات إليها عند النظر من زاوية واحدة.

د. عبدالقادر علي باعيسى

ربما كنت ألمح هنا إلى الرغبة في قراءة بحوث جدلية تقدم لنا فاعلية الفهم والإدراك بصورة أكثر نتائجية وعمقًا حيث تقدم الأبحاث بناء على أولوية النتائج المتوصل إليها لا على أولوية الأسماء التي تكتب، فالكتابة التاريخية هي مادة ثقافية للتفاعل والجدل ليس بين السلطة والمعارضة في ذلك الوقت، بل بينهما وبين عقل المحلل والدارس التاريخي، الذي يتعرض لكل الأحداث ويعيد قراءتها وتحليلها، بوصف قراءة التاريخ لا تخلو من نشاط ذهني يبديه القارئ التاريخي نحو ما يقرأ، ولا أقول المؤرخ الذي يعيد تسجيل الأحداث دون أن يعمل جهده في التحليل والاستنتاج بحيث يتحول التاريخ إلى أيقونات ثابتة، ويتحول معه قراء الحاضر إلى أيقونات ثابتة تعيد إنتاج ما أنتج، فالكتابة التاريخية من أخطر المجالات التي تمارس فيها الكتابة لما لها من أهمية في تطور الموقف الإنساني اللاحق بكل مجالاته الإنسانية السياسية والاجتماعية والحقوقية.. إلخ.

وعليه فمن المهم أن تندرج الكتابة التاريخية في نظم متجددة حتى لا تعيد نفسها بحيث تظل تمتلك إمكانية الوصول إلى نتائج أكثر تنوعًا بغية تنمية البحوث وأبعادها الاستنتاجية بعيداً عن طريقة التكرار والإعادة، وحتى يكون للكتابة التاريخية عمق تأثيري في المجتمع وحبذا لو تخالفت الرؤى حول مرحلة معينة فلا يتم النظر إلى أي شيء منها على أنه نموذجي أو مثالي أو مفروغ منه ما دام آتيًا في إطار حركة الزمن وتطوره، وما ننظر إليه على أنه ثابت في التاريخ ليس أكثر من حركة، ذلك لأنه سبق بظروف ونظم سياسية واجتماعية وإدارية، ولحق بظروف ونظم أتت بعده، إنه ذو

صبغة تحولية ما دام مرتبطًا بالزمن، وعلى ذلك لا يمكن وصف التاريخ بالثبات المطلق إلا على المستوى الذهني والدراسي فقط.

وأهم ما يمكن التركيز عليه:

- الاهتمام بالمكتوب والتعليق عليه.
- الاهتمام بالثابت والمتحرك في حركة التاريخ.
- الاهتمام بالسياق الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري الذي وجدت فيه تلك الكتابات التاريخية ودراسته، وعدم التسليم بما جاء في تلك الكتابات تسليمًا عامًا ومطلقًا دون دراسة.
- التقابل المستمر بين الحاضر والماضي، فربما أثرت مرحلة لاحقة في التاريخ على مرحلة سابقة وأعادت النظر إليها بصورة مختلفة.

وعودة إلى ما بدأنا به إلى أي حد يمكن أن نعد المادة الصحفية مادة تاريخية تخضع للعمليات التحليلية نفسها التي يخضع لها أي كتاب تاريخي صرف، وهل يمكن مقارنة الكتابة الصحفية بالكتابة التاريخية؟ فالكتابة الصحفية أنشئت نمطًا مستقلًا من الكتابة، لا لتكون تاريخًا، فإلى أي حد نضع على الكتابة الصحفية مقاييس الكتابة التاريخية، وما هي الفوارق بين الطريقتين في الكتابة والتحليل؟ وما هي الأخطاء التي نرتكبها في سبيل المطابقة بينهما؟ من حيث المبدأ كل شيء قيل في الماضي يمكن أن يكون تاريخًا، واللغة هي نفسها في تطورها حالة تاريخية بمعنى أننا عندما نقرأ التاريخ الذي كتب في القرن العاشر أو الثاني عشر مثلًا فإننا نقرأ الأحداث التاريخية، في الوقت الذي نقرأ تاريخية اللغة، وتاريخية اللغة قد تنقل لنا الأحداث بصورة مختلفة عما نفهمه نحن منها انطلاقًا من لغتنا المعاصرة لا سيما إذا كتبت باللهجة العامية، بل إن طريقة فهم أي مؤرخ للغة الحادثة التاريخية قد تختلف عن الآخر إلا إذا كانا يتأثران، أو ينقل أحدهما آليًا عن الآخر في نوع من التأثر الميكانيكي دون إعمال للذهن، فالمؤرخ وإن ظن أنه يكتب التاريخ بأمانة فإنما يكتب لغته الخاصة به، وينتقي من تجارب وأحداث متعددة ما يريد، وباللغة التي يريد، وفي هذا الانتقاء تظهر انطباعاته بصورة مباشرة أو غير مباشرة. إننا أمام جهتين مشكلتين هما حقيقة الواقعة التاريخية ونقل الحقيقة باللغة.

وحبذا لو تم النظر إلى التاريخ بأكثر من زاوية من التحليل النفسي والاجتماعي والاقتصادي بحيث نفهمه بصورة أوضح مما نحن بحاجة إلى تنشيطه في قراءاتنا القادمة بوصف التاريخ ملك الجميع الذين يمكن أن يقرؤوه بمناهجهم الخاصة، وفي هذا التداول بين المناهج تتضح كثير من الحقائق التي كانت مغيبة، ويظل التاريخ في حالة من الفعالية والنشاط دون توقف، وربما سمعنا عن علم النفس التاريخي، وعلم الاجتماع التاريخي، وكثير من الأحداث الاجتماعية والسياسية التي حدثت في الماضي ربما كانت أسبابها نفسية خالصة بوصف السلطان أو الملك كان هو المتنفذ الأوحد في شؤون سلطته إلى درجة أن يخضع المجتمع كله لتصرفاته التي تغدو بدورها تصرفات يتبناها المجتمع مما يترسخ بعد ذلك في الوعي والسلوك الاجتماعي، أو أن أحداثًا معينة فرضها المجتمع بقوة سلطته في الأعراف والتقاليد.

وعلى أية حال فالتاريخ عملية مستمرة من الهدم والبناء والتراجع والتقدم، وربما كانت كتاباتنا تدعو لا إراديًا إلى حالة من التراجع عن حالة كانت متقدمة عقليًا في التاريخ بسبب النقل الآلي للمكتوب وعدم تشغيل مناهج مختلفة في قراءة التاريخ.

التاريخ عملية مستمرة من الهدم والبناء والتراجع والتقدّم

حبذا لو تم النظر إلى التاريخ بأكثر من زاوية من التحليل النفسي والاجتماعي والاقتصادي بحيث نفهمه بصورة أوضح

عدن - المكلا - سقطرى

د. سعيد الجريري

سقطرى في الذاكرة الشعبية العميقة جزيرة الأساطير والجنيات العابرات المحيط والعواطف أيضًا. تعود بي الذاكرة الآن إلى مطلع السبعينيات عندما كان الخط البحري مفتوحًا على وسعه بين سقطرى وبلدات شرقي حضرموت وقراها كقصيعر والريدة والديس الشرقية، وما يحف بالخيال مما يرويه البحارة ويتداوله الرجال والنساء عن غرائبية تلك الجزيرة الغريبة في مسماها وأخبارها وملامح أهليها، وكيف تتملك حوريات البحر السقطريات أفئدة الرجال، وما يحطنهم به من مفاعيل السحر الذي به عن كل شيء يذهلون.

سقطرى فاتنة مدهشة فتنة المحيط ودهشته اللتين يبحر باتجاههما المبحرون، ثم يعودون وقد تلبستهم حالات غريبة، هي مخيال طفولتنا مسّ جمالي غرائبي، فالعائد من سقطرى مولود، تتلامح في إهابه مهابة عجيبة.

ومن الطريف أن إطلالتي على سقطرى - وكان في النفس شيء منها منذ الصبا - أنها لم تكن رحلة على قارب صيد أو باخرة شراعية، وإنما كانت على سفينة حربية، في أجواء مناورة عسكرية تدريبية مشتركة بين قوات البحرية، وكان مركزها عدن، وقوات الأسطول السوفيتي في المحيط الهندي. كنت حينئذ - ١٩٨٢م - مجنداً في قيادة القوى البحرية لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، مهمتي، عادةً، خط الرسومات الإيضاحية لخطط التدريب في لوحات من الورق المقوى، لكن مهمتي في المناورة كانت مختلفة، مكنتني من دخول الغرفة الرئيسية في سفينة القيادة، جنبًا إلى جنب مع قائد البحرية وركني التدريب والعمليات ومساعديهم ومستشاريهم، لأقوم برسم مسار المناورة بالعقدة البحرية على ورق شفاف صقيل، فكانت رحلة بحرية ولا في الأحلام، كنت أطل فيها على المحيط من علو سفينة القيادة المهيبة، من نقطة الانطلاق في عدن مرورًا بالمكلا وصولًا إلى سقطرى لأول مرة، والنزول إليها ليس كبحار تنتظره حوريات الجزيرة العجيبة، وإنما محفوفًا بلحظة نجاح تنفيذ المناورة، حيث الأجواء الاحتفالية بحضور وزير الدفاع وكبار قيادات الجيش والخبراء السوفييت.

كانت رحلة طويلة تخللها نزول إلى المكلا بقوارب مطاطية، فقد كان الوصول قبيل المغرب، فبدت لي المدينة من جهة البحر وهي تشعل قناديل مسائها مختلفة عن تلك المكلا التي أعرف شوارعها ومحالها وملامح أهليها، ورأيتني كالسائح الغريب الذي يتراءى له مرساها عتبة لاكتشاف الدهشة، وما عمق ذلك الإحساس أن أغلب من كانوا برفقتي من المجندين والضباط يفدون إلى المكلا للمرة الأولى، وقد بدت لي الدهشة متلألئة في عيونهم، كالقناديل المتلألئة أضواؤها على صفحة بحر المكلا الهادئ هدوء ساكنيها.

أن تدخل المكلا قبيل المغرب بقارب مطاطي، وقد حُددت لك ساعات معينة للتجوال في المدينة، فأنت أشبه بالسائح العابر، لكن المفاجئ أن تجد نفسك تؤدي دور الدليل السياحي، ويعزز ذلك أن لا وجود لأي مظهر عسكري، فلا أسلحة محمولة، ولا مسدس يُرى بخاصرة أي ضابط ممن كانوا في أقصى مدنيتهم. يومئذ رأيت المكلا كما لم أرها من قبل، كأنني لم أتسكع في شوارعها مع الأصدقاء أو لم ألعب الكرة معهم في سيف حميد، ولم أشاهد فيلمًا في أي من دور السينما فيها، ولم أذق الصيادية أو البراوطة وصانة الخضرة في أي من مطاعمها أو لم أقتني كتابًا أو مجلة من أي من مكتباتها أو لم أصلّ في مساجدها... أو ...

كان القادة العسكريون في منتهى الهدوء والانضباط، وكان كل شيء يمضي بسلاسة، وكنت أؤدي مهمتي بصمت يتخلله توجيهات صوتية من أجهزة الرادار والمراقبة وشبكة الارتباط، وكلما قطعت السفينة مسافة معينة محسوبة أدوّن علامة معينة على خارطة بحرية

ذات رموز معينة، وشيفرة دقيقة. لكن ما كان يخرجني من صرامة ذلك العمل هو ما يفتعله أحد الأصدقاء من مجندي كتيبة الإمداد والتموين، إذ كان يصعد من قاع السفينة حيث يشتغل، ليصطحبني معه، مستأذنًا لي من الضابط المناوب، فيفتح باب الثلاجة الكبير حيث الفواكه مختلف أنواعها، قائلًا لي بنبرة حلفونية: (تعال خنّحا نفغش في التفاح)، فأجاريه فاغشًا كما يفغش، ثم نمضي وقتًا معًا نراقب الأفق من نافذة غرفته، لكنه كلما استوحشني كان يصعد إلى غرفة القيادة حيث أدوّن خط المسار على الخارطة، مستأذنًا لي من الضابط المناوب، ليصطحبني نحو ذلك الباب الذي يفتحه على إيقاع جملة (تعال خنّحا نفغش في التفاح)، فنفغش في التفاح والبرتقال وما جاورهما من فواكه أخرى.

في عرض المحيط، في الطريق إلى سقطرى سمعنا ورأينا لأول مرة أصوات المدافع منطلقة من سفن بحرية ضخمة، لا يوقفها انهمار المطر بغزارة، أو انطلاق الرياح بقوة خرافية، لكن ما يهدئ من روعي أن كل شيء كان يسير بدقة، وفق الخطط المرسومة، وكان يرتسم على ملامح القادة، وسحناتهم، ونبرة أصواتهم، ثم أنني كنت في وضع من يضع رجلًا على رجل، وأمامه على الطاولة المستطيلة كوب من الشاي بالحليب، ثم تنقشع الغيوم، وتصمت المدافع وتشرق شمس عجيبة فترى في منتهى الأفق جزيرة تدنو رويدًا رويدًا، ثم نهبط إليها، حيث كنا على موعد مع تفاصيل جزيرة السحر القديم، كما هي في حكايات البحارة وما يحف بها من غموض فاتن.

سالم العبد الحمومي

انهمارات حضرمية

لشد ما كنت مأخوذًا بنظرية التراكم التي طالما كانت مصاحبة لتطور المجتمعات البشرية حد التلازم في أطوارها صعودًا ونهوضًا يلبي مطامح البشر وتوقهم المشروع في تجسيد أحلامهم للوصول إلى الأفضل والأحسن والأكمل تناغمًا مع سنة الله في الأرض التي استخلفها بني آدم لإعمارها والتنعم بخيراتها وأعطياتها المتجددة.. وطيلة مسيرة البشر الملحمية بدءًا بطفولتها الغضّة المتلمسة لمخاطر الطريق وندرة مساحاتها الآمنة.. مرورًا بفتوتها واكتمال عنفوانها حين تتحقق المشاريع التاريخية الكبرى بوصفها واحدة من المحطات أو التحولات الكبرى التي تضيف تراكمًا يستحق أن يكون موثقًا في صفحات السجل العام لبني الإنسان.. ليعودوا إليه ويستلهمون منه العبر ليتجاوزوا العثرات ويتزودوا بالطاقة والعزم والحافز الذي يمكنهم من الانطلاق إلى إنجاز وإرساء دعائم مشروع جديد يضاف إلى تاريخهم الحافل بالانتصارات والانتكاسات، وتلك هي الحياة بتنوعها الذي استودعه الله فيها. ولكن أن تنضب حوافز الحياة والتوق الفطري إلى التطور، وتتيبس العقول أو تكاد عن ابتكار المشاريع الكبرى الكملة لمسيرة التطور والمحققة لنظرية التراكم الملهمة.. فتلك لعمري طاقة تحاكي العدم والخواء والتراجع العبثي..

24
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

الصلات التجارية بين حضرموت والهند

تاريخها - وأثرها في رفد الهجرة المتبادلة

منذ العصور التاريخية القديمة حتى عصر السيادة الإسلامية

(دراسة حضارية في ضوء المعطيات الأثرية والنقشية والمدونات التاريخية)

(١ - ٢)

أ.د. محمد بن هاوي باوزير*

الصلات الحضرمية الهندية منذ القدم حتى ظهور الإسلام

الهند وبلاد العرب:

تعود العلاقات التجارية القديمة بين بلاد العرب[١] والهند إلى سنين موغلة في القدم - نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. وقد كانت مصر وبلاد الرافدين والشام وفارس والحبشة وبلاد الروم تحصل على بعض المنتجات العربية الجنوبية (البخور) والبضائع القادمة من الهند والشرق الأقصى بواسطة التجار العرب - عرب شبه الجزيرة العربية. ويبدو أن عرب شرق شبه الجزيرة العربية وجنوبها - خاصة الحضارمة والعمانيين هم أول من أبحر في المحيط الهندي، مستعينين بسبقهم في معرفة النجوم والفلك، ولعلهم بذلك أصحاب السبق في استيراد منتجات الهند والشرق الأقصى وتصديرها إلى العالم القديم، بل يبدو أنهم خاصة (الحضارمة والعمانيين) قد أسهموا في تطوير النشاط التجاري الملاحي آنذاك. وقد كانت السفن تبحر بالمنتجات الهندية من الهند عبر الخليج العربي إلى بلاد الرافدين، ثم عبر الصحراء إلى فلسطين ومصر، غير أن الطريق الأهم هو الطريق البحري بين الهند وحضرموت وعدن[٢].

إن بلاد العرب كلها من بلاد الرافدين والشام إلى شرق الجزيرة العربية وجنوبها قد اتصلت اتصالًا وثيقًا بالهند تجاريًا وثقافيًا. ومنذ القرن الأول قبل الميلاد نالت بلاد العرب الجنوبية شهرة فائقة في المجالات السياسية والاقتصادية والتجارية، وفي هذا العصر اتصلت العربية الجنوبية، وخاصة مملكة حضرموت القديمة، اتصالًا وثيقًا بالهند[٣]، وزادت هذه العلاقات تقدمًا وازدهارًا وتوثقًا على مر السنين[٤]. وظل الحال كذلك حتى أتى على العربية الجنوبية وحضرموت عهد من الاضطرابات السياسية ألقى بظلاله على نشاطهم التجاري وعلى علاقاتهم الخارجية، وقبيل انقراض الدولة الحميرية - آخر دولة عربية جنوبية - وقعت أحداث سياسية خطيرة أدت إلى أن تصبح الدولة الحميرية وبلاد العرب الجنوبية كاملة فريسة للدول المتنافسة في تلك الآونة (القرن السادس الميلادي) وهي فارس وبيزنطة والحبشة. ولا شك أن هذه الأحداث قد أسهمت في شتات هذه الأمة العظيمة (أهل العربية الجنوبية)، ولعلها كانت من أبرز الأسباب التي دفعت أبناءها إلى الهجرة والتنقلات، ومنهم الحضارمة، فهاجروا إلى العديد من البلدان الآسيوية والأفريقية، مثل الهند والشرق الأقصى، والحبشة وشرق أفريقيا وغيرها. وهذه الظاهرة ساعدت على انتشار ثقافتهم في تلك البلدان التي هاجروا إليها - التأثير والتأثر[٥].

حضرموت والهند.. اتصالات وعلاقات تجارية وحضارية على ضوء المعطيات الأثرية والنقشية والتاريخية:

إن العلاقات التجارية بين الأمم والشعوب هي العامل الرئيس في التقارب بينهما على كافة المستويات الحضارية - الثقافية والاجتماعية والسياسية، ولقد كان لهذا العامل منذ

قوافل تجارية

فجر التاريخ دورًا أساسيًا في اتصال المجاميع البشرية المتناثرة والمتفرقة، وارتباط بعضها ببعض إثر عمليات التبادل التجاري بالمقايضة، ثم ازداد هذا التعامل تعقيدًا بعد ظهور النقد ليصبح العامل الأساسي في علاقات الجماعات البشرية، فتمازجت الجماعات وتداخلت الشعوب وتقاربت الأمم، بل كان ذلك في إطار ما يمكن أن نطلق عليه الدائرة الحضارية الكبرى، التي امتزجت شعوبها، وتعمقت علاقاتها، وتعددت سبل التأثير والتأثر فيما بينها، وسوف نتناول هنا الصلات والعلاقات التجارية والحضارية التي كانت تربط عرب جنوب شبه الجزيرة العربية وعلى وجه الخصوص عرب حضرموت بساحل الهند الغربي وغيرها من المناطق الهندية.

لقد كانت للممالك العربية الجنوبية ومنها مملكة حضرموت، مع الهند علاقات تجارية لا نعرف على وجه الدقة بدايتها، وقد كانت الهند تشتهر بمنتجات ومصنوعات عديدة تحتاج إليها شعوب العالم القديم، (كالأحجار الثمينة وأنواع الطِّيب بالإضافة إلى التوابل، وكذا الأخشاب كالساج والأبنوس والصندل، والأنسجة والحرير، والمعادن وغيرها من المنتجات[٦]).

ولعل موقع حضرموت بالنسبة للهند جعل منها مركزًا لاستلام المنتجات الهندية وتوزيعها بوساطة التجّار الحضارم أو غيرهم من تجّار شبه الجزيرة العربية أي تصديرها لبلدان العالم القديم. وقد عكس ذلك التواصل التجاري نفسه في المدى التاريخي على العلاقات الحضارية بين مملكة حضرموت والهند، علمًا أن تلك العلاقات لم تقتصر على الجانب التجاري، وإنما تمخض عنها اتصال وتفاعل حضاري وثقافي فاعل ونشيط، والشواهد على ذلك كثيرة، منها:

١ الشواهد الأثرية:

إقليم ظفار:

كان هذا الإقليم تابعًا لمملكة حضرموت، ونتيجة لأعمال التنقيب الأثرية في مناطق هذا الإقليم، كشفت البعثات الأثرية عن وجود آثار متنوعة تؤكد حقيقة الصلات والعلاقات التجارية والحضارية بين حضرموت القديمة والهند، ومن الشواهد الأثرية التي تؤكد لنا عمق العلاقات الحضارية مع الهند ما عثر عليه أثناء الحفريات في منطقة ظفار العُمانية (كانت تابعة لمملكة حضرموت القديمة) من بقايا عظام بشرية تفيد الدراسات أنها تحمل أثر وتقسيمات الإنسان الهندي، ومن المحتمل أن تكون بقايا آثار لجماعات قَدِمَتْ من الهند، واستوطنت السواحل التابعة لحضرموت أو القريبة منها، وما زالت العلاقات مع الهند قائمة؛ إذ تحمل لنا بين الحين والآخر موجات مهاجرين هنود إلى سواحل جنوب غرب الجزيرة العربية والخليج العربي[٧].

بالإضافة إلى معثورات (البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان) فقد وجدت في ميناء سمهرم -خور روري حاليًا- حوالي خمس قطع حجرية وقطع برونزية كتب عليها بالخط العربي الجنوبي (المسند)، تصف تأسيس الحضارم للمدينة كمركز لتجميع (البخور) وتصديره للخارج، وظهر من خلال هذه الكتابة اسم سمهرم واسم إله حضرموت (سين ذا اليم)، كما تم الكشف عن آثار للقلعة التي تحمي المدينة، وآثار معبد قديم شيّد وسط الجانب الشمالي للمدينة، وهو المعبد الذي يُعبد فيه الإله (سين) إله القمر، أيضًا عثر على أحد أبواب مدينة سمهرم منقوشًا عليه اسم ملك حضرموت (إل عزيلط) واسم عاصمته شبوة[٨].

ومن المعثورات الأثرية التي تؤكد على وجود علاقات حضارية بين حضرموت والهند، التمثال الذي عثرت عليه البعثة الأمريكية في نفس الموقع هو تمثال برونزي لفتاة هندية -لعلها

راقصة- تعزف على الناي، وفي دراسة حديثة تصف الباحثة (عزة عقيل) هذا التمثال بأنه صغير الحجم يبلغ ارتفاعه (٨ سم) لامرأة عارية واقفة في حركة راقصة.. وترى الباحثة أن وضع الجسم وحركة الورك والساقين يشير إلى أن هذا التمثال يمثل الرَبّة الهندية (salabhanjaka إلهة الشجرة)، ويعود تاريخه إلى القرن الأول أو الثالث للميلاد، كذلك حملت لنا النقوش المسندية التي عثر عليها في موقع (العُقلة) بالقرب من العاصمة الحضرمية شبوة أخبار زيارات واستقبالات رسمية لوفود هندية قدمت حضرموت للمشاركة في احتفالات تتويج الملك الحضرمي (إل عزيلط) على عرش مملكة حضرموت (سيأتي نص النقش وشرحه لاحقًا). كذلك عثر في سمهرم على آثار هندية - قطع من الفخار، وعملة هندية صادرة عن الملك (kanishka ١)، كما تم العثور على كتابة هندية من ثلاثة أحرف، ربما تكون اسمًا لأحد التجار الهنود[٩].

وفي شبوة عاصمة مملكة حضرموت وجدت الكثير من المعثورات ذات الأصل الهندي، ومنها بقايا قطع عاج مزخرفة، عثر عليها في القصر الملكي بشبوة عام ١٩٧٦ و١٩٨٠ م، وعددها يزيد على مئة قطعة، بعضها مستورد من الهند[١٠].

- قنا الميناء الحضرمي القديم:

هو الميناء الرئيس لمملكة حضرموت (وهو الموقع المعروف الآن باسم بير علي)، تعد الحقبة الممتدة بين نهاية القرن الثاني والقرن الخامس للميلاد فترة أوج ازدهار قنا، وخلالها وجدت الكثير من المعثورات ذات الصلة بالعديد من بلدان العالم القديم (مصر والشام وبلاد الرافدين وفارس واليونان والرومان). أما بالنسبة للهند فهناك الكثير من المعثورات أو المنتجات الهندية التي تم العثور عليها في ميناء قنا، منها قطع لأوان فخارية مستوردة من الهند كالصحون والكؤوس والمزهريات والمصابيح والمسارج وكذا الأوزان وغيرها، ويعود تاريخها إلى الحقبة من القرن ٢ ق. م إلى ٥ م[١١].

جزيرة سقطرى:

ومن شواهد تلك العلاقة الحضارية أيضًا أن جزيرة سقطرى التابعة لمملكة حضرموت، والتي تتمتع بموقع استراتيجي مهم في المحيط الهندي، تشتهر بإنتاج السلع المرغوبة آنذاك كاللبان والمر والصبر ودم الأخوين وغيرها من النباتات الغريبة[١٢]، وكانت حلقة وصل بين الهند ومملكة حضرموت، وكذا شرق أفريقيا، فهي بمثابة محطة استراحة تتوقف عندها السفن قبل أن تنطلق إلى الهند، لذلك اهتم الهنود القدماء بسقطرى وأسموها (الجزيرة السعيدة)، بل يقال إن الاسم سقطرى راجع لاسم السنسكريتي الهندي القديم (دفيبا سخدرا Dvipasakhadra)، بينما المصادر الكلاسيكية تراها كمركز تجاري مهم يتبع مملكة حضرموت، وأطلق عليها (أجاثارخيدس Agathachides) اسم (جزيرة السعادة)، أما كتاب الطواف فقد أطلق عليها اسم (ديزكوريدا Discorida)[13].

٢ الشواهد النقشية:

لقد تم العثور على بعض من المخربشات (الجرافيت) والنقوش في أماكن متفرقة من حضرموت، فمثلًا في جزيرة سقطرى كشفت البعثات الأثرية عن بقايا أثرية مصدرها الهند، كما تم العثور على عدد من المخربشات الهندية في أحد كهوف جزيرة سقطرى[١٤]، وهذه الجزيرة تتبع ملك بلاد اللبان (مملكة حضرموت)، وهي واحدة من أهم مراكزه التجارية قديمًا، وقد لعبت دورًا كبيرًا في النشاط التجاري العام لحضرموت، ويسكن فيها (آنذاك تجار عرب وهنود ويونان)[١٥]، ولعل من أبرز شواهد العلاقات الحضرمية الهندية النقش الموسوم بـ(Ja ٩٣١) (السطرين ٣- ٤):

١- خ ي ري/ و ع ذ ذ م/ ت ذ م ر

١- خ ي ري/ و ع ذ ذ م/ ت ذ م ر

٢- ي ه ن/ ذ م ت ر ن/ و ف ل ق ت

٢- ي ه ن/ ذ م ت ر ن/ و ف ل ق ت

٣- ك ش د ي ي ه ن/ د ه ر د ه/ و م

٣- ك ش د ي ي ه ن/ د ه ر د ه/ و م

٤- ن د ه/ ه ن د ي ي ه ن/ ش و ع و

٤- ن د ه/ ه ن د ي ي ه ن/ ش و ع و

٥- م ر أ س م/ إ ل ع ذ/ ي ل ط/ م

٥- م ر أ س م/ إ ل ع ذ/ ي ل ط/ م

٦- ل ك/ ح ض ر م ت

٦- ل ك/ ح ض ر م ت

المعنى:

(خيري وعذذ) من تدمر في بادية الشام، و(ذمترن) أو ذمتران و(فلقة) من الكشديين، وهو (كشدي) الشكل الأصلي لاسم القوم الذين ندعوهم الآن بالكلديين، والذين كانوا يسكنون جنوب العراق في العصور القديمة، (ودهردة) (ومنذة) الهنديين أو من الهند كما يدل عليه شكل الاسمين، ويذكر أن سفيرًا هنديًا يدعى (دهردة)، كان قد وفد إلى قيصر الروم خلال السنوات (٢١٨- ٢٢٢م) فيظهر أنه مكث مدة في حضرموت إبان رحلته من الهند إلى بلاد الروم عند عودته من هناك[١٦].

ويذكر النقش أن هؤلاء جميعًا قد رافقوا (العذيلط) (إل عزيلط) ملك حضرموت، إلا أن النقش لم يوضح لنا ما هي المناسبة التي من أجلها رافق هؤلاء الملك الحضرمي، ولكن من

خلال دراسة نقوش العُقلة التي تتحدث عن مملكة حضرموت، يظهر أنها تتحدث عن بعض ملوك حضرموت، وأنهم اعتادوا إجراء مراسيم المُلك وتوزيع الألقاب بأسفل جبل العُقلة من الناحية الشرقية، ومن الملاحظ في النقش أن كل دولة يمثلها شخصان، مما يدل على أنها دعوة رسمية واحتفالات منظمة، فضلًا عن مدى العلاقات الطيبة التي تربط مملكة حضرموت وهذه الدول، بالإضافة إلى ما تتمتع به حضرموت من مكانة قوية بين الدول المعاصرة لها آنذاك بفضل تجارتها وتحكمها في بعض المواد العطرية إلى غير ذلك من الأسباب، كما يدلنا هذا النقش على أن الدول في العالم القديم كانت تتبادل السفراء والمندوبين مثل ما تقوم به الدول في عصرنا الراهن وذلك لتسهيل العلاقات بينهما(١٧).

٣- المعطيات التاريخية (المصادر الوصفية الكلاسيكية)(١٨):

المصادر الكلاسيكية هي المؤلفات التي وضعها الكتّاب اليونان والرومان، وهم المؤرخون والجغرافيون والرحالة وغيرهم ممن عني بوصف الجزيرة العربية وأخبارها في العصرين اليوناني والروماني. وقد رسمت تلك المعارف المتراكمة صورة تاريخية تشكلت تدريجيًا حتى أضحت جزيرة العرب جزءًا من اهتمام عالم البحر الأبيض المتوسط القديم كما يُلاحظ ذلك بوضوح إبان ازدهار الإمبراطورية الرومانية، وقد تعرضت بعض هذه المصادر لذكر أخبار الممالك العربية الجنوبية ومنها مملكة حضرموت قبل الفترة المسيحية، أو في عصورها الأولى، ومعظم هذه الأخبار عامة تحتوي غالبًا على معلومات جغرافية عنها، وعن منتجاتها مما حصل عليها المؤرخ عادة عن طريق السماع، أو قام بتسجيلها بعض التجار والرحالة اليونانيين الذين تمكنوا في مختلف الأزمنة من الوصول إلى شواطئ الجزيرة العربية، فجمعت الكثير من الأخبار والمعلومات عن العرب وعن جنوب شبه الجزيرة العربية عمومًا وحضرموت خصوصًا ومن هؤلاء المؤرخين الأغريق والرومان: هيرودوتس (القرن الخامس ق. م)، ديودور الصقلي (الأول قبل الميلاد)، وبالإضافة إلى هؤلاء الكتّاب الكلاسيكيين أيضًا: (ثيوفراست Theophraste) حوالي (٣٠٠ ق. م). وبعد ثيوفراست بنصف قرن تقريبًا تولى (أيراتوستن القوريني Eratosthene de Cyrène) (ت نحو ١٩٥) منصبًا مهمًا هو مدير المكتبة الكبرى للإسكندرية، وكانت لهم إشارات عن بلاد العرب الجنوبية وحضرموت عمومًا وبالذات عن طيبها وذكروا أنها تستحق تسميتها بـ(العربية السعيدة)؛ لأن أراضيها خصبة، بل هي مصدر السلع المقدسة (اللبان والمر)، وقالوا إنّ العربية الجنوبية تسكنها أربعة شعوب (سبأ، وقتبان، ومعين، وحضرموت)(١٩).

وبعد (أيراتوستن) ببضعة عقود، أي حوالي منتصف القرن الثاني، نجد عالمًا آخر مثله يهتم بجمع معلومات مفصلة عن الجزيرة العربية هو (أغاثر كيدس Agatharchide de Cnide)، وفي كتاباته خص الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية باسم العربية السعيدة(٢٠).

ومن بين المهتمين أيضًا بجمع المعلومات عن العربية الجنوبية هو (إسترابون Strabon) (ولد نحو ٦٣ أو ٦٤ ق. م، وتوفي بعد سنة ٢٠ م)، وهو جغرافي ومؤرخ زار مصر عند فتح الرومان، استفاد من مكتبة الإسكندرية، من أهم مؤلفاته كتاب (الجغرافيا) المكوّن من (١٧) جزءًا، والذي كان غنيًا بالمعلومات عن العالم القديم، وقد أفرد فصلًا خاصًا من الجزء (١٦) ذكر فيه مدن العرب وقبائلهم ووصف أحوالهم التجارية والاجتماعية والاقتصادية، كما ذكر فيه الحملة الرومانية على الممالك العربية الجنوبية (٢٤ ق. م)، بقيادة (إليوس جالوس Aelius Gallus)، (وقد وصلت حتى أسوار مأرب، ولم يَبْقَ لها إلا مسيرة يومين للوصول إلى موطن اللبان حضرموت)، وتكمن قيمة حديثه عن هذه الحملة كونه معاصرًا لها، بل يقال إنه كان صديقًا لقائد الحملة فشارك فيها، فتضمنت مدوناته جوانب مهمة من تاريخ العرب بوجه عام، وعرب الجنوب بوجه خاص(٢١).

أما كتاب (الطواف حول البحر الأريتري)، أو (التطواف حول البحر الأحمر)(٢٢)، الذي كتبه رحّالة يوناني مجهول، فقد وصف فيه تطوافه في البحر الأحمر وسواحل بلاد العربية الجنوبية، وكشف عن معلومات جغرافية وتاريخية مهمة عنها(٢٣)، ومن بين معلوماته المهمة حديثه عن تصدير الطِّيب من موانئ العربية الجنوبية وخاصة الموانئ الحضرمية، ومثل ذلك نجده أيضًا عند بليني (القرن ١ م) في كتابه المسمى (التاريخ الطبيعي)(٢٤).

تلك كانت لمحة موجزة عن الصلات الحضرمية الهندية القديمة التي تمخض عنها تواصل وتفاعل حضاري وثقافي فاعل (تأثير وتأثر)، ولعل ذلك كان أساسًا ورافدًا للهجرات المتبادلة بين الهند وحضرموت لاحقًا.

الهوامش:

١) نقصد ببلاد العرب هنا بلاد الرافدين والشام ومصر وشبه الجزيرة العربية. وللإفادة الوافية عن علاقاتهم التجارية والحضارية والثقافية مع الهند انظر: محمد الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ط١، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، (الهند والشام والعراق القديم)، ص٥- ١٩؛ (الهند ومصر)، ص٢٠- ٣١؛ (الهند والجزيرة العربية في العصر الجاهلي)، ص٣٢- ٣٥.

٢) شوقي عبدالقوي عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد (١٥١)، الكويت، ١٩٩٥م، ص٤١- ٤٢؛ وأنور عبدالعليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة العدد (١٣)، ١٩٧٩م، ص٦٩- ٧٣.

٣) ديتلف نلسن: التاريخ العربي القديم، ترجمة: فؤاد حسنين، ط١، القاهرة، ١٩٥٨م، ص١٢١.

٤) انظر السطرين (٤- ٥) من النقش (Ja931)، وفيه إشارة إلى وصول مبعوثين أو سفيرين هنديين إلى حضرموت في عهد الملك الحضرمي (إل عزيلط)، ولعل ذلك من قبيل العلاقات الدبلوماسية بين الهند وحضرموت. ولمعرفة المزيد انظر: بافقيه وآخرين: مختارات من النقوش اليمنية، ط١، تونس، ١٩٨٥م، ص٣٢٩- ٣٣٠.

٥) نلسن: المرجع السابق، ص١١٤- ١١٧.

٦) محمد إسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، لا. ت. ص١٧- ١٩، ٣٣؛ ونورة عبدالله النعيم: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن ٣ ق. م حتى القرن ٣م، ط١، دار الشواف للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٩٢م. كما ورد ذكر بعض المنتجات الهندية المستوردة في كتاب (الطواف)، The Periplus ch. ١٤, ١٧, ٣٢, ٤١, ٥٦, ٢٨-٢٩, ٣٤-٣٥, ٣٩, ٤٤-٤٥.p.

٧) ثريا منقوش: قضايا تاريخية وفكرية من اليمن، دار العودة، بيروت، د. ت، ص٧٤.

(٨) سمهرم: اسم الميناء الذي بناه الحضارم القدماء، وهو الاسم الذي ورد في نقوشهم المسندية، أما الاسم الإغريقي الذي أطلق على الميناء فهو (موشا)، وهذا الاسم ورد ذكره في كتاب (الطواف)، فقرة ٣٢، وهو الموقع المعروف الآن باسم (خور روري)، انظر: بافقيه وآخرين: مختارات، ص٣٢٤- ٣٢٥؛ عمان عبر التاريخ، وزارة الإعلام، سلطنة عمان، ودار أميل للنشر المحدودة، لندن، ١٩٩٥م، ص٧٤- ٧٥. وانظر: Albright, F. P: The Himyarites Temple at Khor - Rory Orientalia, XXII, ١٩٥٣, P. ٧٨٧.

٩) أسمهان الجرو: الموانئ العمانية القديمة، ط١، مؤسسة عمان، مسقط، ٢٠١١م، ص١٧٢- ١٧٣؛ عمان عبر التاريخ، مرجع سابق، ص٩٨؛ وعزة علي عقيل، البرونز في اليمن القديم، ج١، صنعاء، ٢٠١٠م، ص٥٣- ٥٤.

١٠) جان كلود بيال: الصندوق العاجي من قصر شبوة، المركز الفرنسي، صنعاء، ١٩٩٦م، ص٨٨، ٩٧.

١١) قرياز نفتش: دراسة ميناء قنا القديم، نتائج البعثة السوفيتية، ط١، ج١، مركز الأبحاث.. سينون، ١٩٨٧م، ص٢٥؛ أكوبيان وآخرون: التنقيبات الأثرية في ميناء قنا القديم، ص٤٠- ٤٨؛ وسيدوف: قنا ميناء كبير بين الهند والبحر المتوسط، من: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة: عرودكي، دمشق، ١٩٩٩م، ص١٩٥.

١٢) شجرة دم الأخوين (Dracaena Cinnabari): من النباتات التي تنمو في جزيرة سقطرى، وقيل هي (العندم) أو (الأيدع)، واسمها باللهجة السقطرية (أعرهيب)، ويستخرج منها مادة سائلة تدخل في أغراض الصناعة والعلاج الطبي، وهي شجرة نادرة لا توجد إلا في جزيرة سقطرى، ويوجد ما يشبه هذه الشجرة شكلًا فقط في جزر الكناري، والمادة المستخرجة منها والمستخدمة في الصباغة كانت تصدر إلى الخارج عبر ميناء قنا الحضرمي، انظر: ريتشارد بورتر وتوني ملير: الطيور والنباتات في جزيرة سقطرى، ترجمة: عبدالولي الخليدي وعادل سعيد، إنجلترا، أدنبره، ص٣٠؛ نورة النعيم: المرجع السابق، ص٢٣٨.

١٣) Schoff, Wilfeld: The Periplus of the Erythraean Sea. New York. ١٩١٢,ch. ٣٠, P. ٣٣-٣٤

ولمزيد من المعرفة انظر: محمد علي البار: سقطرى الجزيرة السحرية، ط١، بيروت، ١٩٩٦م، ص١٣- ٤٧.

١٤) منير عربش: معطيات جديدة حول تاريخ مملكة حضرموت (القرن ٧ ق. م- ٣م)، المعهد الفرنسي، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص١٣.

١٥) جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة: السيد يعقوب، دار الكتاب العربي، ١٩٥٨م، ص٨٣.

١٦) بافقيه وآخرين: مختارات، ص٣٢٩؛ والبريهي: الخط المسند، المسند وثيقة للصلات الحضارية في تاريخ الجزيرة العربية، الألكسو - تونس، ٢٠٠١م، ص٦٦٠.

١٧) بافقيه وآخرين: مختارات، ص٣٢٩- ٣٣٠؛ والبريهي: الخط المسند، ص٦٦٠.

١٨) المصادر الكلاسيكية هي المؤلفات التي وضعها الكتاب اليونان والرومان، وقد عنيت بتاريخ وحضارة العرب،

L'Arabie du sud chez les auteurs classiques, Maxime Rodinson, In Joesph Chelhod, L'Arabie du sud, histoire et civilization, Tom ١,Maisonneuve et Larose, Paris. ١٩٨٤,PP.٥٥-٨٩.

وقد جمعت النصوص والمختارات عن بلاد اليمن، في كتاب باسم (بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكية)، ترجم إلى العربية، القسم الأول حميد العواضي (دراسة ومختارات)، للمستشرق ماكسيم رودنسون (ص٢١- ٩٢)، والقسم الثاني (مختارات)، جمعها عبداللطيف الأدهم، ص٩٧ وما بعدها، ط١، صنعاء، ٢٠٠١م.

١٩) العواضي والأدهم: بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكية، ص٢٦- ٣٠.

٢٠) أغاثر كيدس: عن البحر الأريتري، ترجمة وتغليف: الحسين أحمد، ط١، الجيزة، ٢٠١١م، ص١٢٩- ١٤٠.

٢١) جواد علي: المفصل، ج١، ط١، دار العلم، بيروت، ١٩٦٩م، ص٥٨- ٥٩، وجرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، دار المكتبة الأهلية، بيروت، لا. ت. ص٢١.

٢٢) كتاب الطواف حول البحر الأرتيري، أثار جدلًا حول تأليفه لعدم معرفة مؤلفه، وقيل الذي كتبه رحالة أو تاجر يوناني، وقام بترجمته إلى الإنجليزية (يولفراد. هـ. شوف Wilfred H. Schoff).

The periplus of the eryhraean sea translated from the greek and Annotated by W.H Schoff, Newyory, ١٩١٢.

٢٣) العواضي والأدهم: بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكية، ص٤٩- ٥٠؛ وجواد علي: المفصل، ج١، ص٥٩.

٢٤) العواضي والأدهم: بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكية، ص٤٣- ٤٦.

---

* أستاذ تاريخ اليمن والجزيرة العربية القديم قسم التاريخ - كلية الآداب. عدن (جامعة عدن).

حضرموت السكان وإنتاج الغذاء

في عالمنا أصبح الغذاء سلاحًا سياسيًا مستخدمًا ببراعة وبلا ضمير ضد الشعوب غير المنتجة له؛ لهذا فإن إنتاج الغذاء وصولاً للأمن الغذائي يعد ضرورة اقتصادية وسياسية لكل شعوب الأرض.

د. رزق سعدالله بخيت الجابري*

لماذا هذا الموضوع؟

عندما زرت زميلي البروفسور عبدالله سعيد الجعيدي رئيس (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) تحدثنا عن مستقبل حضرموت، وخلاصة حديثنا أن حضرموت بحاجة إلى أن تكون بلداً منتجًا للغذاء لكي تشق طريق نهضتها، فطلب مني أن أكتب مقالًا لمجلة (حضرموت الثقافية) لوضع الموضوع على طاولة البحث والتخطيط التنموي.

الغذاء مطلب أساسيٌ فمَنْ يتحكم في غذائه يتحكم في أفكاره وفي نهضته، قد يتساءل البعض هل هناك مشكلة غذاء في حضرموت؟ الإجابة عن السؤال المرفوع إلى مشكلة بحث يتطلب الإحاطة بكل المتغيرات التي تشكل عناصر المشكلة وهي على النحو الآتي:

السكان

تُظهر التقديرات أن حجم سكان حضرموت في بداية عام ١٨٨٦م بلغ (٢٥٨,٠٠٠ نسمة)، ثم ارتفع العدد في نهاية عام ١٩٦٥م إلى (٤٧٠,٠٠٠ نسمة)، بزيادة مطلقة بين الأعوام بلغت (٢١٢,٠٠٠ نسمة). أما معدل النمو من عام ١٨٨٦م إلى ١٩٣٥م فلم يتجاوز معدله (٠,٧٪)؛ ويعود ذلك إلى ارتفاع معدل الوفيات بسبب انتشار الحروب والصراعات القبلية، بالإضافة إلى الهجرة الخارجية.

أما في عام ١٩٥٨م فقد وصل حجم السكان إلى (٤٣٥,٠٠٠ نسمة)، وبلغ معدل النمو السكاني (١,٢٪)، وسجلت الزيادة السكانية المطلقة (١٣٠,٠٠٠ نسمة)، وارتبط ذلك بالتحسن النسبي في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فقد شهدت حضرموت انحسارًا للصراعات القبلية بعد صلح إنجرامس عام (١٩٣٧م)، والتوجه نحو التنمية المكانية لا سيما الزراعة، فقد بدأ العمل بتطوير البنية التحتية للزراعة؛ حيث أدخلت الآلة في الزراعة، منها المحراث الصناعي، والمضخات، كما شقت العديد من قنوات الري، وبناء الحواجز والسدود. وترتب على ذلك زيادة في إنتاج الغذاء، وتحقق فائض غذائي بعد أن كانت المجاعات ونقص الغذاء أحد المظاهر الاقتصادية السائدة في حضرموت.

وفي أول تعداد سكاني سنة ١٩٧٣م وصل حجم سكان حضرموت إلى (٤٩١,٣٠٤ نسمة)، وفي عام ١٩٨٨م بلغ عدد السكان نحو (٧٠٣,١٥١ نسمة)، فيما بلغت الزيادة المطلقة (٢١١,٨٤٧ نسمة). أما معدل النمو السكاني (٢,٤٪)، وحسب تعداد عام ١٩٩٤م فقد وصل العدد (٧١٨,٠٠٨ نسمة)، أما في عام ٢٠٠٤م فقد ارتفع

الحجم إلى (١٠٦٠٤٤٢ نسمة)، فيما بلغت الزيادة المطلقة (٣٠١,٧٩٩ نسمة)، والنسبية (٤٢,٠٪).

أما الخصائص العمرية لسكان حضرموت عام ٢٠١٠م فإن نسبة صغار السن شكلت نحو (٤٠,١٪)، بينما بلغت نسبة الفئة العمرية (١٥-٥٩ سنة) نحو (٥٠,٥٪)، أما كبار السن فبلغت (٩,٤٪). هذا التوزيع النسبي للسكان حسب الفئات العمرية العريضة يضع حضرموت ضمن المجتمعات السكانية الشابة الفتية من حيث النمو السكاني، ولكن في الوقت نفسه يضع حملًا ثقيلًا على القوة العاملة، التي يقع على عاتقها عبء إعالة باقي أفراد المجتمع، وهذا يقودنا إلى عرض للقوة العاملة.

إن تتبُّع مخرجات التعدادات السكانية يبين لنا حجم القوة العاملة، فقد أظهرت البيانات الرسمية لتعداد ١٩٨٨م أن حجم القوة العاملة بلغ نحو (١٨٠,١٩٠ عاملًا)، وحسب بيانات عام ١٩٩٤م وصل العدد إلى (١٥٠,٦٩٨) بانخفاض مطلق (٢٩٤٩٢). أما مسح القوى العاملة لعام ٢٠١٣م فأظهر أن حجم القوة العاملة في حضرموت (١٧٥,٠٠٠ عامل).

أما توزيع القوة العاملة على القطاعات الرئيسة الكبرى في حضرموت فقد جاء العاملون في الخدمات في المرتبة الأولى بنحو (١١٠٠٠ عامل) بنسبة (٦٢,٩٪) من إجمالي القوة العاملة، وفي المرتبة الثانية العاملون في الصناعة بحوالي (٣٣٠٠٠ عامل) بأهمية نسبية (١٨,٩٪)، وأخيرًا العمالة الزراعية (٣٢٠٠٠ عامل) بوزن نسبي (١٨,٢٪). هذا التوزيع يبيِّن أنّ هناك تغيرًا كبيرًا في توزيع القوة العاملة حسب القطاعات الاقتصادية في حضرموت، وهو الاتجاه نحو العمل في الخدمات والصناعة بدلًا من الزراعة، لهذا من الضرورة بمكان تتبع الوضع الزراعي في حضرموت.

الأوضاع الزراعية

حضرموت أرض زراعية، وقد قامت حضارتها القديمة على مورد الزراعة، يقول سترابون: «السهول الجنوبية ووادي حضرموت في وقت سابق كان منتجًا لكثير من النباتات العطرية والتمر واللبان والتوابل والقرفة. أما الإنتاج في الوقت الحاضر فالذرة ونخيل التمر والسمسم. كما أن الزراعة في حضرموت تعتمد على المياه الجوفية». هذا الوصف يبين أن حضرموت في تلك الحقبة من تاريخها الاقتصادي ومرحلتها الديموغرافية منتجة للغذاء، كما يعطي مؤشرًا على أن هناك فائضًا غذائيًا يُصدَّر للخارج، وهو ما يفسر عمليًا عدم وجود مشكلة غذائية، وأن هناك أمن غذائي في حضرموت. هذا حال الزراعة بالأمس الذي امتد إلى خمسينيات القرن العشرين، في ظلّ تكنولوجيا إنتاج بدائية منتجة من البيئة المحلية، معتمدة كليًا على طاقة الإنسان والحيوان.

أما بالنسبة للزراعة في الزمن الحاضر (اليوم) علمًا بأن مقومات الإنتاج البشرية قد تغيرت واستفادت من كل ثمار الثورة الصناعية فقد حدث تطور في أنظمة الري، فأدخلت المضخات، والري الحديث، واستخدمت الآلة في تهيئة الأرض والحصاد، وتم استخدام البذور المحسنة، وتطور وسائل النقل، بالإضافة إلى الخبرة المتراكمة، ورأس المال. وكلها مؤشرات لحدوث تطور كبير، وثورة في الإنتاج الزراعي في حضرموت، ولكن الأوضاع الزراعية اتجهت نحو الانحدار، ويمكن أن نبين ذلك من تتبع تطور المساحة والإنتاج، ونظرًا لعدم وجود بيانات إحصائية من واقع تعداد زراعي فكل البيانات الزراعية هي تقديرات؛ لأن آخر تعداد زراعي في حضرموت كان عام ١٩٨٥م، وسوف نعتمد على تقديرات

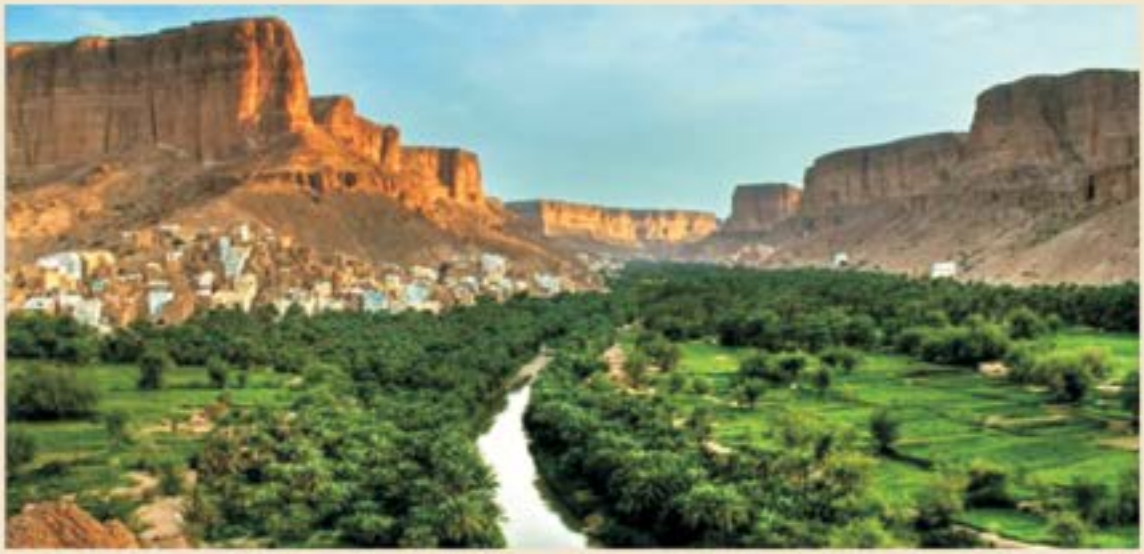

٢٠١٠م الواردة في كتاب (الإحصاء السنوي لمحافظة حضرموت لعام ٢٠١٠م).

بادئ ذي بدء، وجب التنبيه إلى أن هناك تباينًا كبيرًا في البيانات الزراعية بين الكتب الصادرة من وزارة الزراعة في صنعاء وبين الكتب الصادرة في حضرموت، ولحل هذا الإشكال تم الاعتماد على الكتب الصادرة من حضرموت فـ(أهل مكة أدرى بشعابها)، وتظهر البيانات أن إجمالي المساحة الزراعية عام ٢٠٠٩م بلغت (٢٩٩٦٨ هكتارًا)، أما في عام ٢٠١٠م فوصلت إلى (٢٩٩٧٠ هكتارًا)، بزيادة مطلقة (٣ هكتارات)، ونصيب الفرد من المساحة الزراعية عام ٢٠١٠م حوالي (٠,٢٢٨ فدانًا)، أما الإنتاج الزراعي عام ٢٠٠٩م فقد كان (٢٨٦٢٩١ طنًا)، وبلغ في عام ٢٠١٠م (٢٨٦٢٩١ طنًا)، ولم تحصل أي زيادة مطلقة في الإنتاج، وهذا مؤشر خطير يعكس تدهور الأوضاع الزراعية في حضرموت.

أما إذا وقفنا على أنواع المحاصيل الزراعية فالمساحة الزراعية للحبوب عام ٢٠٠٩م بلغت (٤٠٩٦,٤٤ هكتارًا) مشكلة (١٣,٧٪) من جملة المساحة الزراعية، أما في عام ٢٠١٠م فبلغت (٤٠٩٩,٤٤ هكتارًا) بوزن نسبي (١٣٪) من إجمالي المساحة الزراعية، أما مساحة الخضار عام ٢٠٠٩م فبلغت (٢٢٨٣,٠٨ هكتارات) بوزن نسبي (٧,٦٪)، أما في عام ٢٠١٠م فكانت (٢٢٨٣,٠٨) بأهمية نسبية (٧,٦٪) من إجمالي المساحة الزراعية، أما بالنسبة للفواكه فقد بلغت المساحة الزراعية نحو (١١١٩٥,٩ هكتارات) مشكلة نحو (٣٧,٤٪) من جملة المساحة الزراعية، أما في عام ٢٠١٠م فقد بلغت مساحة الفواكه (١١١٩٥,٩٤ هكتارًا) بوزن نسبي (٣٧,٤٪).

أما بالنسبة للمساحة الزراعية للمحاصيل النقدية فقد بلغت مساحتها عام ٢٠٠٩م (١٤٣٨,٦٨ هكتارًا) مشكلة نحو (٤,٨٪) من إجمالي المساحة الزراعية، أما في عام ٢٠١٠م فبلغت المساحة (١٤٣٨,٦٨ هكتارًا) بوزن نسبي (٤,٨٪) من إجمالي المساحة الزراعية.

أما بالنسبة للأعلاف فقد بلغت المساحة المزروعة (١٠٩٥٣,١ هكتار) مشكلة (٣٦,٦٪) من إجمالي المساحة الزراعية، أما في عام ٢٠١٠م فقد بلغت المساحة (١٠٩٥٣,١٢ هكتارًا) بأهمية نسبية (٣٦,٥٪) من إجمالي المساحة الزراعية.

أما بالنسبة للإنتاج الزراعي عام ٢٠٠٩م فقد بلغ (٢٨٦٢٩١,٦ طن)، أما في عام ٢٠١٠م فبلغ (٢٨٦٢٩١,٥٨ طنًا) بانخفاض نحو (٠,٠٢ طن) عن عام ٢٠٠٩م.

أما بالنسبة لإنتاج الحبوب فقد بلغ عام ٢٠٠٩م حوالي (٥٢٥٨,٦ طن)، أما في عام ٢٠١٠م فبلغ (٥٢٥٨,٦)، أما إنتاجية الهكتار الواحد من الحبوب (١,٢٨ كغ).

أما إنتاج الخضار فقد بلغ عام ٢٠١٠م (١١٤٨٩,٨٦ طنًا)، وبلغت إنتاجية الفدان في نفس العام (٥,٠٣ كغ) للهكتار الواحد، أما بالنسبة للفواكه فقد بلغ الإنتاج عام ٢٠٠٩م نحو (٥٧٦٦٩,٠٤ طن)، أما إنتاجية الهكتار الواحد (٠,٢٠ كغ) للأعوام ٢٠٠٩م و٢٠١٠م.

أين المشكلة؟

المؤشرات السابقة تعكس تدهور الأوضاع الزراعية في حضرموت؛ فالإنتاج الزراعي متدنٍ للغاية، وبالعودة إلى تلك البيانات على المستوى العام أو لكل محصول نجد هناك تراجعًا في كل منها، أو أن هناك حالة ثبات في المساحة والإنتاج في الوقت الذي يزيد فيه حجم السكان. هذه هي المشكلة الغذائية ومكمن الخطر على سكان حضرموت في الحاضر والمستقبل، فالطلب على الغذاء يزيد يومًا بعد يوم بسبب الزيادة السكانية لارتفاع خصوبة المرأة، بينما المساحة والإنتاج في حالة تراجع وثبات.

ماذا لو توقف استيراد الغذاء من الخارج؟!

---

* كلية الآداب جامعة حضرموت - كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

32
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

إنسان العصور الحجرية في حضرموت

مقدمة:

حضرموت أرضًا بما فيها وما عليها لا تحتاج منا إلى ثناء أو تقريظ، فهي بمختصر القول أرض أنبياء، وقد خلد اسمها في الكتب السماوية مثل: (حزراميت) في التوراة، و(الأحقاف) في القرآن الكريم، وكانت بحق أرض دين قبل الإسلام وبعده. فقبل الإسلام انتشرت في أرجائها المعابد للإله الرئيس (سين)؛ ولأن الدين هو الأخلاق والمعاملة كان الحضارمة أهل دين وأمانة، أمانة تردد صداها في مرويات العرب ومصنفاتهم التاريخية، وفي الإسلام كانوا من القبائل والوفود السبّاقة إلى اعتناق الدين الجديد، وتميزوا بمشاركاتهم في الفتوحات الإسلامية، وتولي المناصب الرفيعة في الدولة الإسلامية، وحديثًا في نشر الإسلام في شرقي آسيا بالحكمة والموعظة الحسنة والأخلاق والقدوة.

د. محمد صالح بلعفير*

وحضرموت قبل الإسلام عرفت حضارة كبيرة زاهرة ومزدهرة، ترددت أصداؤها في العالم القديم وبخاصة في الشرق الأدنى ومصر وعالم البحر الأبيض المتوسط (اليونان وروما)، ودوّنت أخبارها وانتعاش تجارتها وقوة اقتصادها المؤلفات الكلاسيكية ولا سيما عاصمتها شبوة وميناءها الرئيس قنا (بئر علي حاليًا). آنذاك كانت حضرموت مملكة واسعة مترامية الأطراف، مساحتها أكبر بكثير من مساحتها في عصرنا، وتعاقب على حكمها ملوك عظماء، ودوّنت إنجازاتها النقوش.

ومنذ القدم كانت حضرموت مثار حسد وطمع، حسد امتد إلى أيامنا؛ حيث أقدمت الإجراءات الثورية والتقسيمات الإدارية لحكومات ما بعد الاستقلال إلى اقتطاع أجزاء منها وضمها إلى محافظات أخرى، ولعل خير مثال على ذلك (مديرية عرمة)، التي ضُمّتْ إلى المحافظة الرابعة وفقًا للقرار الجمهوري للمحافظات الرقمية، ثم تسميتها بمحافظة شبوة فيما بعد، وهي تسمية تحسب للقرار لا عليه.

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف باكتشافات عصور ما قبل التاريخ في حضرموت (العصور الحجرية)، بالاستناد إلى مشاركتنا في أعمال المسح والاستكشاف والتنقيب لبعثة الآثار الفرنسية لموسمين في النصف الأول من ثمانينيات القرن الماضي (العشرين) في محيط مدينة شبوة عاصمة مملكة حضرموت وضواحيها، وكذلك مشاركتنا في الحفائر الأثارية للبعثة اليمنية السوفيتية العلمية المشتركة في القرة بمديرية دوعن لموسم واحد عام ١٩٨٤م، فضلًا عن المقالات العلمية التي قمنا بنشرها في عدد من الصحف والمجلات الوطنية في المدة المذكورة، زيادة على التقارير الأثارية لتلك الاكتشافات والحفائر.

أول بعثة آثار في حضرموت:

في عام ١٩٣٧م حطت بعثة الدكتورة جرترود كاتون ثومبسون الإنجليزية الرحال في أسفل وادي عمد أحد الروافد الأساسية لوادي حضرموت. وبالرغم من أن طبيعة عملها كانت تنحصر في الحفائر الأثارية لأحد مواقع ما قبل الإسلام الذي حدد تاريخه بالقرن الخامس قبل الميلاد، فإن فريق البعثة قد التقط عددًا من الأدوات الحجرية الصوانية من وادي عمد، وشبام، والمكلا، نشرتها ثومبسون في أربع مجموعات: ثلاث منها تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الوسيط)، فيما صنفت المجموعة الرابعة بالعصر الحجري الحديث (النيوليت).

أدوات لفالوازية باليوليتية

البعثة الفرنسية

صلات حضارية وأسئلة معلقة:

وفي مطلع الخمسينيات وقع اختيار بعثة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان التي قادها وندل فيليبس على وادي بيحان، وفيه اختيرت ثلاثة مواقع من حقبة ما قبل الإسلام، هي هجر كحلان (تمنع) عاصمة مملكة قتبان، وهجر بن حميد، وحيد بن عقيل (مقبرة تمنع). وقد تمكنت البعثة من الحصول على نتائج قيمة فيما يخص «شبكات وتقنية الري والموجات المتعاقبة للتأثيرات الحضارية من أجزاء أخرى من العالم القديم» أرخت بالقرن العاشر قبل الميلاد (الألف الأولى ق. م).

لم تنقطع البعثات العلمية بعد هذا التاريخ، فقد وصل عالم الآثار الإنجليزي ج. لانكستر هاردنج في نهاية عام ١٩٥٩م، للقيام بمسوحات آثارية فيما كانت تعرف بمحميات عدن، وقد خرج من مسوحاته بنتائج، كان من ضمنها جمع عدد من الأدوات الحجرية من موقع مكينون بوادي حضرموت، وحبروت بالمهرة، كما تمكن من مشاهدة عدد آخر منها في الطريق من هينن إلى ثمود.

بعثة أمريكية في حضرموت:

وفي عام ٦١/ ١٩٦٢م جاءت إلى وادي حضرموت بعثة معهد سميثسونيان الأمريكية التي قادها الدكتور فان بيك، ويمكن القول إنها البعثة الوحيدة إلى ذلك الوقت المتخصصة في عصور ما قبل التاريخ، وكانت تسيطر على تفكير علمائها مجموعة من الأسئلة، فعلى الرغم من النتائج العلمية لبعثتي ثومبسون ووندل فيليبس فإن «ثمة ثغرات كان لا بد من معرفتها وهي تتعلق بتكنيك الصناعة التي نفذت في عصور ما قبل التاريخ ما بين العصر الحجري القديم الأوسط، الذي التقط بعض أدواته فريق كاتون ثومبسون، ونتائج الصلات الحضارية، التي حدد تأريخها بالقرن العاشر ق. م في وادي بيحان، والقرن الخامس ق. م في حريضة، وزيادة على ذلك كانت هناك جملة من الأسئلة التي لم تلق بعد جوابًا لها، وهي تتعلق بدور بلاد العرب الجنوبية فيما إذا كانت قد لعبت دورًا بالفعل في انتشار السمات الحضارية، وهجرة الإنسان، وتطور التجارة، وتبادل النباتات والحيوانات بين آسيا وأفريقيا».

وبعد انقضاء ثلاثة أشهر ونصف من العمل الميداني أنجز خلاله مسح المنطقة الواقعة فيما وراء تريم وحتى القطن، توصلت البعثة إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات حول الصناعات المبكرة من الأدوات الحجرية، التي حدد تاريخ أقدمها بالمرحلة اللفالوازية الموستيرية، وهي من مراحل العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الوسيط).

الفرنسيون في الميدان:

وبعد عقدين من الزمن التحقت سنة ١٩٨٣م بإبعثة الآثار الفرنسية) التي أجرت حفائرها في موقع مدينة شبوة العاصمة التاريخية لمملكة حضرموت بمحافظة شبوة حاليًا، وهو من مواقع ما قبل الإسلام، الدكتورة ماري لويز اينيزان، بعد أن اكتشفت البعثة في أثناء مسوحاتها الميدانية عددًا من الأدوات الحجرية، وقد قامت بمسح استطلاعي غطّى مناطق متفرقة من مديرية عرمة، شملت المنطقة المحيطة بمدينة شبوة، ووادي العطف، ووادي مقاه، وخشم رميد، وخشم طهيفات، والعقيبات، وغرانوق، وجبل النسر الشرقي، بما فيها الملاجئ الصخرية (الكهوف)؛ وذلك لمعرفة فيما إذا كان الإنسان البدائي قد استغلها كمساكن جاهزة أم لا؟ وهل هناك دلائل تشير إلى ذلك الاستيطان؟ وقد أمكن خلال المسح

جمع أدوات حجرية كثيرة من الصوان.

إن الأدوات الحجرية التي اكتشفت في خشم طهيفات، وهي عبارة عن مطارق وفؤوس يدوية، وظف فيها أبسط أنواع التكنيك، تنتمي إلى العصر الحجري القديم الأسفل. ولكن هذا التكنيك لم يقف عند تلك الحدود، فلقد وجد التطور اللاحق للعمل في تكنيك أدوات الإنتاج في وادي مقاه، فمن أسلوب الطرق على الأطراف والكحت من الجانبين، انتقل التكنيك إلى تشذيب الحافات القاطعة تشذيبًا دقيقًا، ومن الحجم الكبير للأداة الحجرية، أصبحت هذه الأدوات تتميز بصغر حجمها ودقة صنعها، بل إن أشكال الأدوات أصبحت أكثر تمايزًا. لقد مثل انتشار الأدوات الأكثر إتقانًا في وادي مقاه مرحلة لاحقة للتطور، تنتمي إلى المرحلة الموستيرية (نسبة إلى كهف موستيه بفرنسا).

وتتنوع أشكال الأدوات التي وجدت في وادي مقاه بين المطارق الحجرية والفؤوس اليدوية والشفرات ذات المقابض وأمواس الصوان المسقولة من الجانبين والمدببة الطرف وذات الشكل الأسطواني وهي أداة عالمية الاستعمال. وتتعدد استعمالاتها في إنجاز الكثير من العمليات الإنتاجية كالقطع، والاحتطاب، والتقشير، وسلخ جلود الحيوانات عن لحمها، وتنظيف الجلود من الشعر، وحفر الأرض، واقتلاع الجذور، وأيضًا استخدامها كسلاح حاد ضد هجوم الحيوانات المفترسة.

وتنحصر النتائج والاستنتاجات الأولية لهذا المسح في النقاط الآتية:

١- يمكن القول إن الحجارة التي طالها عمل الإنسان -وهي من الصوان الخام الموجود في الأحجار الكلسية العائدة إلى العصر الأيوسيني- توجد بغزارة سواء في سطوح الجبال أو على المنحدرات أو بالقرب من مجاري الأودية، ومن أربعة عشر موقعًا تمت معاينتها جمعت نماذج كثيرة من الأدوات الحجرية.

٢- تشير الدلائل السطحية إلى أن المنطقة التي خضعت للبحث؛ قد مرت بالعصر الحجري القديم الأسفل، وتقدر حقبتها الزمنية بمائة ألف عام، ولعل خير مثال على ذلك الفؤوس الحجرية المشغولة من طراز الأشولي.

٣- تلت تلك المرحلة من (الباليوليت القديم)، المرحلة الوسيطة (الموستيرية)، وبخاصة المطارق الحجرية من المرحلة (اللفالوازية)، التي تشير مظاهر الصناعة فيها إلى أن عمر الأدوات الصوانية يقدر بحوالي أربعين أو خمسين ألف سنة.

٤- لقد مرت هذه المنطقة بالعصر الحجري الحديث (النيوليت)، وهو آخر العصور الحجرية؛ إذ تم اكتشاف عدد من الأدوات وبخاصة المثاقب والمقاشط.

٥- إن العثور على أدوات تنتمي إلى كل من العصرين الحجريين القديم والحديث؛ يعني وجود ثغرة تمتد بينهما، إذ لم تكتشف أية دلائل تشير إلى أن هذه المنطقة قد مرت بالعصر الحجري الوسيط (الميزوليت).

وسعيًا نحو توسيع دائرة المسح والحصول على المزيد من النتائج عن استيطان إنسان العصر الحجري في المنطقة المحيطة بشبوة، واصلت الدكتورة اينيزان في نوفمبر من العام ١٩٨٤م مسحها الميداني، يشاركها في ذلك اوتلب لويس ألبرت المتخصص في الجيولوجيا. وقد شمل

35
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

مثاقب ومقاشط نيوليتية

البعثة الفرنسية

المسح الأخير مواقع جديدة هي: قرن مدر، والقـــويد، وأودية عين وخروة وثيب والجخير وهو من الروافد التي تصب في وادي جردان، وريدة ملجي، جمعت فيه أدوات كثيرة وظفها الإنسان القديم في العمليات الإنتاجية المختلفة، وتعود هذه المواقع خاصة في وادي الثيب والحـــرش إلى العصر الحجري الحديث؛ ففي موقع الحرش وجدت ورشة كبيرة لإعداد الأدوات الحـــجرية النيوليتية وصناعتها، وما يلفت النظر فيها أن الأدوات التي تتميز بصغر حجمها ودقة صنعها وتكنيكها الذي وصل إلى درجة عالية من الصقل والإتقان كالمثاقب وأمواس الصوان ورؤوس الســـــهام التي لم يكتمل تجهيزها بعد، قد عثر عليها بأعداد كبيرة.

ومن الاكتشـــافات الجديدة الأخيرة يظل اكتشاف عدد من رؤوس السهام في موقع خشـــم رميد أكثرها إثارة، ويستدل من الشواهد السطحية أن هذا الموقـــع الذي يعود إلى العصر الحجري الحديث ربما يكون قد شهد استيطانًا بشريًا، نظرًا لوجود طبقة من الحريق فيه.

إن وجود ذلك العدد من رؤوس السهام في خشم رميد إضافة إلى رأس كبير لسهم آخر عثر عليه في قرن مدر، يشير إلى أن منطقة الموقعين التي زحفت عليها الرمال -إلا بعض البقع التي تنمو فيها الأعشاب التي تساعد على الرعي في الوقت الحاضر- كانت في الماضي منطقة صيد خصبة، وأن الصيادين قد مارسوا مهنتهم لاصطياد الحيوانات، التي كانت ترتاد هذه المنطقة وتمرح فيها.

اكتشافات للبعثة المشتركة:

ومن بين مجمل الاكتشـــافات الجديدة تظل اكتشافات البعثة اليمنية السوفيتية العلمية المشتركة التي قامت بتنفيذ دراساتها وأبحاثها الآثارية والتاريخية والإثنوغرافية في كل من محافظة حضرموت وجزيرة سقطرى متفردة بنتائجها العلمية النادرة، فلقد أغنت نتائج البعثة لأعوام ٨٣/ ٨٤/ ١٩٨٥م في وادي دوعن بمحافظة حضرموت النتائج السابقة؛ إذ تمكنت من العثور على أدوات حجرية مبكرة جدًا، وجدت في خمسين موقعًا، في وادي الغبر وخاصة في شعب (وادي) القزة والهجرين وضواحي المشهد وخريخر وفي جول عروم وجول الركبة. وتعود أقدم الأدوات في مراحلها الزمنية إلى المرحلة المبكرة من العصر الحجري القديم المعروفة بالأشيلية (نسبة إلى موقع سان أشيول بفرنسا الذي وجدت فيه هذه الأدوات لأول مرة). وزيادة على ذلك فإن نتائج البعثة لم تقف عند حدود اكتشاف مواقع أدوات الإنسان القديم بل ووصلت إلى اكتشاف أحد أهم وأكبر مستوطناته في شعب القزة في عام ١٩٨٤م ومستوطنتين أخريين في عام ١٩٨٥م هما (مغارة سقيفة العميرة) و(مغارة شرحبيل). لقد كشفت أعمال الحفر والتنقيب في مغارة القزة عن أدوات الإنسان القديم كما تركها في الطبقات الحضارية، كما وجدت بقايا عظمية ونباتية متكلسة ومترسبة على ضفة مجرى الوادي المحاذية للمغارة (الكهف).

ويعد اكتشاف الكهف آنذاك الأول من نوعه ليس في حضرموت بل في عموم شبه الجزيرة العربية استنادًا إلى معطيات أبحاث علماء الآثار وبعثات الآثار الأجنبية ونتائج الدراسات

الميدانية لعلماء جيولوجيين، التي لم تشر إلى أية دلائل توحي بوجود مستوطنات إنسان العصور الحجرية. لقد جاء هذا الاكتشاف الباهر كتتويج للزيارات الميدانية، والمسوحات الاستطلاعية، التي قام بها العلماء والبعثات الأجنبية منذ العقد الرابع من القرن الماضي.

ويتميز وادي القرّة أو ما يعرف بـ(شعب شرحبيل)، وهو أحد فروع وادي الغبر بمديرية دوعن بكثرة الكهوف التي استغلها الإنسان القديم كمساكن جاهزة، وبالينابيع التي ما زالت تتدفق إلى الوقت الحاضر، وبكثافة الأشجار والنباتات في الماضي، والتي لم يعد لها أي وجود. وأمكن معرفة أشكالها من صورها المطبوعة على الصخور. كذلك فإن وجود عظام طعام الإنسان البداني وهي متحجرة ومترسبة على ضفة مجرى الوادي، والعثور على بقايا عظام لحيوانات ضخمة، تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك بأن الظروف الطبيعية كانت مهيأة لاستيطان الوادي في تلك الحقب المبكرة من الحياة البشرية، وهذا ما تأكد من اكتشاف مجموعة من الطبقات الحضارية، التي تدل على أن الإنسان البداني قد سكن هذا الكهف لمراحل زمنية متتالية من العصر الحجري القديم (الباليوليت)، استمرت مئات الآلاف من السنين.

فأس يدوي من وادي حضرموت
البعثة الأمريكية

لقد ساعد سقوط الكهف في بقاء وحفظ الأدوات الحجرية كما تركها سكانه، ذلك أنه لو قدر للكهف أن يبقى على حالته فإنه لن يسلم من وصول الناس والرعاة إليه لتحويله إلى سكن أو الاستظلال فيه، ومن ثَمّ ضياع قيمته العلمية، وهو ما شاهدناه في كهوف بعض أودية مديرية عرمة في محافظة شبوة في عامي ٨٣/ ١٩٨٤م؛ إذ على الرغم من ارتفاعها عن مجاري الأودية، فإن حرمتها قد انتهكت وحولت إلى ملاجئ للماشية، وأصبحت أرضياتها مفروشة بأبسطة سميكة من فضلاتها.

تتنوع الأدوات التي وجدت في الطبقات الحضارية بين الكم الهائل من الأدوات القاطعة من المطارق الحجرية والفؤوس اليدوية، وبين العدد المحدود من الشفرات، التي كانت تستخدم لسلخ الجلد عن اللحم، وتنظيف الجلود من الشعر. ومن بين هذه الأدوات المصنوعة من الحجر الجيري، التي يتدرج فيها مستوى التكنيك من البسيط إلى الأكثر إتقانًا، تبرز تلك الأداة - الفأس التي تأخذ شكل الكُمّثْرَى وهي أداة عالمية الاستعمال.

شفرات صوانية باليوليتية متأخرة
البعثة الفرنسية

ولم تكن هذه الأدوات هي الوحيدة التي احتفظت بها الطبقات الحضارية، فلقد وجدت بقايا موقد نار، ووجود ذلك الموقد قريبًا من مدخل الكهف يجعلنا نفترض بأن ناره كانت تشعل ليس لشي اللحم فقط بل لتكون مصدر خوف للحيوانات المفترسة لتعيقها وتمنعها من الاقتراب من الكهف؛ إذ إنّ دخولها يهدّد حياة سكانه بالموت.

وفي دليل المعرض الذي أقامته البعثة في (متحف سيئون) بعد انتهاء أعمالها في عام ١٩٨٥م ورد فيه بأن المواقع الحجرية المكتشفة ويبلغ عددها خمسين موقعًا، تنقسم إلى مجموعتين حسب طبيعة المميزات الخاصة بها:

١- المواقع ذات الطبقات الحضارية المهدمة، ووجود الملتقطات الأثرية على السطح.

٢- المواقع التي على شكل مغارات سكنية للإنسان الأول، المحتوية على طبقات حضارية محتفظة بنفسها وهي مهدمة.

ومع طبيعة الأماكن الواقعة فيها تلك المواقع الأثرية المذكورة فإنها تنقسم إلى:

١- المواقع الموجودة على سفوح الجبلان.

٢- المواقع على سفوح الوديان والشعاب.

وأغلب هذه المواقع تكاد تكون أماكن استقرار للإنسان البدائي، كما أن هناك بعض الأماكن التي وجدت فيها بقايا تصنيع الإنسان للأدوات الحجرية (ورشة)، وأيضًا وجدت بقايا الإنسان في مكوثه المؤقت في أثناء قيامه بعملية الصيد الجماعية بحثًا عن الطرائد.

إن اكتشاف البعثة المشتركة خلال ثلاثة مواسم لمواقع كثيرة لأدوات العصور الحجرية باستثناء العصر الوسيط (الميزوليت)، إضافة إلى اكتشافات الكهوف السكنية وأساسًا كهف القزة، التي يرقى تاريخها إلى المرحلة الأشيلية، أو قبلها تقدم لنا معطيات عديدة وأدلة كثيرة على أن الإنسان قد عاش في أرض حضرموت بشكل متواصل ومستمر، وزيادة على ذلك فإن هذه الاكتشافات وبمساعدة علوم أخرى، سوف تمكن العلماء من معرفة الظروف المناخية الطبيعية والجيولوجية والجغرافية، ووضع تصور عن البيئة الطبيعية والعالم الحيواني في الماضي السحيق، والإجابة عن مجموعة الأسئلة، التي طرحت على بساط البحث منذ قرون عديدة، كما أنها ستقدم المفتاح العلمي، وفهم التطورات اللاحقة في منطقة شبه الجزيرة العربية بصفة عامة، وفي حضرموت بصفة خاصة.

الخلاصة:

إن العرض السابق لاكتشافات العصور الحجرية، يرينا أن إنسان العصر الحجري قد عاش في طول حضرموت وعرضها، وأن بقايا أدواته التي تركها في (ورش الصناعة) فوق أسطح الجبال (الجيلان)، وعلى المنحدرات، وفي قيعان الأودية، وفي محطاته السكنية، هي خير شاهد على ذلك، والأهم من ذلك أنها تثبت بالدليل العلمي القاطع والدامغ أن حضرموت كانت أحد الأقاليم، التي أسهمت بهذا القدر أو ذاك في نشوء المجتمع والحضارة البشريين.

---

* كلية الآداب - جامعة عدن.

المراجع:

١- بلعفير، محمد صالح، إنسان العصر الحجري في محافظة شبوة، صحيفة (١٤ أكتوبر)، ٣٠/ ٩/ ١٩٨٣م؛ التوصل إلى اكتشافات مبهرة حول إنسان العصر الحجري في بلادنا ١١/ ٦/ ١٩٨٤م؛ أهمية اكتشاف كهف إنسان العصر الحجري بالقزة ١٩/ ٧/ ١٩٨٤م؛ انتشار واسع لإنسان العصر الحجري في شبوة ٣/ ٣/ ١٩٨٥م؛ اكتشافات عصور ما قبل التاريخ في بلادنا: من الفرضيات إلى الأدلة الدامغة ٣٠/ ٨/ ١٩٨٥م.

٢- نتائج أعمال البعثة اليمنية السوفيتية العلمية المشتركة للأعوام ٨٣/ ٨٤/ ١٩٨٥م (دليل المعرض)، المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، سيئون.

٣- BEEK, G.W van, COLE, G.H and JAMME, A. An Archaeological Reconnaissance in Hadramaut, South Arabia, a preliminary Rport, smithsonian Institution Report, ١٩٦٣, ١٩٦٤, pp.٥٢١-٥٤٥, pl.١-٨, Washington.

٤- Caton-Thompson, G. The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut), Reports of the Research Committee of the Society of Antiquities of London XIII, Oxford, ١٩٤٤.

٥- Harding,G. Lankester Archaeology in the Aden Protecto-rates, London,١٩٦٤.

٦- INIZAN, Marie-Louise: PREMIERS ELEMENTS DE PREHISTOIRE DANS LA REGION DE SHABWA (République Démocratique Populaire du YEMEN), Rayd?n,Vol.٥ ١٩٨٨, pp.٧١-٧٩,pl.١-٥.

٧- PHILLIPS,W. Qataban and Sheba,London, ١٩٥٥.

38
العدد (8)
إبريل
يوليو
2018م

في مفهوم حضرموت والحضارمة

مقدمة:

تتناول هذه الدراسة مفهوم حضرموت والحضارمة وهي ليست انكفاءً ضيقًا كما قد يتصوره البعض، بل إن للأمر ضرورة بحثية، فالقضية التي يعالجها هذا البحث هي من الأمور التي تشغل بال كثير من الناس في حضرموت، إذ كثيرًا ما نصادف من يسأل ما معنى حضرموت؟ ومن هو الحضرمي؟ وهي أسئلة مشروعة ويقصد الناس من ورائها الحصول على أجوبة لكي يعوا انتماءهم الجهوي بوصفهم مكونًا فرعيًا من مكونات المجتمع اليمني، مثلهم مثل غيرهم ممن يتمتعون بانتماءات جهوية في اليمن، وتبعًا لذلك فقد تناولنا الموضوع بوصفه موضوعًا أثنوغرافيًا يُعنى بالبحث عن حضرموت بوصفها اسمًا ورابطة إثنواجتماعية. وقد تتبعنا المفهومين في سياقهما التاريخي وبيان تطور دلالتهما الاجتماعية والجغرافية.

وقد عرضنا المادة المدروسة بالوصف والتحليل مستندين إلى المصادر المكتوبة، وما خبرته من معلومات في موضوع البحث، وكذا على بعض الحوارات مع الأشخاص المذيلة أسماؤهم في قائمة المراجع. كما قمت بتجزئة عناصر الموضوع تمشيًا مع أغراض البحث. وفي الأخير آمل أن أكون قد وفقت في تناول الموضوع، وإن كان هناك توفيق فمن الله سبحانه وتعالى، وإن كان هناك من قصور فهو من عندي.

عيضه حسن العامري

في ذكر اسم حضرموت:

حضرموت اسم موغل في القدم.. وقد جاء ذكرها في مختلف المصادر التاريخية سواء أكان قبل الإسلام أو بعده، حيث وردت لفظة حضرموت (حضرميت) في أسفار العهد القديم كأحد أبناء يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد(١). أما في النقوش اليمنية القديمة فإن أول ذكر لحضرموت جاء في (نقش النصر) للمكرب السبئي (كرب إل وتر)، والذي يعود تاريخه إلى القرن السابع ق. م (٢/ ص ٩١). ثم وردت اللفظة بعد ذلك في عدد من النقوش الحضرمية، والسبئية، والحميرية، واليزنية وغيرها. وقد جاءت اللفظة في النقوش بصيغة (ح ض ر م و ت) و(ح ض ر م ت) (٢ص١٠٥). كما جاء ذكرها أيضًا عند عدد من الكتاب الكلاسيك من يونان ورومان الذين سموها كذلك بـ(أرض اللبان) نسبة إلى اللبان الذي كان ينتج من أراضيها (١٨/ ص٤٠٧). وقد استمر ورود اسم حضرموت في مصادر التراث الإسلامي، ولكن بمعنى مغاير حيث لم تورد بصفتها أرضًا لشعب (قبيلة) كما هو الحال قبل الإسلام، بل ذكرت بصفتها الجغرافية والاجتماعية (٣/ ص١٦٥-١٧٢). وكذا بوصفها اسمًا لمقاطعة إدارية (حضرموت ومخاليفها) في مقابل مقاطعتين أخريين هما (الجند ومخاليفها)، و(صنعاء ومخاليفها)، وكان يعين عليها مسؤولًا إداريًا يدعى (العامل) أو (الوالي)، (١١/ ص ٢٠).

دلالة اسم حضرموت:

لقد أفاضت المصادر العربية الإسلامية في ذكر دلالة تسمية حضرموت، ومما جاء عندهم في هذا الأمر عدد من الروايات، الأولى ترى أن عامر بن قحطان كان أول من نزل بالأحقاف، وكان إذا حضر حربًا أكثر من القتل فصار يقولون عند حضوره (حضر موت)، ثم صار ذلك عليه لقبًا وصاروا يقولون للأرض التي بها قبيلته (أرض حضرموت)، ثم أطلق على البلاد ذاتها (٩/ ص ٣٠). أما الرواية الثانية فتقول إن النبي صالح عليه السلام لما هلك قومه سافر بمن معه من المؤمنين فلما انتهى إليها مات فقيل حضرموت (١١/ ص ٢١). والثالثة تقول إن يعرب بن قحطان، وكان ملكه باليمن، وقد تمكن من التغلب على بقايا عاد، ووزع إخوته في الأقطار وممن أقرهم أخاه حضرموت على الأرض التي عرفت باسمه فقيل لها حضرموت (٢٠/ ص١٥).

أما المؤرخ الهمداني فحضرموت عنده هي الجزء الأصغر من اليمن نسبت هذه البلدة إلى حضرموت بن حمير الأصغر فغلب عليها اسم سكانها (٣/ ص١٦٥). ولكن هناك من النسابة من يختلفون مع الهمداني حول نسب حضرموت إذ يرجعون نسب حضرموت إلى قحطان بن هود مباشرة وهو رأي لعلماء صعدة وأصحاب السجل القديم أي أن حضرموت صنو لسبأ الأكبر، وبذلك تخرج تمامًا من نطاق حمير وربما عن سبأ الأصغر (١٧/ ص١٧٧).

إن تلك المرويات المذكورة آنفًا عبارة عن روايات إخباريين، وتم تناقلها جيلًا بعد جيل ودونت على تلك الشاكلة، وهي إما تبحث عن شخص وتجعله جدًا لحضرموت، أو تحاول أن تجد رابطة بين الاسم مع قليل من التصحيف - حضور الموت- ثم ربط تلك التخريجة في سياق تاريخي، ثم إن بعضًا من هذه المرويات يبدو فيها التأثر الواضح بالنظرية التوراتية كالتي ترجع اسم حضرموت ابنًا لـ(يقظان) الذي حوله العرب إلى (قحطان)، (٤/ ص١٣٠).

وهناك محاولة للمؤرخ علوي بن طاهر لفهم دلالة اسم حضرموت (١٠/ ص٢٣)، وأخرى أوردها المؤرخ بامطرف وهي لا تختلف مع الأولى (٢٠/ ص١٧)، وطور تلك المحاولة الدكتور عبدالعزيز جعفر بن عقيل حيث يرى أن حضرموت ربما هي كلمة مركبة من كلمتين، وهي (حضرم) و(وت)، وإذا اعتبرنا (الميم) في حضرم أداة تعريف كما هو حاصل في لغة النقوش فستكون لفظ الكلمة (الحضر)، أما الكلمة الثانية (وت) فهي من الكلمات التي تصادفنا كثيرًا في أسماء العديد من المناطق في حضرموت والمهرة وربما تكون بمعنى الأرض، مثل كلبوت، وخلفوت، وسيحوت وغيرها، وهي بمنزلة أباد عند الهنود مثل حيدر أباد، أحمد أباد، ومن ثمّ يصبح معنى حضرموت هو أرض الحضر (٢٤).

أما المؤرخ بافقيه فيرى أن اسم حضرموت قد جاء من اسم أحد القبائل التي طغى اسمها على المملكة منذ ما قبل الإسلام، ثم توسعت بمد سلطانها على ما حولها من القبائل، فعُرفت الأرض التي انتشر فيها سلطان تلك الدولة باسم (أرض حضرموت) أرض قبيلة حضرموت (١٨/ ص٤٠٥). ولكن ينبغي التنبيه بأن مصطلح القبيلة لم يأتِ مقرونًا بحضرموت في النقوش اليمنية بل جاء بدلًا عنه مصطلح آخر هو (شعبن حضرمت) أي (شعب حضرموت)؛ ومصطلح الشعب هذا قد يأتي بمعنى قبيلة، أو سكان مدينة، أو فئة اجتماعية معينة تحترف مهنة محددة (١٩/ ص٩٠)، وفي حالة حضرموت وردت على رأي المؤرخ بافقيه بمعنى قبيلة (١٧/ ص١٧٦)، ولكن هناك من المؤرخين من يرى أن مصطلح الشعب يُقصد به المشاعيات الإقليمية التي كان يتكون منها المجتمع في حضرموت، والتي عاد تصويبها المترجم بالجماعات الزراعية المتحدة في إطار مساحة محددة -أي الجماعات الحضرية المنعزلة نسبيًا- وعليه فالمقصود بحضرموت هي تلك الجماعات الحضرية المنعزلة، وإن تحول حضرموت إلى قبيلة جاء في فترة متأخرة بتأثير الثقافة البدوية القادمة من وسط الجزيرة (١٠/ ص٥٢).

وكانت التسمية تطلق أولًا على وادي حضرموت فقط بالرغم من التداخل السكاني فيما بين الساحل والداخل. ثم في زمن ما من التاريخ الوسيط امتد الاسم وأصبح يشمل حضرموت المعروفة حاليًا أي حضرموت الساحل وحضرموت الداخل. وتبعًا لذلك أصبح سكان حضرموت الأولون جميعًا قبائل حضرموت، والصدف، وكندة، وسيبان، وهمدان وغيرها، والقبائل الناقلة التي أتت في وقت لاحق يسمون بالحضارمة نسبة إلى الأرض. وتشكلت بين هذه المجموعات السكانية ثقافة متجانسة، الأمر الذي أفضى إلى ظهور حضرموت بصفتها منطقة تاريخية ثقافية.

يرى د. عبدالعزيز جعفر بن عقيل أن حضرموت اسم مركب من كلمتين: (حضرم)، و(وت) والميم أداة تعريف في لغة النقوش، و(وت) قد تعني الأرض، وعليه يكون معنى حضرموت: أرض الحضر.

وإذا ما نظرنا لمدلول كلمة حضرموت في وقتنا الحاضر فإن لها خمسة مدلولات هي:

أولًا: أن حضرموت اسم لقبيلة عرفت منذ ما قبل الإسلام، ويتفرعون حسب قول المؤرخ الهمداني إلى فرعين الأشباء وبني الحارث (١٠/ ص١٥٢)، وما زالت كثير من قبائل حضرموت الحالية ترجع نسبها إلى حضرموت القبيلة تلك.

ثانيًا: أن حضرموت اسم لمملكة قديمة لا يعرف بالتحديد بداية تأسيسها، ولكن الثابت أنها كانت موجودة منذ قرون قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وكانت عاصمتها شبوة، وقد استمرت حتى أوائل القرن الرابع الميلادي حين استولى عليها الحميريون (٢/ ص١٠٥، ١١١).

ثالثًا: أن حضرموت هي تسمية لمنطقة تاريخية ثقافية تشمل علاوة على محافظة حضرموت الحالية بعض المناطق التي تعد في عداد محافظة شبوة على سبيل المثال لا الحصر وادي دهر.

رابعًا: أن حضرموت هي تسمية لجزء من وادي حضرموت يمتد من العقاد حتى قبر النبي هود عليه السلام، وهي تسمية معروفة عند سكان الوديان الفرعية وهذا الجزء من الوادي يطلق عليه اسم (السرير) أو (السليل)(٢٣)، وهو القسم من الوادي الذي كانت تسكن فيه قبيلة حضرموت في الماضي (١٨/ ص٤٠٦).

خامسًا: أن حضرموت هو اسم لمحافظة يمنية واسعة المساحة، وقد سميت بذلك الاسم منذ العام ١٩٨٠م بدلًا عن الاسم السابق لها وهو المحافظة الخامسة، وكان ذلك الإجراء بمثابة إعادة الاعتبار لاسم حضرموت.

من هو الحضرمي؟

يتكرر طرح هذا السؤال من قبل كثير من المهتمين بحضرموت، وإذا ما عدنا إلى النقوش سنجد أن كلمات مثل الحضرمي، أو الحضارم بصيغة الجمع، قد وردت في النقوش، الأولى جاءت بلفظة (حضرمين)، أما الثانية فجاءت بلفظة (احضرن) و(احضر) (١٧/ ص١٧٦). ولكنها لم تأتِ لفظة جامعة لسكان مملكة حضرموت، بل كانت تعني الجماعات المنتمية إلى قبيلة حضرموت، ومن ثمّ فهي تسمية أثنوقبلية، وهو مصطلح متسق مع تطور المجتمع وقتئذٍ. ولكن إذا ما أخذنا الموضوع من الوجهة العلمية اليوم فالحضرمي هو: كل شخص تشرب ثقافة* وقيم المجتمع الحضرمي، وتشكل لديه شعور بأنه ينتمي إلى هذه الجماعة، وهو شعور يتشكل عفويًا في سياق التربية والاحتكاك بالوسط الاجتماعي، بشرط تقبل المجتمع له وتقبله هو للمجتمع.

إذن نخلص مما مرّ إلى أنّ الانتماء الأثنوثقافي هو الأساس في تحديد حضرمية الشخص من عدمه، وليس الانتماء إلى أصل النسب. إن موضوع من هو الحضرمي يدخل في سياق أسئلة الهوية. والهوية ليست ذات مستوى واحد فقط، بل هي مستويات متدرجة: فهناك الانتماء القبلي، والجهوي، والقطري، والقومي، والديني. والانتماء الذي نعنيه هنا هو الانتماء الإثني* وليس الانتماء الإداري أو السياسي. ومن ثمّ فأنا حضرمي، ثم يمني، ثم عربي، وكذلك الحال عند اليافعي والمهري وغيره من الكيانات في اليمن التي لديها انتماءات جهوية.

ويتم اكتساب مكونات الثقافة وعناصر القيم الأخرى من خلال التربية والاتصال بالوسط الاجتماعي فعندما يكون الشخص والداه حضرميين، يتحقق تمثل الهوية عن طريق التنشئة الاجتماعية في المنزل، والمدرسة، والشارع. أما المقيمون في بلدان خارج حضرموت فدور الأسرة، والتواصل بين العائلات الحضرمية يمثل الدور المحوري وبالذات في حالة غياب وجود أي هيئات أهلية حضرمية في بلد المهجر. وبالمقابل قد يصبح فرد ما حضرميًا من دون أن يكون من أب حضرمي، ويحدث مثل ذلك لأولئك الذين ولدوا وشبوا وعاشوا في حضرموت واندمجوا في نسيج المجتمع، وتولد لديهم وعي بأنهم حضارم نتيجة تأثرهم بالوسط الاجتماعي، وإن بقوا محتفظين بأصولهم الأولى. ويترسخ الانتماء أكثر مع أبنائهم وأحفادهم حيث تتسع دائرة الارتباط والتداخل مع المجتمع المحلي، حتى تصبح حضرموت بالنسبة لهم هي الأهل، والدار، والأصحاب، والوطن. ولدينا نماذج كثيرة مثل هذا النوع تتحقق في حضرموت.

إن كلمات مثل حضرمي والحضارم بصيغة الجمع قد وردت في النقوش، الأولى جاءت بلفظة (حضرمين) والثانية بلفظة (احضرن) و(احضر)

الحضارم والانتماء إلى مجموعات إثنية أخرى:

لقد أفضت التجربة التاريخية عند الحضارمة إلى بروز ثلاثة أنواع من الانتماء.

الأول: الانتماء الداخلي: أي اندماج أو انصهار أفراد من غير حضرموت في النسيج الاجتماعي الحضرمي بعد تحضرمهم إثنيًا، مع احتفاظ البعض منهم بانتمائه الأول، كأن يكون فرد ما حضرميًا وهو من أصول مهرية، أو حضرميًا من أصول يافعية وإلى غير ذلك. وهذا النمط من الانتقال كان معروفًا حتى في النظام القبلي، حيث قد تنسلخ فخيذة، أو مجموعة من فخيذة وتلتحق بقبيلة أخرى بعد أن تعقد حلفًا معها، وتكون بعدئذٍ جزءًا من القبيلة التي انضموا إليها وبذلك يغير المنتقلون من هويتهم الإثنوقبلية.

الثاني: الانتماء الخارجي القطري: وهذا يحدث عندما تندمج جماعة في نسيج دائرة انتماء قطري آخر، على شاكلة اندماج الحضارم في نسيج المجتمعات العربية التي هاجروا إليها مثل دول الجزيرة العربية.

الثالث: الانتماء الخارجي: وقد حدث مثل ذلك في مهاجر الحضارم الأفريقية والآسيوية غير العربية، أي الانتماء إلى أقوام من إثنيات غريبة عنهم.

ولكن نتائج الانتماءات المذكورة تكون مختلفة بالطبع، فقد يتم الانتماء

إلى جماعة أخرى مع الاحتفاظ بالهوية السابقة ومن ثمّ يكون الشخص مزدوج الانتماء؛ فقد يكون الشخص حضرميًا ويافعيًا، أو حضرميًا وسعوديًا، أو إندونيسيًا وحضرميًا في الوقت نفسه، وقد يؤدي الاندماج إلى زوال الانتماء الأول (الانصهار)، فقد يكون شخصًا ما حضرميًا وإندونيسيًا ثم يأتي أبناؤه أو أحفاده ويصيرون إندونيسيين خُلصًا. كما إن الاندماج في نسيج كل تلك المجتمعات ليس بدرجات متساوية، فالانتماء الداخلي عادة ما يحصل بيسر نظرًا لكون الجماعات فيه يرتبطون بروابط اقتصادية واجتماعية وسياسية، وتجمعهم وحدة الوطن. وكذلك الحال بالنسبة للانتماءات القطرية إذ يتم الاندماج بدون عناء شرط تقبل أولئك المهاجرين في نسيج تلك المجتمعات من خلال الاعتراف بهم بوصفهم مواطنين عبر منحهم جنسية البلد المقيمين فيه، ويعود ذلك إلى وحدة الانتماء الإثني الأوسع (عرب) الذي يجمعهم أصلًا، هذا إضافة إلى تقارب العادات والتقاليد بين حضرموت والمجتمعات العربية تلك حيث يتحقق الاندماج الكامل لأولئك المهاجرين أحيانًا في الجيل الأول من الأبناء بل ويحدث أحيانًا ذوبان للانتماء الأول وبالذات من قبل الأجيال المتقدمة ممن انقطعت صلاتهم بحضرموت، ولكن هناك فئة أخرى تتجاهل انتماءها الأول عن عمد ويعبرون عنه ببعض المظاهر السلوكية حتى حين يأتون لزيارة حضرموت. وهو مظهر من مظاهر التشوه الثقافي إذ يتصورون أن انتماءهم الإثنوثقافي الأول أقل شأنًا من انتمائهم الجديد نظرًا لتفاوت مستوى الحياة المادية، أما الانتماء الإثني الخارجي فالاندماج فيه ليس بالأمر الهين وذلك يعود إلى التباين

هناك ثلاث خصال تجدها مشتركة فيما بين الحضارم في الخارج وهي: تذكر أصولهم الحضرمية والاعتزاز بها، والتحفظ في تزويج أولادهم وفتياتهم من غير الحضارم والاحتفاظ بأسماء قبائلهم

في القومية، وأحيانًا في الدين، والتباين الثقافي في مجالات عدة كاللغة والعادات والتقاليد، ولذلك فالمهاجرون الجدد من حضرموت لم يستطيعوا الاندماج في تلك المجتمعات الآسيوية والأفريقية، بل تمكنوا من التكيف الناجح معها حيث بقوا متشبثين بتقاليدهم الحضرمية، ويفضلون السكن في أحياء خاصة بهم (٧/ ص٣٨، ١٥/ ص١٦٢)، ولكن تحقق الاندماج مع الأبناء المولدين بحيث أصبحوا بعدئذٍ إندونيسيين أو سواحليين أو هنودًا مع تمسكهم بأصولهم الحضرمية من خلال الحرص على تعلم اللغة العربية عند بعضهم، والتغني بالأغاني الحضرمية أو إدخال الألحان الحضرمية في كلمات غير عربية كالسواحيلية مثلًا في حفلات الزواج، والحفاظ على بعض المظاهر الثقافية المادية مثل مصافحة الوالدين كل صباح، وإعداد بعض المأكولات الحضرمية، ولبس الملبس الحضرمي التقليدي كالفوطة في بعض المناسبات، والاحتفاظ بمسميات قبائلهم، وتزويج أولادهم من فتيات من أصول عربية، وتحفظهم في تزويج بناتهم من غير العرب، وقيامهم بتسمية أحد الأبناء باسم الأب وغالبًا ما يكون الابن الأول، وتذكر أسماء مناطقهم، والاعتزاز بأصولهم الحضرمية اليمنية (١٣/ ص١٤٩ و٢٤ و٢٥) وكذا نقل بعض التقاليد التي كانت سارية في حضرموت إلى بلد المهجر مثل حفظ معدات الزواج عند رئيس الحي مثل قدور الطبخ والمواقد وغيرها مما تتطلبه وليمة الزواج، وكذا الآلات المرافقة لرقصات العدة والشبواني مثل الهاجر والمراويس والطاسة (١٢/ ص٦٨) وما زالت هذه العادة سارية حتى وقتنا الحاضر في بعض مهاجرهم. كما اهتموا كذلك ببناء المساجد، وفتح الكتاتيب التي كانت بعضها ملحقة بالمساجد لتعليم الأطفال قراءة القرآن، وتدريسهم أولويات العلوم الشرعية، وكانوا يُحضرون أحيانًا من يقوم بتلك المهمة أشخاصًا مختصين من حضرموت لكي يقوموا بإمامة المسجد وتعليم الأطفال (١٢/ ص٦٦).

وهذه الخصال من المظاهر الثقافية ليست بالضرورة أن تجدها كلها مجتمعة عند أجيال المولدين، إلا أن هناك ثلاث خصال تجدها مشتركة فيما بينهم وهي: تذكر أصوله الحضرمية والاعتزاز بها، والتحفظ في مسألة تزويج أولادهم وفتياتهم، والاحتفاظ بأسماء قبائلهم. وقد عزز من ذلك ميل بعض الحضارمة للسكن مع بعض في مناطق بعينها ففي زنجبار مثلًا كان سكن الحضارم في مالیندی وفي حبيين أخريين (٦/ ص١٧٣)، في مدينة ممباسا في قُراي ومجانقو، وفي العاصمة الصومالية مقديشو في حي العرب بجوار المحفل الإسلامي (١٤/ ص٢٠٤)، وفي حيدرأباد بالهند في منطقة بركاس (١٣/ ص١٥١)، وكذلك الحال في إندونيسيا (٣٥) وسنغافورا، حتى في مصر حيث كانت توجد جالية صغيرة كان سكن الحضارمة يتركز بجوار مسجد السيد الحسين في القاهرة (٦/ ص١٨١). ولكن بدأت هذه الظاهرة

في التراجع في الوقت الحاضر بعد زيادة اندماجهم في تلك المجتمعات.

ولذلك فالحضارمة الذين اندمجوا في تلك المجتمعات احتفظوا ببعض خصائصهم الإثنية بحيث ظهروا بوصفهم مجموعة من العرب مندمجين في نسيج ذلك المجتمع وقد نتج ذلك الاندماج نتيجة تقبلهم للمجتمع وتقبل المجتمع لهم وتمثلهم لثقافته، وما شجع على بقاء هذا الأمر تقبل تلك المجتمعات لسلوكهم ذلك، إذ لم يروا في تميزهم الثقافي ذلك خدشًا للوحدة الوطنية. بل كانت تلك المجتمعات تنظر إليهم بصفتهم مواطنين متساوين معهم في الحقوق والواجبات، بل هناك من تبوأ منهم مناصب مدنية وعسكرية رفيعة. ولكن ارتباطهم بحضرموت لم يعد كارتباط آبائهم، فليس لديهم اهتمام بقضايا ومشاكل حضرموت، فلم يعد الوطن الأول في نظرهم غير تلك الأوطان التي خلقوا وعاشوا فيها، ففي إندونيسيا مثلًا أعلن (اتحاد عرب إندونيسيا) في العام ١٩٢٣م، بأن وطنهم الأول هو إندونيسيا وليس حضرموت، وتبعًا لذلك ركزوا في برنامجهم السياسي على قضايا وهموم إندونيسيا فقط (١٣/ ص١٢٣)، وعليه أصبح لمثل أولئك انتماءان: الأول للبلد الأصلي التي قدم منها آباؤهم أو أجدادهم وهو رابطة الانتماء للأصل، والثاني وهو الأهم الانتماء للبلد الذي ولدوا وعاشوا فيه وهو رابطة الانتماء للوطن. ولكن هناك فريق آخر وأن كانوا قلة من المولدين الحضارم، وبالأخص من الأجيال المتقدمة تجدهم قد انصهروا تمامًا في نسيج تلك المجتمعات ولم تعد حضرموت تشكل بالنسبة لهم سوى شيء من الماضي.

لم يعرف الحضارم في مهاجرهم غير العربية بهذا الاسم إلا في نطاق ضيق جدا إذ كانوا يعرفون بانتمائهم الأوسع عرب. ومثال ذلك (معرابو) بالسواحلية. و(عرب) بالصومالية. و(توان عرب) بالإندونيسية. و(عرب صاحب) بالهندية

الحضارمة اسم ورابطة اجتماعية:

إن التسمية التي ترضاها لنفسها أي مجموعة أثنواجتماعية، لم تعد بعد أن تترسخ مجرد كلمة عادية، بل تتحول إلى رمز بما في ذلك لماضيها التاريخي كله. ولذلك لم يرض الحضارمة ساحلًا وداخلًا بإبعاد تسمية حضرموت من مشروع تقسيم إداري كانت تزمع الحكومة وقتئذٍ على تنفيذه، وعبروا عن ذلك الرفض علنًا حتى تم التراجع عن الفكرة.

إن تسمية الحضرمي، والجمع حضارم هي التسمية التي يحب أهل حضرموت أن يسموا بها وهي تسمية قديمة سموا بها نسبة إلى الأرض، إلا أنهم لم يسموا حضارم في مهاجرهم غير العربية إلا في نطاق ضيق جدًا إذ كانوا يسمون بانتمائهم الأوسع عرب، (معرابو) بالسواحلية، و(عرب) بالصومالية، و(توان عرب) بالإندونيسية، و(عرب صاحب) بالهندية. حتى إن بعض الجمعيات الأهلية والمدارس التي كانوا يؤسسونها كانت تحمل اسم عربي. وعلاوة على تسمية (عرب) تلك فقد سموا في بعض مناطق شرق أفريقيا مثل (زنجبار، وتنجانيقا، وكينيا، وأوغندا) باسم آخر هو (مشهيري) أي (الشحري) نسبة إلى مدينة الشحر التي كانوا يسافرون منها. أما تسمية الحضرمي فكانت مسمى فرعيًا تعني فردًا من الوادي (٧/ ص٣٤) بل حتى المهاجرون إلى مستعمرة عدن وقتئذٍ، والذين كان أغلبهم من منطقة دوعن كانوا يسمون بـ(الشحاري)، وأظن أن هذا الاسم ما زال يُطلق على الحضارم من أصحاب دكاكين بيع المواد الغذائية حتى الآن. أما تسميتهم بالحضارم فكان شائعًا في مهاجرهم العربية مثل الحجاز، ومناطق الجزيرة العربية الأخرى. وكذا السودان ومصر حيث كان بهما جالية صغيرة من المهاجرين.

وقد عززت الهجرة وبالذات إلى المهاجر غير العربية الرابطة الأثنواجتماعية عند الحضارم، إذ أحسوا عندما حطوا الرحال فيها سواءً أكان في شرق أفريقيا أو جنوب آسيا أو جنوب شرق آسيا بأنهم أصبحوا في وسط اجتماعي إثني غريب، وينظر الآخرون إليهم كذلك بالطبع، ومن ثمّ ولد لديهم إحساسًا بتميزهم الديني والثقافي، أي نحن قوم وهم قوم آخرون، وتبعًا لذلك تعزز لديهم الشعور بالوحدة التي تجمعهم، وقد ساعد على ذلك أن هؤلاء القوم لم يكونوا يعيشون في حضرموت جزرًا متناثرة بل كانت توجد فيما بينهم روابط اقتصادية واجتماعية وثقافية، كل هذا قوّى من ترسخ الوعي بذاتهم بصفتهم جماعة أثنواجتماعية (حضارم).

طباعهم كما رآها فيهم الآخرون:

لقد تميز الحضارمة عمومًا سواءً من يوجد بحضرموت أو الذين هاجروا؛ بعدد من الخصائص في طباعهم مثلهم مثل أي قوم آخرين. ولكن ينبغي أن نعرف أن هذا الطبع ليس خاصية عرقية كما قد يتصور البعض، بل هو ظاهرة اجتماعية تاريخية مثلها مثل أي ظاهرة محكومة بالواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. ثم

إننا عندما نقول بالطبع لا نقصد تعميم ذلك الطبع على كل الحضارم، بل نقصد إنه السمة الغالبة عليهم، وإلا ففيهم المرابون، والمجرمون، وغير المتدينين، مثلهم مثل أي قوم آخرين. بل حتى طباع الحضارمة اليوم غير طباعهم بالأمس وإن بقت بعضًا من خصائص طباعهم القديمة التي تميزت بالآتي:

أولًا: التدين والاستقامة: لقد شكلت التربية الدينية قولًا وفعلًا أساس تربية النشئ في حضرموت، فكانت هناك علاقة حقيقية بين التدين والالتزام الأخلاقي، فحتى وقت قريب كان المبدأ الأساسي في حضرموت عند تزكية استقامة أي شخص موقفه من أداء الصلوات إذ كان مثل ذلك كافيًا لترجيح استقامة الشخص. لذلك مثلت قضايا مثل المواظبة على الصلاة، والأمانة، واحترام الوالدين وكبار السن، والسلوك الحسن، مظاهر بارزة في حياتهم العامة. ومن هنا كانت الأمانة والاستقامة الخُلقية أهم خاصيتين ميزتا الحضارم في المهاجر (٢١/ ص١٢٠)، وهذه الظاهرة -على ما يبدو- لها جذورها في التاريخ الحضرمي إذ يذكر البعض أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد وصفهم بالأمانة وأوصى بالاستعانة بهم (٢٢/ ص٨٦). وجاء في بعض المأثورات العربية أن معاوية الأول -رضي الله عنه- كان قد أوصى مسلمة بن مخلد واليه على مصر قائلًا: لا تول عملك إلا أزديًا أو حضرميًا فإنهم أهل الأمانة (١٠/ ص١٤١). ولأمانتهم فقد أوكلت حكومة زنجبار إلى عدد منهم الإشراف على أمور المالية والقضاء (٦/ ص١٧٢). وحدث الشيء نفسه عندما أوكل الأشراف في الحجاز إلى عدد من الحضارم تبوء منصب وزير المالية (٢١/ ص٤١). ويقول عنهم إنجرامز حين كان مقيمًا سياسيًا في شرق أفريقيا: بالرغم من حدة طباع الحضارم إلا إنهم منضبطون ومطيعون للقانون ويندر أن ترى أحدًا منهم يمثل أمام القضاء (٦/ ص١٧٥). والشهادة نفسها أدلى بها فان دن بيرخ عن الحضارم في جنوب شرق آسيا حيث يقول: إنك لا تجد حضرميًا يتناول المشروبات الكحولية أو الأفيون، حتى بين المولدين منهم إلا نادرًا، ويستعرض شهادة أحد القضاة الهولنديين الذي عمل اثنتي عشرة سنة بأنه خلال سنوات عمله تلك لم يمثل أمامه إلا عربي واحد فقط (١٥/ ص٨٦، ٨٩). وشاعت أمانة الحضارم بعدئذٍ في مهاجرهم المتأخرة في الجزيرة العربية إذ كانوا محل ثقة الناس في تلك المهاجر بما تميزوا من حرص في إدارة الأموال التي كانوا يؤتمنون عليها، وكذا تعاملهم الصادق والأمين مع زبائنهم.

ثانيًا: الاعتدال في العيش: لقد مال الحضارم إلى الاعتدال في المأكل، والمشرب، والمسكن، وهو واقع حالهم في حضرموت، ولكن برز ذلك بشكل جلي في مهاجرهم؛ لذلك وصفهم البعض بأنهم قوم مقتصدون (٧/ ص٣٨)، ووصفهم آخرون بالاعتدال (١٥/ ص٨٦)، ورأى ثالث في سلوكهم صورة للبخل والشح (١٦/ ص٣٦٥). كما كان كثير من الحضارم كذلك غير ميالين إلى ثقافة المظاهر، ففي جنوب شرق آسيا مثلًا كان لا يمكن مشاهدة التمايز الاجتماعي بين بعض الميسورين منهم والبسطاء في المظاهر الخارجية كالملبس، أو أثاث المنزل، أو السيارة (١٥/ ص٩٠)، وهذه البساطة في مظاهر الحياة كانت حتى وقت قريب يمكن مشاهدتها عند التجار الحضارم في الداخل. إن الاعتدال في العيش عند الحضارمة أملته ظروف خاصة بهم؛ الأول: إن البساطة في العيش هو ما اعتادوا عليه في حياتهم اليومية في حضرموت، ومن ثمَّ كان جزءًا من نمط سلوكهم، ثانيًا: إن المهاجرين الحضارم كان الغالبية العظمى منهم عمالة غير ماهرة ويمتهنون أعمالًا بسيطة ويكسبون عوائد محدودة، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الحضرمي حين يسافر كان عليه التزامات في بلده منها أن يقوم بالصرف على أسرته، والسعي لأجل تزويج نفسه إن كان عازبًا، وأن يجتهد لكي يبني له منزلًا، ويحلم بعدئذٍ أن تكون له مزرعة في حضرموت. ثم إن دورات المجاعة، ومعاناة الفقر الشديد التي كان يكابدها معظم الحضارمة (٢١/ ص١٠٩)، بالإضافة إلى القصص التي كانوا يسمعونها من آبائهم حول معاناتهم في ما مرّ من الزمن، كل ذلك كان كافيًا ليولد فيهم قلقًا من الغد، ومن ثمَّ ادخار المال لذلك اليوم كان جزءًا من حسابات الحضارم، على قاعدة (خل من شبيعاتك لجويعاتك).

ثالثًا: التعاون والتضامن فيما بينهم: شكل موضوع التعاون والتضامن عند الحضارمة -سواءً فيما بينهم في

كثير من الحضارم غير ميالين إلى ثقافة المظاهر ففي جنوب شرق آسيا مثلاً كان لا يمكن مشاهدة التمايز الاجتماعي بين بعض الميسورين منهم والبسطاء في المظاهر الخارجية كالملبس.

الداخل، أو فيما بين المهاجرين، أو بينهم وبني قومهم في حضرموت- أحد المظاهر البارزة عندهم. وقد عبروا عن هذا التضامن من خلال تأسيس أماكن الإيواء من قبل الأثرياء منهم لاستقبال القادمين الجدد إلى تلك المهاجر وتوفير السكن والغذاء المجاني لهم حتى يحصل على عمل أو يأتي أحد من أقربائه ويأخذه. كما كانت هناك جمعيات لبعض القبائل وأخرى تختص بأصحاب قرى معينة هدفها استقبال الوافد الجديد ومساعدته في توفير عمل مناسب له، كما تقوم بإرشاد ونصح أعضائها وتأديب المخالفين والسالكين منهم سلوكًا مشينًا يضر بسمعة قومه (١٨/ ص٥٦)، وكذا الأخذ بأيدي المهاجرين من أقاربهم من خلال تقديم الرأسمال الضروري لفتح دكاكين لهم، كما كانوا وما زالوا يساهمون في المشاريع الخيرية في حضرموت كالمدارس، والمساجد، والمستشفيات، والتعليم، والعناية بمنشآت الري، وشق الطرق، ومشاريع المياه (٢١/ ص١٠٠)، ويقومون بإرسال المعونات المالية لأقاربهم وغير أقاربهم من المحتاجين وبالذات في شهر رمضان. وكذا تأسيسهم للجمعيات الأهلية التي ترعى شؤون أعضائها.

إن روح التعاون والتضامن هذه هي امتداد لما اعتادوا عليه من الروح الجماعية في حياتهم العامة في حضرموت مثل التعاون في بناء ورعاية منشآت الري، وفي بناء السقايات، وحفر النقاب، وتأسيس ديار الصدقة، وإخراج الصدقات لخدمة الغير، والتضامن فيما بينهم في الأفراح والأتراح، ولمعرفة نموذج من هذا التضامن ينظر: (٨/ ص٥٩، ٦٠، ٨٤). ثم إن الغيرة الوطنية كانت أيضًا أحد الدوافع وراء كل ذلك أملًا في رؤية حضرموت كسائر

يرجع اسم حضرموت إلي قرون ما قبل ميلاد المسيح، وبدأ تسمية لقبيلة ثم تطور حتى أصبح اسمًا لناحية واسعة من شرق اليمن

الأوطان آمنة ومستقرة كحال الأوطان التي عرفوها.

رابعًا: تعلقهم بمهنة التجارة: وهي من الخصال التي امتاز بها الحضارم مثلهم مثل الصينيين والهنود. فقد كان ميلهم للعمل التجاري ظاهرة بارزة في مهاجرهم عامة، سواءً أكانوا في شرق أفريقيا (تنزانيا، أو كينيا، أو أوغندا، أو الصومال) (٦/ ص١٦٩، ١٧٠)، فحسب إحصاء عام ١٩٢٤م في زنجبار -تتبع حاليًا تنزانيا- لوحظ أن أكثر المهن شيوعًا عند الحضارم هي التجارة؛ حيث أتت في المرتبة الأولى، وقد قدر عدد التجار وقتئذٍ بحوالي ٤٠٥ تاجر (٦/ ص١٧٨). والأمر لا يختلف مع المهاجرين الحضارم في جنوب شرق آسيا حيث يقول عنهم فان دن بيرغ إنه من النادر أن تجد في الأرخبيل الهندي من الحضارم من لا يهتمون بالتجارة بهذا الشكل أو ذاك (١٥/ ص٩٣). أما في الحجاز فقد كانت التجارة من المهن الشائعة عند الحضارم وقد تبوؤوا مراتب عالية في مجال التجارة لم يستطع حتى التجار الهنود أن ينافسوهم فيها (٢١/ ص٤٠). واستمرت هذه العادة عند الحضارم حتى بعد قيام العربية السعودية. والاستثناء كان أن الحضارم الذين اتجهوا إلى الهند عمل الغالبية منهم في السلك العسكري في نظام حيدر أباد، مع ذلك كان من بينهم من امتهنوا التجارة وامتلاك العقارات (١٣/ ص١٤٣). وكان من أسباب ميلهم للعمل التجاري هو أن العمالة الوافدة من حضرموت هي عمالة ليست لديها خبرات فنية، ومن ثمّ ما كان أمامهم سوى أن يمتهنوا المهن البسيطة التي لا تدر لصاحبها إلا عائدًا متواضعًا. ثم إن نظرة الحضرمي إلى المهجر يعني كسب أكبر قدر من المال وهو مقياس لنجاح المهاجر في نظرهم، ومن ثمّ كان العمل في التجارة هو قبلتهم لما يمثله كأفضل مصدر للكسب الكبير والسهل، ولا يحتاج منه سوى إلى تدريب بسيط يمكن أن يستوعبه بالعمل عند أحد أقربائه، ومبلغ من المال يتكفل بتقديمه له دينًا أحد أقاربه كذلك، أو أن يعمل شريكًا مقابل قيامه بإدارة متجر ما. ولكن ما يأخذه البعض على الحضارم ميلهم الكبير نحو الادخار وعدم الاتجاه نحو توسيع استثماراتهم، فهم دائمًا حذرون عند الإنفاق على مشروعاتهم، ولا يغامرون في الدخول في مضاربات تجارية كبيرة، وهذه فلسفتهم في التعامل مع السوق على قاعدة (الحذر ولا الشجاعة)، ولكن رغم ذلك فقد شهد لهم بالنجاح في مجال التجارة، ومن أسباب نجاحهم ما تحلوا به من جدٍ ومثابرة في العمل، وتحليهم بأخلاق المهنة، الأمر الذي مكنهم من تحقيق سمعة طيبة في العمل التجاري.

الخلاصة:

أولًا: إن اسم حضرموت اسم موغل في التاريخ، إذ يرجع إلى قرون ما قبل ميلاد المسيح، وبدأ تسمية لشعب (قبيلة)، ثم تطور حتى أصبح اسمًا لناحية واسعة من شرق اليمن، ولا يُعرف بالضبط المعنى الحقيقي للفظة حتى الوقت الحاضر.

ثانيًا: إن الحضرمة هو انتماء

أثنوثقافي، وهو الذي يحدد حضرمية الشخص، وليس الانتماء إلى أصل النسب وهو انتماء يتشكل عفويًا من خلال الاحتكاك بالوسط الاجتماعي، عبر التنشئة الاجتماعية في المنزل، والمدرسة، والشارع.

ثالثًا: إن هويتنا تتكون من عدد من الانتماءات المتدرجة، وهي الانتماء القبلي، والانتماء الجهوي، والانتماء القطري، والانتماء القومي، والانتماء الديني، وكل هذه الانتماءات أشبه بدوائر متداخلة، وكل دائرة أوسع من الدائرة الأخرى.

رابعًا: إن الانتماء ليس له شكل واحد فقط، فقد يكون للشخص انتماء واحد فقط، وقد يكون له أكثر من انتماء فقد يكون حضرميًا ويافعيًا، أو سعوديًا وحضرميًا، وقد ينصهر الشخص في وسط اجتماعي ما ويحاول أن ينسى أو يتناسى انتماءه الأول.

خامسًا: إن الجاليات الحضرمية التي هاجرت إلى شرق أفريقيا أو الهند أو جنوب شرق آسيا، تمكنت من التكيف مع تلك المجتمعات، ولكنها لم تستطع الاندماج إلا بعد مجيء أجيال المولدين. وهم على نوعين، الأول ما زال متمسكًا بأصوله بوصفه عربيًا حضرميًا، ويعبر عن ذلك من خلال الاحتفاظ ببعض التقاليد الحضرمية، وقلة انصهرت في نسيج تلك المجتمعات.

سادسًا: لقد تميز الحضارم عمومًا بخصائص معينة في طباعهم منها الأمانة والاستقامة الخلقية، والاعتدال في الأكل والمشرب والمسكن. ثم ميلهم نحو التعاون والتضامن فيما بينهم في خدمة بني جلدتهم سواءً من هم في المهجر أو من هم في داخل حضرموت، وأخيرًا الرغبة في امتهان العمل التجاري في المهجر سعيًا من أجل الكسب الوفير، وقد نجحوا نجاحًا باهرًا في ذلك.

المراجع:

١) العهد القديم والعهد الجديد، الترجمة العربية، طبع جمعية التوراة الأمريكية، سفر أخبار الأيام الأولى، الإصحاح الأول.

٢) د. أسمهان سعيد الجرو: موجز التاريخ السياسي القديم لجنوب شبه الجزيرة العربية، دار جامعة عدن، عدن، ٢٠٠٢م.

٣) الحسن بن أحمد الهمداني/ تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي: صفة جزيرة العرب، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠م.

٤) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

٥) د. حامد القادري/ ترجمة د. زكي باسليمان: كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا، دار جامعة عدن، عدن، ١٩٩٨م.

٦) دبليو إتش إنجرامس/ ترجمة د. سعيد عبدالخير النوبان: حضرموت ١٩٣٤-١٩٣٥م، دار جامعة عدن، عدن، ٢٠٠١م.

٧) هارولد إنجرامس/ ترجمة خالد محمد علي: رجال الشحر في شرق أفريقيا، مجلة (آفاق)، العدد (التاسع)، ١٩٨٦م، ص٣٠-٣٨.

٨) روبرت سارجنت/ ترجمة سعيد محمد دحي: شعر ونثر من حضرموت، المركز اليمني م/ حضرموت، المكلا، ١٩٨٠م.

٩) صلاح البكري اليافعي: تاريخ حضرموت السياسي، المطبعة السلفية، ج١، ١٣٥٤هـ.

١٠) د. سرجيس فرانتسوزوف/ ترجمة د. عبدالعزيز جعفر بن عقيل: تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، ٢٠٠٤م.

١١) علوي بن طاهر الحداد: الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، سنغافورا، ١٩٤٠م.

١٢) عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي: الحضارم في ممباسة ودار السلام ١٩٣٠-١٩٦٠م، كتيب، دار حضرموت، المكلا، ٢٠٠٤م.

١٣) عمر الخالدي/ ترجمة جمال محمود حامد: عرب حضرموت في جيدر أباد، مجلة (دراسات الخليج والجزيرة العربية)، العدد (٤٥)، يناير ١٩٨٦م، ص١٣٥-١٦٩.

١٤) عيدروس بن علي العيدروس العلوي: بغية الآمال في تاريخ الصومال، مطابع الوصية، الصومال، ١٩٥٤م.

١٥) فان دن بيرغ/ ترجمة د. مسعود عمشوش: حضرموت والمستوطنات العربية في الأرخبيل الهندي، دار جامعة عدن، عدن، ٢٠٠٦م.

١٦) لطفي جمعة: حياة الشرق، دار إحياء الكتب العربية.

١٧) د. محمد عبدالقادر بافقيه/ ترجمة د. علي محمد زيد: توحيد اليمن القديم، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية - الصندوق الاجتماعي للتنمية، صنعاء، ٢٠٠٧م.

١٨) د. محمد عبدالقادر بافقيه: حضرموت، الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، ج١، صنعاء، ١٩٩٢م.

١٩) د. محمد عبدالقادر بافقيه: في العربية السعيدة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٩٣م.

٢٠) محمد عبدالقادر بامطرف: الشهداء السبعة، دار جامعة عدن، عدن، ط٢، ١٩٨٣م.

٢١) محمد عبدالقادر بامطرف: الهجرة اليمنية، وزارة شؤون المغتربين، صنعاء، ٢٠٠١م.

٢٢) محمد بن أحمد الشاطري: أنوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر، المدينة المنورة، ط٣، ١٩٩٤م.

٢٣) الخيصة، نشرة شهرية ثقافية يصدرها منتدى الخيصة بالمكلا، العدد (الثاني)، ١٩٩٦م.

٢٤) حدثني بذلك الرأي في أحد الحوارات العامة معه.

٢٥) حوار مع خالد عبدالله بن دحدح، كان أحد أعضاء الجالية الحضرمية في تنزانيا، ٤٥ سنة، المكلا، يوليو ٢٠٠٩م.

٢٦) حوار مع علي الكرار الحداد، طالب إندونيسي في دار المصطفى، ٢٥ سنة، تريم، نوفمبر ٢٠٠٩م.

* أقصد بالإثنية هي مجموعة من الناس لديهم شعور بتميزهم الاجتماعي قبليًا، أو جهويًا، أو قطريًا، أو قوميًا، أو دينيًا، ولديهم رابطة تتجلى في الاسم، وعادة ما يصاحب ذلك التمايز: تمايز ثقافي، وهي ظاهرة اجتماعية تتشكل تاريخيًا دون إرادة الناس.

* المقصود بالثقافة هي الأشكال التقليدية لخبرات العمل، والمسكن، واللوازم المنزلية، والملبس، والطعام، إضافة إلى نظام القيم، والأدب الشعبي: من أشعار وحكايات وأمثال وحكم، وفنون: من غناء ورقص، وطب شعبي وغير ذلك، أي نمط حياة المجتمع التي تكرسها الممارسة اليومية.

46
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

لهجة حضرموت

(الحلقة الثانية)

محمد عوض محروس

الألفاظ القرآنية في (لهجة حضرموت) ودلالات ألفاظها:

تبين العلاقات التجارية القديمة بين عرب الجنوب وعرب الجزيرة العربية الآخرين تطور العلاقات الثنائية بين قدماء الحضارم وقبيلة قريش بشكل خاص، حيث يوضح النقش (جام ٩١٩) حضور عدد من النساء القرشيات حفل تنصيب الملك العذيلط على مملكة حضرموت في جبل العقلة غرب شبوة العاصمة الحضرمية القديمة في عام ٢٧٠م[١]. ويرى د. فكتور سحاب أنهن كن يمارسن التجارة قبل أن تستولي قريش على مكة في القرن الخامس الميلادي[٢]. وكان تجار قريش يشاركون في سوق (الرابية) بوادي العين، وفي سوق (شحر مهرة) بشرق وادي حضرموت[٣]، وهي السوق التي أصبح اسمها اليوم زيارة النبي هود عليه السلام. كما كان الحضارم يشاركون في سوق عكاظ وفي غيرها من الأسواق العربية، وكانت لهم علاقات تجارية واسعة مع بلاد الشام ومصر، وكانت قوافلهم تتزود بالماء والطعام والعلف وغيرها من متطلبات القوافل من مختلف المحطات التجارية على الطريق بين حضرموت وبلاد الشام ومصر بما فيها مكة، الأمر الذي يعني وجود حد أدنى من معرفة كل طرف بلغة أو لهجة الآخر، فالبيع والشراء وعقد الصفقات التجارية يتطلب وجود أشخاص على دراية بلغات الآخرين، ويؤكد وجود الكتابات العربية الجنوبية في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر، وحتى في الجزر اليونانية صحة ذلك، كما أن ذلك يعني أيضًا وجود ولو القليل من المشترك اللفظي بين اللغات واللهجات العربية القديمة طالما أنها كلها كانت تنتمي إلى جذر عربي قديم واحد أطلق عليه الآخرون مصطلح (اللغات السامية)، وتؤكد الألفاظ القرآنية في اللغات العربية الجنوبية وجود ذلك المشترك اللفظي، حيث ورد في كتاب الدكتور هادي عطيه مطر الهلالي (دلالة الألفاظ اليمانية في بعض المعجمات العربية) بعض الألفاظ القرآنية التي نسبت دلالاتها إلى قبائل يمنية وذلك في قوله: «ورد في كتاب (اللغات في القرآن الكريم) برواية ابن حسنون عن ابن عباس (رضي الله عنه) أربع وخمسون لفظة نسبت دلالاتها إلى القبائل اليمانية، أما ما رواه القاسم بن سلام وثبت مرويًا عن ابن عباس أيضًا فأربع وسبعون لفظة... وقد نص الداجي على أن في القرآن الكريم ستًا وعشرين لفظة حميرية»[٤]. ومن تلك الألفاظ اليمانية والحميرية خمسة ألفاظ نُسبت حينها إلى حضرموت وهي[٥]:

العدد	السورة	الألفاظ القرآنية	رقم السورة	رقم الآية	دلالة ألفاظها
1	آل عمران	رِبِّيُّون	3	146	رجال كثير بلغة حضرموت
2	الإسراء	فَدَمَّرْنَا	17	16	أهلكنا بلغة حضرموت
3	سبأ	مِنْسَأَتَهُ	34	14	عصاته بلغة حضرموت
4	الأحقاف	قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ	46	21	يعني الرمل، الواحد حقف بلغة حضرموت
5	ق	وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ	50	38	أي من إعياء بلغة حضرموت

وورد في كتاب توفيق محمد السامعي التيمي (اللغة اليمنية في القرآن الكريم) جدولًا يحتوي على ما مجموعه اثنان وعشرون ألفًا وستمائة واثنتا عشر لفظة من ألفاظ النقوش اليمنية في القرآن الكريم[٦]. و«هي مأخوذة من المعجم السبئي ومن النقوش اليمنية في بعض كتب النقوش ومن ألفاظ لا زال يتحدث بها بعض القبائل اليمنية من غير المتمدنين إلى عهد قريب»[٧]. ومن تلك الألفاظ ما هو مشترك

بين اللغات العربية الجنوبية القديمة بما فيها لغة حضرموت، وفيها من ألفاظ اللهجة المتداولة اليوم في حضرموت الشيء الكثير. واعتماد المؤلف على المعجم السبئي واضح إلا أنه لم يشر إلى النقوش، ولم يحدد القبائل غير المتمدنة التي أخذ عنها ألفاظ اللغة اليمنية، كما إنه أكثر من الحديث عن اللغة الحميرية التي لم يرد أي شيء عنها من قبل علماء اللغات العربية الجنوبية القديمة، وتجاهل لغات قتبان ومعين وحضرموت.

وكما يقول الأستاذ السامعي التيمي، فإنه قد «عمل مقارنة بين الجذر اللفظي للغة النقوش اليمنية وبين ما زال منها منطوقًا إلى اليوم مع معانيها ودلالاتها في نفس اللغة، وما يقابلها من ألفاظ ومعان وردت في العربية الفصحى المتطورة، ومن ثم ورود هذه الألفاظ والمعاني في القرآن الكريم كأعلى مصدر لغوي عربي موثق ومقدس، يدل دلالة قاطعة على ارتباطها بالبيئة اللغوية العربية المحيطة بها»[٨]. وأهم ملاحظة كما يقول الأستاذ السامعي التيمي هي: «أن كثيرًا من تلك الألفاظ اليمانية كانت من اللغة الجنوبية الغربية وخاصة من مناطق تعز ولحج والجزء الأسفل من إب»، حيث «أكد بعض علماء اللسانيات في اليمن ومن الباحثين الأجانب أصول اللغة اليمنية في هذه المناطق بالذات»[٩].

وعلى الرغم من تمييز بعض الألفاظ العربية التي ربما تعود في الأصل إلى هذه المنطقة أو تلك من الجزيرة العربية أو لتلك القبيلة العربية، إلا أن هناك الكثير من المشترك اللفظي بين سكان الجزيرة العربية، ناهيك عن أن الألفاظ العربية اليوم تعد ألفاظًا مشتركة لكل العرب من الخليج إلى المحيط، ورغم ذلك فإنه يمكن تحديد بعض ألفاظ القرآن الكريم التي ترد في لهجة هذا البلد أو تلك المنطقة العربية، ولربما وردت وترد تلك الألفاظ نفسها في لهجة منطقة عربية أخرى، وبناءً على ذلك فهناك بعض الألفاظ العربية في القرآن الكريم وردت وترد اليوم في لهجة حضرموت، ومنها ما ورد في لغة حضرموت القديمة. ويحتوي الجدول (١) على ألفاظ قرآنية وردت في لغة حضرموت القديمة، بينما يحتوي الجدول (٢) على ألفاظ قرآنية وردت وترد في اللهجة الدارجة اليوم في حضرموت.

جدول (١) ألفاظ قرآنية وردت في لغة حضرموت القديمة

العدد	اللفظ في القرآن الكريم	السورة	رقمها	رقم الآية	دلالة اللفظة القرآني [١٠]	اللفظ في لغة حضرموت	مصدر اللفظ	دلالته
١	بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ	البقرة	٢	٦٩	بقرة شديدة الصُفرة	خمس وشلثي بقرم	النقش (جام ٩٤٩) محمد عبدالقادر بافقيه، آثار ونقوش العلتة، ص٦٧.	خمس وثلاثين بقرة
٢	لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ	البقرة	٢	٧١	غير مذللة بالعمل في الأرض	بأرض ساكلن	النقش بيرن خور روري رقم (١) سرجيس فرانتسوزوف، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الاسلام وبعده، ص٢٤٧.	بأرض ظفار
٣	وإذ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ	البقرة	٢	٥٠	إذ شققنا لكم البحر	وكل آلت ذبحرم ويبسم ومشرقم ومغربم	نص (أبنه) معاهدة التآخي التي عقدت بين ملك الحبشة جدرت وملك حضرموت يدع أب غيلان د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج٧، ص٢٤٣.	وكل آلهة البحر واليابسة والمشرق والمغرب.
٤	لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ	البقرة	٢	٦٨	ليست كبيرة السن ولا صغيرة	سن التبكير	ناصر صالح يسلم حبتور، اليزنيون موطنهم ودورهم في تاريخ اليمن القديم، ص٣٨٦.	كان سن العشرين يُسمى سن التبكير حيث كان يسمح للشباب فيه بالتدريب على القتال والمشاركة فيه.
٥	تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ	آل عمران	٣	٢٦	تؤتي الملك من تشاء من خلقك	العذيلط ملك حضرموت	(جام ٩٢١)، محمد عبدالقادر بافقيه، مصدر سابق، ص٦١.	العذيلط بن عم ذخر ملك حضرموت في المدة من ٢٧٠-٢٧٨م.
٦	لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ	المائدة	٥	٩٥	لا تقتلوا الصيد البري وأنتم محرمون بالحج أو العمرة	صيدن يحمي	لوحة منحوتة على حصاة البرقا غرب منطقة ريبون، عبدالرحمن جعفر بن عقيل، قنيص الوعل في حضرموت، ص٤٤.	تصور اللوحة صيد الوعول والأساليب والتقنيات المستخدمة قديمًا في ذلك في حضرموت.

العدد	اللفظ في القرآن الكريم	السورة	رقمها	رقم الآية	دلالة اللفظ القرآني	اللفظ في لغة حضرموت	مصدر اللفظ	دلالته
٧	مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ	المائدة	٥	١٠٣	السائبة هي الناقة التي إذا بلغت سنًا معينًا تترك لأصنامهم	وسيبن ومنطقته ومدنه أثخ وميفع ورثح.	نقش النصر GLA1000 د. حسين عبدالله العمري وآخرون، في صفة بلاد اليمن عبر العصور، ص١٥.	نقش يذكر غزوات المكرب السبئي كرب إل وتر بن ذمار علي في منتصف القرن السابع قبل الميلاد التي وصلت إلى مثاوي قبيلة سيبان في غرب حضرموت.
٨	لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ	الأنعام	٦	٧٠	شراب متناهي الحرارة	ذات حميم	عز الدين كشار، لمحات من التاريخ اليمني القديم، ص٣٧.	وصف لآلهتهم الشمس بمعنى المحرقة أو شديدة الحرارة
٩	فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ	الأنفال	٨	٥٧	إذا قابلت هؤلاء الناقضين لعهودهم في الحرب	التثقيف (هـ ت ق ف)	ناصر صالح يسلم حبتور، مصدر سابق، ص٣٨٦.	كان سن السابعة والثلاثين هو سن التدريب على قيادة المعارك في الحروب.
١٠	وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ	التوبة	٩	٩٩	ومن سكان البادية من يؤمن بالله	سود عرين	نقش المعسال في السوادية محافظة البيضاء (نقش حضرمي).	سيد الأعراب أي قائد جيش الأعراب.
١١	لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا	يونس	١٠	٨٧	لقومكما بيوتًا لعبادة الله	وبرا بيتن شقر	(جام ٩٤٩) محمد عبدالقادر بافقيه، مصدر سابق، ص٦٧.	أعاد بناء بيت شقر قصر الملك في شبوة.
١٢	وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا	هود	١١	٧٢	وهذا زوجي بلغ سن الشيخوخة	وأبعل يندض ومطرهن	(ريبون ٤ لعام ٨٩م رقم ٢٢١) أفرام لوندن، النظام الاجتماعي في ريبون من واقع نقوش معبد ميفعن، نتائج البعثة اليمنية السوفييتيه لعام ١٩٨٩م، ص٦٢.	أعيان أو سادة منطقتي يندض ومطرهن في ريبون.
١٣	لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ	الرعد	١٣	٢٢	العاقبة المحمودة	عاقب قنا	النقش (C738) د. محمد عبدالقادر بافقيه، في العربية السعيدة، ج٢، ص٩٣.	نائب الملك في ميناء قنا.

العدد	اللفظ في القرآن الكريم	السورة	رقمها	رقم الآية	دلالة اللفظ القرآني	اللفظ في لغة حضرموت	مصدر اللفظ	دلالته
١٤	وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ	الشعراء	٢٦	١٢٩	حصونًا وقصورًا	محفد هرن بمصنعة عر	النقش (جام ١٠٠٧) د. محمد عبدالقادر بافقيه وآخرين، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، ص٣٣٧.	برج هرن بمصنعة على رأس جبل
١٥	وَمَا لَهُم فِيهِمَا مِن شِرْكٍ	سبأ	٣٤	٢٢	وليس لهم شرك فيها مع الله	ش ر ك ر ي ب ن	النقش (رقم ٦٥) ريبون ١٤ لعام ١٩٨٩م، أفرام لوندن، مصدر سابق، ص٦٠	شرك مصطلح حضرمي قديم فسره علماء الآثار في البعثة اليمنية السوفييتية طائفة أو شعب.
١٦	وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ	فُصلت	٤١	٤٦	وما ربك أيها الرسول بظلام لعبيده	أسدم ثلعن بن قوهم عبد العذيلط ملك حضرموت	النقش بيرن خور روري رقم (١)، مصدر سابق، ص٢٤٧	مولى العذيلط ملك حضرموت
١٧	وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ	ق	٥٠	١٠	النخل طوال عاليات	أشجار نخيل مقدمة نذور للإله سين	ريبون ١٤ لعام ١٩٨٩م، رقم (٣٧) و(٤٧)، أفرام لوندن، مصدر سابق، ص٦٤	النخيل من ضمن النذور التي كانت تقدم للآلهة في العصور القديمة
١٨	كَأَنَّهُم خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ	المنافقون	٦٣	٤	كأنهم خشب مسندة لا يفهمون شيئًا ولا يعونه	المُسنَّد	قلب ميخائيلوفتش باور، النقوش، نتائج البعثة اليمنية السوفييتية لعام ١٩٨٤م، ص٤١.	ألواح حجرية منقوشة بالإهداءات كانت تقدم للآلهة القديمة توضع مسندة إلى جدران المعابد في حضرموت، ومنها جاء اسم خط المسند الخط الرسمي والديني في النقوش القديمة
١٩	إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ	الانشقاق	٨٤	١٤	أنه ظن أنه لن يرجع للحياة بعد موته	حور فذتهن	ريبون ١٤ لعام ١٩٨٩م، رقم (٢٢١)، أفرام لوندن، مصدر سابق، ص٦٢	فئة الأحرار في منطقة فذتهن في ريبون
٢٠	وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ	الحجرات	٤٩	١٣	شعوبًا كثيرة وقبائل منتشرة	شعبن حضرمت	النقش جام ٦٤٣ س٦، سرجيس فرانتسوزوف، مصدر سابق، ص٤٥	شعب حضرموت

جدول رقم (٢) ألفاظ قرآنية ترد في اللهجة الدارجة اليوم في حضرموت:

العدد	اللفظ في القرآن الكريم	السورة	رقمها	رقم الآية	دلالة اللفظ في القرآن الكريم	اللفظ في لهجة حضرموت	دلالته
١	مِن بَقْلِهَا	البقرة	٢	٦١	بقولها	البقل	الفجل
٢	وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا	البقرة	٢	٦١	ثومها	الفوم	الثوم
٣	فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا	البقرة	٢	١١٥	فحيثما تتوجهون	ولى	ذهب، مات
٤	فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ	البقرة	٢	١١٥	فأنتم تستقبلون الله تعالى	ثم	هناك
٥	فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ	البقرة	٢	١٨٥	من حضر منكم شهر رمضان وهو مقيم صحيح	شهد الشهر	رأى الهلال
٦	فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ	البقرة	٢	٢٣٢	فلا تمنعونهن	عَضَلَ، يعضُل	عطل، يعطل
٧	فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ	البقرة	٢	٢٦٥	فإن لم يصبه مطر غزير أصابه مطر خفيف	الطل	الندى الذي ينزل مع برودة الجو في المساء
٨	وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ	آل عمران	٣	١٣٤	والمانعين غضبهم	كظم غضبه	سيطر على شعوره بالغضب ولم يبديه
٩	أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ	المائدة	٥	٩٦	صيد الأسماك والأحياء البحرية	الصيد	السمك عند أهل السواحل في حضرموت
١٠	آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ	الأعراف	٧	١٥٧	عظموه ووقروه	عزر، يعزر، معزر	المعزر هو المبهدل والتعزير هو البهدلة
١١	وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ	الأعراف	٧	٢٠٠	إذا أحسست بوسوسة أو تثبيط	نزغ، ينزغ	سحب، يسحب من لهجة صيادي الأسماك وأهل السواحل
١٢	يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ	الأنفال	٨	١	يسألونك عن الغنائم	نَفَلَ، ينفُل، نفلَة	رمى يرمي، والنفلة هو الذي يُرمى
١٣	أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ	التوبة	٩	١٩	أجعلتم أيها القائمون على سقاية الحاج	السقاية، سقايات	المبنى الذي يحتوي على ماء السبيل
١٤	وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً	يونس	١٠	٨٧	وصيروا بيوتكم متجهة إلى القبلة (بيت المقدس)	القِبلَة	اتجاه القبلة إلى بيت الله الحرام في مكة، والقبلة هو اتجاه الغرب
١٥	وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا	يوسف	١٢	٣١	وهيأت لهن محلًا فيه فراش ووسائد	الدكية، التكية، المدكا، المتكا	وسائد غليظة يُستند عليها عند الجلوس
١٦	اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ	يوسف	١٢	٨٧	اذهبوا فتعرفوا من أخبار يوسف وأخيه	تحسس	استمع واسأل دون أن تلفت انتباه أحد
١٧	لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ	يوسف	١٢	٩٤	لولا أنكم تجهلونني وتنسبون لي الخرف	فَنَدَ، يُفنِد	قرأ، وضح، فرز

العدد	اللفظ في القرآن الكريم	السورة	رقمها	رقم الآية	دلالة اللفظ في القرآن الكريم	اللفظ في لهجة حضرموت	دلالته
١٨	أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ	النحل	١٦	٤٥	أن يخسف بهم الأرض	خسف، يخسف	الخَسَف: الخذلان كقولهم: ربك خسف بالفراعين، والخُسُف هو الإفراط فيما لا ضرورة له
١٩	وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي	طه	٢٠	١٨	واخبط بها الشجر ليسقط ورقها لغنمي	هشّ، يهش	يلوح الراعي بعصاه ليوجه أغنامه حيث يريدها أن تذهب
٢٠	قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى	طه	٢٠	٣٦	قد أعطيناك ما طلبت يا موسى	السُول	هو ما تقتضيه العادة أو العُرف من امكانيات ووجاهة وفقًا لقولهم: مالك سولك وبوك حي
٢١	إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ	الأنبياء	٢١	٧٨	غنم انتشرت ليلًا في حرث الآخر فأفسدته	نفش، ينفش	فَكَكَ، يُفَكِّك، نشر، ينشر
٢٢	وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ	المؤمنون	٢٣	٢٠	الدهن الذي يدهن به ويؤتدم	صبغ	الدهن الذي يؤتدم به وهو الإدام السائل
٢٣	وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ	المؤمنون	٢٣	١٠٤	تقلصت شفاههم العليا والسفلى على أسنانهم من شدة العبوس	كلح، كلَاحَة	جري، جرأة
٢٤	فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ	المؤمنون	٢٣	١١٣	الذين يعنون بحساب الأيام والشهور	العَادَة	مصطلح (العادة) بالنسبة للمسائل الزراعية في وادي دوعن يعني الاحتكام لذوي الخبرة والمعرفة[١١]
٢٥	إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا	الفرقان	٢٥	٦٥	إن عذاب جهنم كان دائمًا ملازمًا لمن مات كافرًا	الغرام	الجنون
٢٦	فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ	الشعراء	٦٠	٦٠	ساروا في أثرهم وقت شروق الشمس	المُشرّق	المتجه شرقًا
٢٧	وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا	الأحزاب	٣٣	٢٨	أطلقكن طلاقًا لا ضرار فيه ولا إيذاء	سرح	خرج للعمل أو السفر باكرًا في الصباح، والسارحة هي العُرف أو العادة
٢٨	وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ	الأحزاب	٣٣	٣٣	واثبتن في بيوتكن	القرار	الفئة الوسطى في المجتمع الحضرمي وهم أهل البلاد المستقرين فيها منذ القدم

العدد	اللفظ في القرآن الكريم	السورة	رقمها	رقم الآية	دلالة اللفظ في القرآن الكريم	اللفظ في لهجة حضرموت	دلالته
٢٩	وَمَن يَزِغ مِنهُم	سبأ	٣٤	١٢	والذي يميل	زَاغ	مال
٣٠	وَمَا لَهُم فِيهَا مِن شِركٍ	سبأ	٣٤	٢٢	وليس لهم فيها شرك مع الله	الشِرك	المشاركة كشراء ذبيحة وتوزيع لحمها للمشاركين
٣١	وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ	فاطر	٣٥	٢١	لا يستوي الظل ولا الريح الحارة	الحرور	شدة الحرارة
٣٢	تِجَارَةً لَن تَبُور	فاطر	٣٥	٢٩	تجارة لن تكسد	بار، يبور	كسد، يكسد، والباير هو الكذاب
٣٣	وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ	فاطر	٣٥	٣٥	لا يصيبنا فيها تعب	لغب، يلغب	تعب، يتعب
٣٤	طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَيَاطِين	الصافات	٣٧	٦٥	ثمرها كريه المنظر كأنه رؤوس الشياطين	الطلع	خريف النخل في أول ظهوره
٣٥	فَأَقبَلُوا إِلَيهِ يَزِفُّونَ	الصافات	٣٧	٩٤	فأقبلوا إليه مسرعين	الزف	من زَفَ كزفة العروسة من بيت أبوها إلى بيت زوجها، وقبله كان زف العريس صباحًا في شوارع المدينة أو القرية، ومنه اليوم الزف برؤوس الوعول في شوارع مدن وقرى ووادي حضرموت
٣٦	لَتَمُرُّونَ عَلَيهِم مُصبِحِينَ	الصافات	٣٧	١٣٧	لتمرون على منازلهم في وقت الصباح	المُصبِّح	القادم صباحًا
٣٧	عَذَابَ يُخزِيهِ	الزمر	٣٩	٤٠	يذله ويهينه	خزى، يخزي	رفض، يرفض، أساء، يسيء، أهان، يهين
٣٨	مَقَالِيدُ السَمَوَاتِ وَالأَرض	الزمر	٣٩	٦٣	مفاتيح خزائن الخيرات في السموات والأرض	قلد، يقلد	أغلق، يغلق
٣٩	بِغَيرِ سُلطَانٍ	غافر	٤٠	٣٥	بغير حجة ولا برهان	السلطان	حاكم، ملك
٤٠	لَبَغَوا فِي الأَرض	الشورى	٤٢	٢٧	لطغوا في الأرض	بغى، يبغي	أراد، يريد، طلب، يطلب
٤١	لَا يُغنِي مَولًى عَن مَولًى شَيئًا	الدخان	٤٤	٤١	لا ينفع قريب قريبه ولا صديق صديقه	المولى	صاحب الشيء ومالكه، والمولى هو الله سبحانه وتعالى
٤٢	مَا كُنتُ بِدعًا مِّنَ الرُّسُل	الأحقاف	٤٦	١٩	ما كنت أول رسول يبعثه الله	البَدَع	هو البدء، ابتداء الشيء
٤٣	فَصَكَّت وَجهَهَا	الذاريات	٥١	٢٩	فلطمت وجهها	صك	أغلق الباب أو النافذة، لطم

العدد	اللفظ في القرآن الكريم	السورة	رقمها	رقم الآية	دلالة اللفظ في القرآن الكريم	اللفظ في لهجة حضرموت	دلالته
٤٤	مَرَجَ البَحرَين	الرحمن	٥٥	١٩	خلط الله البحرين العالح والعذب	المرجة	سهرة حنا العريس في تريم يقال لها المرجة[١٩]
٤٥	أغدُو على حرثِكُم	القلم	٦٨	٢٢	أخرجوا مبكرين على حرثكم	غدو	تقال عند الحركة إلى مكان ما
٤٦	نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى	المعارج	٧٠	١٦	تفصل جلدة الرأس فصلًا شديدًا	الشوي	البطن
٤٧	كَثِيبًا مَّهِيلًا	المزمل	٧٣	١٤	رملًا سائلًا متناثرًا	الكثيب	الرمل
٤٨	أن يُفعَلَ بها فَاقِرَةٌ	القيامة	٧٥	٢٥	أن ينزل بها عقاب عظيم وعذاب أليم	فاقرة	ضرب أو عقاب شديد
٤٩	وَعِنَبًا وَقَضْبًا	عبس	٨٠	٢٨	وعنبًا وقتًا رطبًا ليكون علفًا لدوابهم	القضب	البرسيم
٥٠	وَالعَادِيَاتِ ضَبحًا	العاديات	١٠٠	١	العاديات هي الخيل التي تجري، وضبحًا هو صوت نفسها المسموع من شدة الجري	الضبح	الضجر

إن ما ورد بأعلاه ربما لا يشتمل على كل الألفاظ القرآنية التي وردت في لغة حضرموت، والتي ترد اليوم في لهجتها العادية، وإنما أوردناه للدلالة على ورود ألفاظ قرآنية في لغة حضرموت ولهجتها العامية، وعلى المشترك اللفظي بين لغة حضرموت ولهجة أهلها العامية، وعلى المشترك اللفظي بين لغة حضرموت ولهجتها العامية واللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم.

المراجع:

١- بافقيه: محمد عبد القادر، آثار ونقوش العقلة - دراسة ميدانية لأحد المواقع الأثرية بالقرب من شبوة في منطقة حضرموت، القاهرة، ١٩٦٧م.
٢- باور: غليب، النقوش (نتائج أعمال البعثة اليمنية السوفييتية لعام ١٩٨٤م)، المركز اليمني للأبحاث الثقافية، سيئون.
٣- بن عقيل: عبد الرحمن جعفر، قنيص الوعل في حضرموت، ٢٠٠٤م.
٤- التيمي: توفيق محمد السامعي، اللغة اليمنية في القرآن الكريم، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٢م.
٥- جماعة من علماء التفسير: المختصر في تفسير القرآن الكريم، مركز تفسير الدراسات القرآنية، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٣٧.
٦- الحامد: صالح، تاريخ حضرموت، الجزء الأول، مكتبة الإرشاد، جدة.
٧- الخنبشي: سالم عمر الخضر، بن بدر: عبده عبدالله، نظام الري التقليدي بالسيول في دوعن، مطابع المنار الحديثة، بدون تاريخ.
٨- سحاب: فكتور (د)، إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، مايو ١٩٩٢م.
٩- الصبان: عبدالقادر محمد، عادات وتقاليد بالأحقاف، مديرية سيئون، منشورات المركز اليمني للأبحاث والآثار والمتاحف م/ حضرموت، مسحوب على آلة الرونيو، بدون تاريخ.
١٠- علي: جواد (د)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء السابع، دار العلم للملايين، بيروت - مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٦م.
١١- غرانتسوزوف: سرجيس (د)، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، تقديم وتعريب د. عبدالعزيز جعفر بن عقيل، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، ٢٠٠٤م.
١٢- كشار: عز الدين، لمحات من التاريخ اليمني القديم، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن، ١٩٨٤م.
١٣- لوندن: أفرام، النظام الاجتماعي في ريبون من واقع نقوش معبد ميفعن، نتائج أعمال البعثة اليمنية السوفييتية لعام ١٩٨٩م، المركز اليمني للأبحاث الثقافية، سيئون.
١٤- الهلالي: هادي عطية مطر (د)، دلالة الألفاظ اليمانية في بعض المعجمات العربية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٨م.

الهوامش:

١. انظر نص النقش: محمد عبد القادر بافقيه، آثار ونقوش العقلة، ص ٦٠.
٢. إيلاف قريش، ص ١٩٠.
٣. صالح الحامد، تاريخ حضرموت، ج ١، ص ٩١.
٤. ص ١٣.
٥. المصدر السابق، ص ١٤، ١٦، ١٨.
٦. ص ١٢٢ - ٢٠٤.
٧. اللغة اليمنية في القرآن الكريم، هامش ص ١٢٢.
٨. المصدر السابق، ص ٢٠٤.
٩. المصدر السابق، ص ٢٠٧.
١٠. في دلالة اللفظ القرآني تم الاعتماد على تصنيف جماعة من علماء التفسير المختصر في تفسير القرآن الكريم.
١١. سالم عمر الخضر الخنبشي وعبده عبدالله بن بدر، نظام الري التقليدي بالسيول في دوعن، ص ١٧٦.
١٢. عبدالقادر محمد الصبان، عادات وتقاليد بالأحقاف، ص ٩٠.

54
العدد (8)
إبريل
يوليو
2018م

(٤ - ٤)

ملاحظات على :

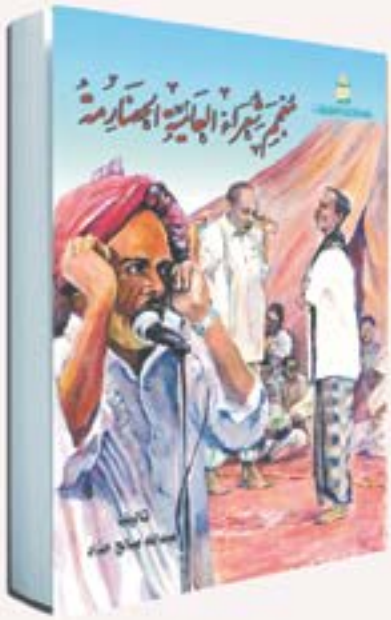

مُعْجَمُ شُعَرَاءِ العَامِيَّةِ الحَضَارِمَةِ

تأليف: عبدالله صالح حداد

القسم الثالث: الملاحظات الشعرية

المقدمة:

تمثل الملاحظات الشعرية العصب الأساسي للمعجم، فالمادة الأولى للمعجم هي الشعر، والشعر يتأثر كثيرًا بأي تغيير في العبارة، سواءً بالزيادة أم بالنقص أم بالتقديم والتأخير، وربَما يتحوّل بيت شعري بشيء من هذا التغيير تحولًا يسلبه جماليته بل يكسبه ثقلًا، ويخرجه من دائرة الشعر، ويدخله في دائرة الكلام الممل.

وقد جنى كثير ممّن تصدّوا لجمع الأشعار الشعبية، أو الكتابة عنها، جناية كبيرة، وكنت أتمنّى لأخي عبدالله أن ينزّه معجمه من الوقوع في ما يعيب الشعر، سواءً أكان خللًا وزنيًا أم خللًا في القافية، أم اختيارات لا تسري فيها روح الشعر الدفاقة.

قسمت الملاحظات الشعرية على أقسام ثلاثة: منها ما يختص بالأوزان وخللها، ومنها ما يختص بالقافية، ومنها ما يتصل بنوعية الشعر وقيمته الدلالية.

ثانيا: القوافي:

المعروف أن الشعر يكتسب جماله من لغته وأوزانه وقوافيه، ويأتي كثير من الشعر العامي بالتزام حرفين في الشطرين، حرف لكل شطر، وهو أمر لا يحتاج انتباهًا كبيرًا، غير أنّ عددًا من النماذج الشعرية أغفل فيها الباحث هذين الشرطين، ففي مثال لشاعر نكرة اسمه (أبو سالم) اتسع له معجم حداد فأدخله في معجمه، ولو وضع أسسًا صحيحة لدخول الشعراء لما اتسع، يقول:

قال بو سالم صبوحي خستعشر قوصرة

والضحى سبعة عنود

بالقي له دهن صح مول المعصرة

يا سخيفين العقول(١٥)

والواضح أن الشاعر التزم بحرفين، حرف في الشطر الأول وهو (الراء) وآخر في الشطر الثاني وهو (اللام)، ولم ينتبه الباحث إلى تغير الحرف في البيت الأول فجاء الشطر الثاني مختتمًا بحرف (الدال)، وربما كانت الكلمة المناسبة (عجول)، كما لم ينتبه إلى اختلال الوزن في الشطر الأول من البيت الثاني، وكان على الباحث الإشارة إلى هذا الخلل لو أنه أراد أن يبقي البيتين على حالهما، أو أن يصححهما ويشير إليهما في الهامش.

ويغفل الباحث أحيانًا فيورد أبياتًا مختلفة الحروف من غير أن يشير إلى ذلك، أو يضع خطًا فاصلًا بينها كما جاء في شعر الشاعر سالم سعيد باعيسى،

أ.د. عبدالعزيز سعيد الصيغ

فقد أورد أبياتًا من بحر المربوع، منها هذان البيتان:

يهل حافتي قوموا شي المحاسب بحاسب

لا تخلون صنبوتي على دقف وقشار[١٥٨]

فرنا شيخ بن محسن بلحية وشارب

عاد ما شي ظهر منه وبا قول هيدار

ثم وصل بهما ببيتين آخرين هما:

خمستعشر نفر بحار فوق الصليفة

والسفينة كذا تلعب من اجنوب واطراف[١٥٩]

كزوا النار خلوها تشعل بليفة

والتوقاف ما شي فايدة في التوقاف

والأبيات مجموعها ستة يجمعها بحر، ولكن تفرق بينها القافية، فالأربعة الأولى على حرفي الباء في الشطر الأول والراء في الشطر الثاني، والبيتان الموصولان بهما على حرفي الفاء في الشطر الأول والفاء أيضًا في الشطر الثاني، وواضح أنها ليست من قصيدة واحدة، ولكن الجمع بينها جعلها كأنها كذلك.

ومن هذه الغفلة ما جاء في بيت الشاعر سالم عبود بانبوع:

ايش هان سالم وعز الغير شي موجب

وإلا الشباب الدويلة قد لها تشعيق[١٦٠]

وهو من مساجلة شهيرة بينه وبين الشاعر أحمد بكير، أولها:

على البياض القلم يجري به الكاتب

علي محمد صديقي من بني صديق[١٦١]

والبيت المذكور هكذا:

ايش هان سالم وعز الغير شي حاجب

وإلا الشباب الدويلة قد لها تشعيق[١٦٢]

والأبيات بها قافيتان كما هو الحال في أكثر الشعر العامي، قافية تتصل بالشطر الأول وقافية بالشطر الثاني؛ حيث إن لكل منهما رويًا، وقد جاءت قافية الشطر الأول مؤسسة في كل الأبيات، والتأسيس: «ألف بينها وبين الروي حرف واحد متحرك»[١٦٣]، وقافية الشطر الثاني مردوفة، يقول أبو حازم القرطاجني: «أما حرف الردف فليس بينه وبين الروي حاجز، وهو يكون تارة ألفًا وتارة واوًا وتارة ياءً»[١٦٤].

وقد جاء البيت غير مؤسس، أي ليس في قافيته في الشطر الأول ألف قبل الروي بحرف (موجب)، والحرف الذي حل محل الألف (واو) مما أوجد هذا العيب في القافية، الذي يسمى (سناد التأسيس)[١٦٥].

مؤلف الكتاب عبدالله صالح حدّاد

ومن عدم التنبه إلى القافية ما جاء من أبيات منسوبة إلى الشاعر سعيد سالم باصالح، تبدأ بقوله:

يا سقي الظمیان من ضرع السماء واسباطها

ونقول للأشياء بإذن الله كوني فتكون

وهي خمسة أبيات التزم الشاعر فيها باللام في الشطر الأول والنون في الشطر الثاني، ثم جاء البيت الخامس على النحو الآتي:

وهبضتنا بندر الخامي نشوف الظاهرة

ونشوف في الخضرة وفي الأمواه من بارد وحار

ولا أدري كيف لم ينتبه الباحث إلى الاختلاف الكبير بين جنس البيت والأبيات قبله، وربما الذي سوّغ له ذلك أنها من بحر المثمون[١٦٦].

ومما يمسّ القافية التقديم والتأخير كما حدث في البيت الآتي للشاعر صالح الزبيدي، وهو من بحر مجزوء المثمون:

والبيض ما بعشقتكم يا أهل النوابر

يعشقن واحد ما يحب القيل والقال[١٦٧]

والبيت كما هو واضح مردوف بالألف، في حين أن الأبيات التي جاءت بعده مردوفة بالياء، والردف كما تقدم ألف أو ياء أو واو قبل حرف الروي، وهو مما يجب أن يلتزم به الشاعر، والبيت بعده.

إلا إن وقع قرشه يدق حاضر بناظر

يغدين له مثل الكحل في العين والميل

ممّا يفهم منه أن الخلل تم بسبب تقديم كلمة على كلمة، والصحيح: القال والقيل.

ومن تغيير الكلمة والإتيان بها مخالفة للقافية ما حدث في شعر الشاعر صالح ربيع بلسود من بحر المثمون:

الغدر فيهم والخيانة والبلابل والنمم

واهل المقر كل من كلا أكله فرش فرشه ونام

ولي عليهم قوم عطابة ورعاية غضم

والراعية في قلقلة والذيب يوكل في الغنم[١٦٨]

والملاحظة تخص البيت الثاني فقد جاءت قافيته مخالفة للبيت الأول المردوف بالألف، (ونام) والمؤكد أن البيت جاء مردوفًا هكذا (الغنام)، ولكن عدم تنبه الباحث جعله يغفل عن هذا الجانب الدقيق.

وملاحظة أخرى أن البيت في شطره الأول ينتهي بكلمة (غنم) وليس (غضم) وهي كلمة تقتضيها تقييد القافية كما يقتضيها المعنى.

ومما جاء غير مراع فيه أحكام القافية أبيات للشاعر عبدالله باعمرو من المثمون، وقد كتبت الأبيات بطريقة مخالفة لما هو شائع والأبيات:

ذا فصل والثاني تفكر في السماء ونجومها

واسري مع الوهنات في ضوء الزواهر والنجوم

لك فكر ومعاني تلقط من خيار اقومها

وروز بالبدات شفها اربعة تحتك قوم

وسعفت يا الخاني معاهن مقربات اعظومها

هيهات في هيهات هزن يا قويات العظام[١٦٩]

والأبيات مردوفة بالواو في شطري كل بيت، والبيت الثالث غيرت كلمة قافيته من (عظوم) إلى (عظام)، والبدو يفخمون الألف أحيانًا فتبدو أشبه بالواو، كما ينطق بعضهم الواو مسلوبة التفخيم فتبدو كالألف فيقولون بدلًا من ثور (ثار)، وقد تحدث بامطرف عن هذه الظاهرة قائلًا: «وبعض البادية تقلب الواو ألفًا كقول الشاعر سعيد بن سالم باتهيم: لا انته جمل تحدر ولا انته ثار»(١٧٠).

البدو يفخمون الألف أحيانًا فتبدو أشبه بالواو، كما ينطق بعضهم الواو مسلوبة التفخيم فتبدو كالألف فيقولون بدلًا من ثور (ثار)،

ومن عدم احتفاء الباحث بالقافية واعتباراتها، أبيات أربعة للشاعر علي أبوبكر السكران جاءت هكذا:

يا ظبي عيديد يا فرد عصره يا كريم يا امجد
ذكرك لنا عيد وحيكم ذخر لنا ومقصد
انت في الملاسيد يا كثر جوهر فاخر منضد
يا مطوّق الجيد يامن بحسنه في الوجود ملخر(١٧١)

وواضحة مخالفة البيت الرابع في حرف الروي الذي لا ندري هل هو هكذا (الراء) كما قاله الشاعر، أو أنه تغير بفعل أخطاء النقل والرواة، فتحول الدال إلى راء.

ومن الاختلال في القافية ما جاء في الأبيات التي ذكرها للشاعر الشهير حداد، التي جاء الشطر الأول منها على بحر السريع في الفصحى، والأبيات هكذا:

شل بالغناء ما اليوم يوما سعيد
إن الصفاء قد عاد عيده
والعيد وافى بطالع سعيد
وعيشته عيشة رغيدة
الله يقرب وصل ذاك الحبيب
لي شب في قلبي وقيده(١٧٢)

والشطر الأول من البيت الثاني يستقيم وزنًا بتغيير (وافى) إلى (وافانا)، والبيت الثالث خالف الشطر الأول فيه روي الأشطر في البيتين الأول والثاني، ويستقيم خلل القافية لو غُيّرت الكلمة الأخيرة منه بحيث يكون هكذا (الله يقرب وصل ذاك البعيد).

ومن السهو الذي يؤدي إلى تغيير حرف بدل حرف ويؤثر على قافية البيت ما حدث في أشطر من بحر البسيط للشاعر محمد عوض بافضل، جاءت على حرف (الدال) على النحو الآتي:

الحمد لله على الاطلاق والتغيير
على الرخاء والنقس والضيق والتشديد
حكمه مقدر على خلقه بلا تفنيد
الصبر يا ابن الشيوخ القادة الجاويد
والله يخلف عليكم في كبيش العيد(١٧٣)

وواضح أن الباحث لم ينتبه إلى الراء في الشطر الأول واختلافها عن بقية الأشطر، ولو تأمل المعنى لكان كافيًا في تصحيح الكلمة؛ لأن الذي يقابل الإطلاق هو التقييد لا التغيير.

ثالثًا: التذوق الشعري:

كما أن الكتابة هي اختيار تنعكس فيها ثقافة الكاتب، وتذوقه لفنونها، سواء أكانت نثرية أم شعرية، فإن هذا العمل تبدو فيه ثقافة الكاتب وتذوقه الشعري، ويمكننا من خلال الشعر الذي حفل به المعجم أن نأخذ فكرة عن مزاج الكاتب الشعري، وذائقته الشعرية، وميوله فيه، ولا شك أن من قرأ المعجم سيكوّن صورة شعرية عن المؤلف، فالشعر الذي فيه هو اختيارات المؤلف، وهي مرتبطة بمختارها.

الاختيارات الشعرية:

والاختيارات الشعرية تنبئ عن ثقافة الشاعر، وميوله الشعرية، وهي هنا ليست مجرد اختيارات ذاتية كما هو الحال في كتب الاختيارات، وإنما هي اختيارات ترتبط بشعراء، وتقديم صورة لكل واحد منهم، ولذلك فالجانب الذاتي للاختيار يأتي في الدرجة الثانية، والجانب الموضوعي يأتي في الدرجة الأولى، والجانب الموضوعي يقتضي أسسًا يتمّ الاختيار عليها.

فما الأسس التي أقام حداد اختياراته عليها؟ لقد جاء في المقدمة حديث عن الاختيار كما تقدم حيث قال: «أما النماذج التي وردت منسوبة لأصحابها فقد اخترت أو كلفت على اختيارها إذا لم أجد غيرها، أما هذا الشاعر أو ذاك وظنّي أنها تبين أهدافه من قرض الشعر»(١٧٤)، وهي عبارة لم يوضح فيها المؤلف سبب الاختيار، وعبارته (كلفت على اختيارها) يمكن أن تنطبق على من لم يجد له شعرًا أو ضاع شعره، ولكن ما هو المقياس لمن له شعر وفير؟ أما عبارته (وظنّي أنها تبين أهدافه من قرض الشعر) فلا توضح أيضًا سببًا للاختيار، ونخرج من هذا أن المؤلف لم يمتلك رؤية واضحة في اختياراته الشعرية، وهو ما يتضح في المعجم.

لم يُعْنَ المؤلف بالاختيارات الشعرية العناية الكافية، وهو ما أفقد معجمه جانبًا مهمًا من عناصر القوة والثراء، فقد امتلأ المعجم بالأشعار الباردة، التي تخلو من الدفق الشعري، فضلًا عن أن عددًا كبيرًا من الشعراء لم يذكر لهم بيتًا واحدًا، واكتفى بالإشارة إلى وجود أشعار لهم، ويمكن تعداد كثير من الأمثلة تأكيدًا على ذلك، فالشاعر عبدالقادر الشعيرة، الذي يقول عنه إنه شاعر مجيد يذكر له الأبيات الآتية:

هذي وصوف الحماقة واحد يطير بقوم
اذا تكلم زعق وماء فض العتوم
واهل المجالس رفق لو هي قيامة تقوم(١٧٧)

والشطر الأول من البيت الأول لم يلاحظ الكاتب أنه مختلف القافية عن الأشطر الأولى من الأبيات التي تنتهي بقاف، وكان ينبغي أن تكون الكلمة (الحمق) لا الحماقة.

لم يُعْنَ المؤلف بالاختيارات الشعرية العناية الكافية، وهو ما أفقد معجمه جانبًا مهمًا من عناصر القوة والثراء، وقد امتلأ بالأشعار الباردة

ومن ذلك أبيات ذكرت للشاعر أحمد بن محمد القانص النهدي، الذي قال عنه الباحث: «وهو من شعراء القصيد المشهورين(١٧٨)» ثم يأتي بالنموذج الذي يكسر هذا الوصف؛ إذ يقدّم الأبيات الآتية:

يا سين ميا ألف هاء
أبدي إليه توسلي ودعائي
يا من إذا قد قلت كن كان الذي
ردته وقدرته من الاشياء
يا مجري الانفاس بل محصيها
وارزاقها من سائر الأنحائي(١٧٧)

والكلمة الأخيرة هكذا كتبت بياء في آخر الكلمة لا داعي لوجودها، والأبيات صورة من صور البعد عن الإجادة، فضلًا أن يقدم صاحبها بأنه مشهور. والشطر الأول من البيت الأول بادي النقص، والخلل في الأبيات محتويها من أطرافها.

ويتصل بحديث الاختيارات الشعرية الإيتاء بأشعار غير مرتبة الأبيات؛ بحيث تبدو فاقدة الجودة، أو عدم ذكر مناسباتها، وهي مشهورة يتحدث بها كثير من الناس، أو ذكر نماذج لا تقدم الشاعر في صورته المعهودة، وترك أشعاره التي أيضًا تتردّد بين الناس، والأمثلة عديدة منها شعر الشاعر باحريز.

ومن الاختيارات الشعرية التي تدلل على عدم العناية بالجودة، الأبيات التي ذكرها للشاعر عبيد بن مشيراق(١٧٨) وكذلك المثال المذكور للشاعر عبيد باجبير(١٧٩)، والأبيات التي ذكرها لصالح الشعموطي(١٨٠)، والأبيات التي ذكرها للشاعر عمر حميد، وهي مليئة بأخطاء الوزن والقافية(١٨١)، والأبيات التي ذكرها للشاعر عوض باصالح(١٨٢).

ومما يتصل أيضًا بالاختيارات العناية بالشعر وتقديمه في صورته الصحيحة، فالإخلال به يؤدّي إلى الإخلال بالمعنى؛ إذ يحدث كثيرًا أن تغير أبيات الشعراء بسبب ضعف الذاكرة فتبدل كلمة مكان كلمة، ويبقى البيت على حاله من الإيقاع والوزن، ولكن المعنى يتغير ويتشوه، كالذي حدث في البيت الآتي للشاعرة خديجة علي الحبشي:

لا شفت لا زينهن بارح في العشق طيبة(١٨٣)

وقد أبدل الحرف (ألا) بالضمير (نا) الذي هو (أنا) والشطر تصحيحه هكذا:

لا شفت نا زينهن بارح في العشق طيبة

وختامًا هذه ملاحظات على (معجم شعراء العامية الحضارمة) لمؤلفه الأستاذ عبدالله صالح حداد، وقد بذل فيه الباحث جهدًا، أصاب في كثير، وزلّت به القدم في مواضع، نرجو أن يتلافى هذه الزلّات في الطبعات القادمة، ونتمنى له التوفيق في أعمال آتية.

الهوامش:

١٥٧) المعجم، ص٢٤.
١٥٨) يهل بمعنى: يا أهل، وكان ينبغي أن يكتبها الباحث هكذا (يا أهل).
١٥٩) المعجم، ص٨٣.
١٦٠) المعجم، ص٩٢.
١٦١) شاعر المكلا القديم، وليس (القدير) كما جاء في (المعجم)، ص٦٧.
١٦٢) ينظر: الميزان، ص٧٦.
١٦٣) العروض القديم، أوزان الشعر العربي وقوافيه، د. محمود علي السمان، دار المعارف، مصر، ط٢، ص٢٢٣.
١٦٤) الباقي من كتاب القوافي، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: د. علي لغزيوي، ط١، ١٤١٧هـ، ص٤٤.
١٦٥) ينظر: العروض القديم، أوزان الشعر العربي وقوافيه، د. محمود علي السمان، دار المعارف، مصر، ط٢، ص٢٥٩.
١٦٦) ينظر: التراث وصناعة الشعر، ص٢٠.
١٦٧) المعجم، ص١٤٧.
١٦٨) المعجم، ص١٤٨.
١٦٩) المعجم، ص١٨٠.
١٧٠) التراث وصناعة الشعر، ص٥١، وينظر: الشعر في كتاب (المقدم الشاعر سعيد بن سالم بانهيم المرشدي)، جمع سالم محمد باراس، مطبعة وحدين، المكلا، ط١، ٢٠١٦م.
١٧١) ينظر: المعجم، ص٢٢٠.
١٧٢) المعجم، ص٢٣٧.
١٧٣) المعجم، ص٣١٨.
١٧٤) المعجم، ص١٢، والعبارة بها تحتاج مراجعة.
١٧٥) المعجم، ص١٦٥.
١٧٦) المعجم، ص٤٢.
١٧٧) الأنحائي: كتبت هكذا وكتابتها الصحيحة بدون الياء.
١٧٨) ينظر: المعجم، ص٢١٣.
١٧٩) ينظر: المعجم، ص٢١٤.
١٨٠) ينظر: المعجم، ص٢٣٤.
١٨١) ينظر: المعجم ص٢٤٦.
١٨٢) ينظر: المعجم، ص٢٦٢.
١٨٣) المعجم، ص٧٤.

المكلا ٣٠/ ١٠/ ٢٠١٦م

58
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

رأس المرزبان

من عصور ما قبل التاريخ حقبة الوجود الفارسي بساحل حضرموت إلى القرصنة البرتغالية في النصف الأول من القرن العاشر الهجري

طاهر ناصر المشعلي

تمهيد:

يصادف شهر رمضان من عامنا الهجري الحالي ١٤٣٩هـ مرور ٥٠٠ سنة هجرية على القرصنة البرتغالية على سواحل حضرموت، وإحراق (البلاد) حاضرة (رأس باغشوة) العتيقة -الواقعة تحت جبل الرأس من الجهة الشرقية، على الحد الفاصل بين مديرية الديس الشرقية ومديرية الريدة وقصيعر- وترويع سكان البلدات الساحلية، وضربها بالمدفعية، بل نزول الجنود البرتغاليين -القراصنة- إلى السواحل واختطاف السكان المحليين وحرق ممتلكاتهم، مما أدى بالسكان إلى الهجرة من الساحل نحو الداخل للبحث عن أماكن آمنة للسكن والاستقرار فيها.

ولإحياء هذه المناسبة قمنا بهذه الدراسة لتقصي الحقائق عن أهمية وتاريخ منطقة (رأس باغشوة) أو ماكان يسمى بـ(رأس المرزبان) وما حولها، منذ العصور القديمة إلى يومنا هذا؛ حيث قمنا بعدة زيارات ميدانية إلى الموقع، والتقينا بعدد من الشيوخ المعمرين المرتبطين بالمنطقة، ورجعنا إلى مصادر تاريخ حضرموت والجزيرة العربية، فكانت هذه الدراسة المتواضعة التي بين يديك عزيزي القارئ، آملين أن نكون قد وفقنا فيها.

الموقع:

يقع رأس المرزبان (رأس باغشوة) فلكيًا عند نقطة تقاطع دائرة العرض ١٤ درجة و٥١ دقيقة شمال خط الاستواء مع خط الطول ٥٠ درجة و١٠ دقائق و٣٦ ثانية شرق جرينتش، وجغرافيًا يقع على بحر العرب، عند مدخل خليج عدن، ويبعد عن رأس جولدفوي (رأس عصير) على بحر العجم -الساحل الإفريقي- بحوالي ٣٥٠ كم، وعن جزيرة سقطرى بحوالي ٤٢٠ كم، ويبعد عن الشحر باتجاه الشرق بحوالي ٥٧ كم، وعن الديس الشرقية بحوالي ٢١ كم، وعن قريتي (يضغط) و(حلفون) بحوالي ١٦ كم. ومكانيًا يقع الرأس بين مصب وادي شزوة شرقًا، ومصب وادي ضرغم غربًا بأقصى الركن الجنوبي الشرقي من مديرية الديس الشرقية (شكل ١، ٢).

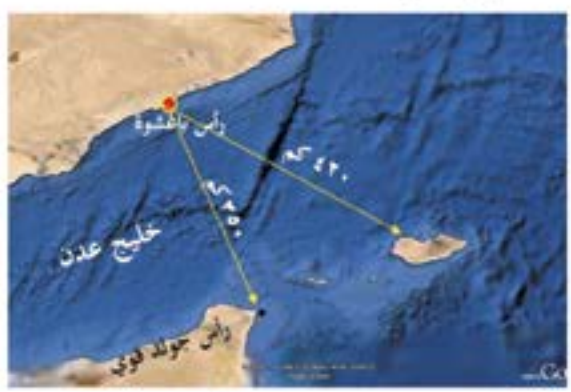

شكل ١ الموقع الجغرافي لرأس باغشوة

شكل ٢ الموقع الفلكي و موقع الجوار لرأس باغشوة

أهمية موقع رأس باغشوة (المرزبان):

تكمن أهمية موقع الرأس في الآتي:

١. **كونه موئما هاما على طرق الملاحة العالمية**: إذ تمر أمامه ما يقارب ثلاثين ألف سفينة سنويًا، في أثناء مرورها على أهم الخطوط التجارية البحرية في العالم، وتنقل ما يقارب ٨٪ من مجمل تجارة العالم[١].

٢. **كونه معلما ملاحيا**: يسترشد به الملاحون المارون بسفنهم أمامه منذ القدم، فإن الملاح أحمد بن ماجد العُماني (ولد عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م وعمّر زهاء مائة عام) يروي لنا أنه قرأ في كتب ملاحية قديمة أن عرب الجزيرة العربية كانوا يسافرون من شواطئ حضرموت وعُمان إلى الهند وفارس متخذين المعالم الساحلية العربية منارًا لهم...[٢]، ويحرص البحارة على وجوب الوصول إلى هذا الرأس أو القرب منه، ويعدونه في مصطلحهم (منتخ)، أي معلمًا بارزًا للانطلاق في السفر، وقد ذُكر في العديد من المنظومات البحرية التي تصف خطوط سير السفن، ولعل أشهرها منظومة الملاح سعيد بن سالم باطائع (الإرشادات الملاحية من مسقط إلى بندر المخا)[٣] حيث يقول:

باغشوة الشيخ هب للديامين تربيخ
وإن كان شي لبخ قبلك رفع في الصرية[٤]

٣. **كونه موقعا استراتيجيا**: لتحكمه بالمدخل الشرقي لخليج عدن (انظر شكل ١)، لذا يمكن استخدامه كمنطقة للمراقبة، وبخاصة موقع (قورن) غرب الرأس باتجاه ضرغم، الذي تشير إليه بعض المرويات بأنه كان موضع قلعة للفرس، في حقبة الوجود الفارسي بحضرموت، وتستخدم للمراقبة (شكل ٣).

شكل ٣ صورة من على موقع قورن الاستراتيجي
لاحظ سيطرة الموقع على البحر سيطرة تامة

٤. **توفر مقومات الاستيطان البشري**: في هذا النطاق الجغرافي التي تتمثل في:

أ. **ملايين الأطنان من التربة الخصبة (دلتا وادي شزوة)**، التي تأتي روافده العليا من السفوح الجنوبية لهضبة حضرموت الجنوبية، وينتهي الوادي بدلتا خصبة جدًا هي (دلتا وادي شزوة)، التي تعرف محليًا بـ(الجزلتين)، جزلة الطواعرة، وجزلة المحارجة وتحتوي على مئات الآلاف من الأطنان من التربة الخصبة، التي تزرع عند هطول الأمطار وجريان السيول، وخاصة بحبوب الذرة الرفيعة (انظر الصورة ٤)، والبطيخ (الحبحب) وغيرها.

شكل ٤ صورة لنا مع مرافقينا بين حقول الذرة
عقب موسم الأمطار و السيول بدلتا وادي شزوة

ب. **المياه السطحية والجوفية**، في مواسم الأمطار والسيول، التي كانت أكثر مما هي عليه اليوم، وقرب المياه الجوفية العذبة من سطح الأرض كما هو الحال في حسي (الثعلة)؛ حيث تظهر المياه العذبة على بعد ذراعين فقط من سطح الأرض، كما أن هناك بعض الكرفان والقلوت، مثل كريف (زئيت)، الذي يقع تحت جبل (رأس باغشوة)؛ حيث يتجمع فيه ماء المطر، ويشرب منه الناس والبهائم، ويستمر لمدة طويلة عدة أشهر كغدير، ولا ينقطع الماء غير أنّه إذا لم تأتِ السيول يصبح الماء غير عذب، و(كريكر)، وقلت (الصنّاف)، الذي يقع عند نهاية وادي شزوة شمال عيص (رأس باغشوة)، إلى الجنوب من خط الإسفلت باتجاه البحر، يسكن عليه البدو الرحل؛ حيث في الجزء العلوي يوجد حسي وفي الجزء الأسفل غدير، ويستمر الماء فيه لعدة أشهر بعد موسم سقوط الأمطار وجريان السيول.

ج. **الكهوف والمغارات القديمة**: تعد هذه الكهوف والمغارات مثاوي للسكان والحيوانات، ولعل أشهرها (جول حزرن).

٥. تنوع المظاهر الجيومرفولوجية لسطح الأرض: يتميز سطح الأرض بمنطقة (رأس باغشوة) بالتنوع من حيث الأشكال التضاريسية، التي أهمها:

أ- **جبل الرأس (رأس باغشوة)**، وهو عبارة عن كتلة صخرية جرانيتية ممتدة في البحر -هي جزء من الدرع العربي

الجنوبي- ذات حافة بارزة شديدة الانحدار نحو البحر يصل ارتفاعها حوالي ٥٠ مترًا.

ب- مصب وادي شزوة (عيص الرأس): يقع إلى الشرق من (رأس باغشوة)؛ حيث ينتهي وادي شزوة بدلتا خصبة؛ إذ يتعرج الوادي فيها خلال مرحلة شيخوخته مرسبًا كميات هائلة من التربة الغرينية، بقاياها اليوم تتمثل في شروج بيت نمير (الطواعرة) الذين كانوا يسكنون حول (الجزلة الطالعية)، و(المحارجة) الذين كانوا يسكنون حول (الجزلة الهابطية)، وشروج بيت يزيد، وامتدادها نحو الجنوب(٥).

ج- البحيرة (العيقة): وهي عبارة عن بحيرة صغيرة، ويطلق عليها الأهالي بـ(العيقة)، تعيش فيها بعض الأسماك وكائنات حية أخرى وأنواع من البجع (باسوما) وغيرها، ربما كانت تشكل (خورًا) يصل نهاية الوادي بالبحر.

د- الشاطئ: وهو شاطئ رملي نظيف ذو رمال ناعمة يمتد من (رأس باغشوة) غربًا باتجاه الشرق، ويشكل جزء منه حاجزًا يفصل البحيرة عن البحر، ويواصل امتداده شرقًا باتجاه رأس قصيعر؛ حيث ينتهي هناك.

هـ- الكهوف والمغارات: التي تكونت بفعل نحت الرياح والمياه الجارية على حافات الدلتا، فأثر النحت المائي على الصخور اللينة التي تم إزالتها، وبقيت الصخور الصلبة التي قاومت النحت بارزة، والتي شكلت هذه الكهوف والمغارات.

هذا التنوع في هذه العناصر أثر إيجابيًا على تنوع الأنشطة التي مارسها الإنسان في هذه المنطقة منذ أقدم العصور بين زراعة وتجارة وصيد ورعي... إلخ، ونتيجة لهذا وغيره من العوامل فقد تكونت عدة مستوطنات بشرية منذ فجر التاريخ في هذا النطاق الجغرافي ما زالت آثار بعضها باقية إلى يومنا هذا، لعل أكبرها (مستوطنة البلاد).

المراحل التاريخية لرأس المرزبان (باغشوة):

يمكننا تصنيف مراحل الاستيطان في رأس المرزبان (باغشوة) إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الاستيطان في عصور ما قبل التاريخ:

ليس لدينا معلومات كثيرة عن هذه الحقبة، لعدم وجود المصادر، غير أنه لدينا حقيقة مهمة وهي أن المنطقة غنية جدًا بآثارها، وخاصة تلك الآثار التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، مما يؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن منطقة الرأس وما حواليها من مناطق المشقاص قد استوطنت منذ آلاف السنين.

إن أقدم الآثار التي عثر عليها في منطقة رأس باغشوة (المرزبان) تعود لعصور ما قبل التاريخ؛ حيث عثرت (البعثة الفرنسية) على قطعة من الحجر الرملي ذي الوجه الخشن، مع وجود قاعدة مخصصة للعمليات الهجومية.. (سلاح المهاجم الصلب) عبارة عن فهر بحجم قبضة اليد، وهو بمثابة السلاح الشخصي لإنسان العصر الحجري (شكل ٥)، وقد التقطت من على الحافة الشرقية لرأس باغشوة (١٤،٨٦٥٤١١ درجة شمالًا/ ٥٠،١٧٢١٧٥ °E) (ز).

شكل ٥
حجر المهاجم الصلب (الصعب) السلاح الشخصي لإنسان العصر الحجري _ عثر عليه برأس باغشوة

كما تنتشر العديد من مقابر عصور ما قبل الإسلام، وهي عبارة عن مقابر تلية على التلال المجاورة للرأس، تصنف بعضها للعصر البرونزي، وبعضها للعصر الحجري الحديث، وربما يرجع تاريخها إلى الألفية الرابعة أو الثالثة قبل الميلاد. وبعضها للعصر الجاهلي قبيل الإسلام. هذه المقابر خير شاهد على الاستيطان في هذه المنطقة (شكل ٦، ٧).

شكل ٦ قبر يرجع لعصور ما قبل التاريخ بمنطقة رأس باغشوة

شكل ٧ قبر آخر يرجع لعصور ما قبل التاريخ

كما تم العثور على أسلحة حجرية متنوعة، مثل تلك التي عثر عليها في وادي حمم القريب من الرأس (شكل ٨)، ومصنوعات حجرية متناثرة هنا وهناك.

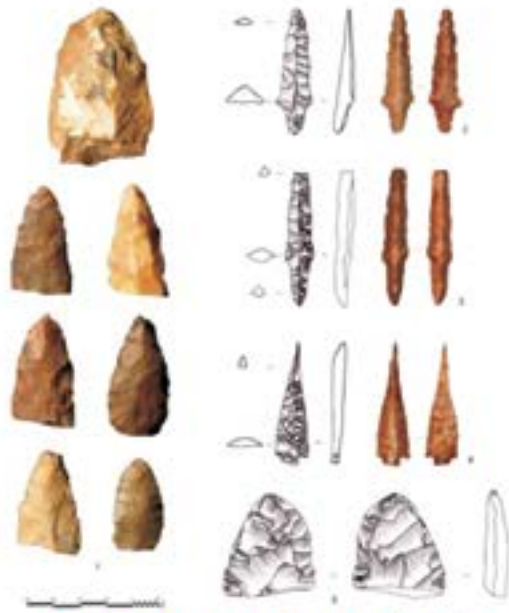

شكل ٨ أسلحة حجرية عثر عليها في وادي حمم القريب من رأس باغشوة (رسومات R. Crassard)

وهذه الآثار تنتشر على نطاق واسع في جميع مناطق المشقاص من شرق مدينة الشحر إلى المهرة بل إلى ظفار، مما يدل على نشاط بشري واسع منذ أقدم العصور، ومن الملاحظ هنا أن آثار حضارة جنوب الجزيرة العربية أقل انتشارًا مقارنةً بآثار عصور ما قبل التاريخ، وهذا يطرح عدة تساؤلات تحتاج إلى إجابات من قبل علماء الآثار وعلماء التاريخ! لا يتسع المجال هنا لمناقشتها.

المرحلة الثانية: مرحلة (رأس المرزبان) والوجود الفارسي بساحل حضرموت:

أُطلق على هذا الرأس بـ(رأس المرزبان)، وقد عُرف بهذا الاسم عند الربابنة العرب منذ عصور ما قبل الإسلام إلى القرن العاشر الهجري، جاء في كتاب (القاموس المحيط) للفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ): ورأسُ المَرْزُبان: معلم قُرْبَ الشِّحْر[٧]، ومعنى المرزبان: رئيس الفرس، أو الفارس الشجاع المقدم على القوم، وهو دون الملك في الرتبة[٨]، أو (حاكم مقاطعة فارسي)، ونسب هذا الرأس إلى (المرزبان بن وهرز) قائد الحملة الفارسية على اليمن، وهو القائد الفارسي الذي ولاه كسرى فيما بعد كعامل على اليمن بعد موت سيف بن ذي يزن[٩].

ومنذ الاحتلال الفارسي لليمن وحضرموت وحتى قبيل القرن التاسع الهجري كانت ينسب هذا الرأس للفرس؛ حيث كان يطلق عليها: (رأس المرزبان)، كما كان يوجد نشاط تجاري فارسي كبير في المنطقة، ووجود عدد كبير من الفرس في المنطقة الشرقية لحضرموت، حتى إن ابن المجاور عند وصفه للمنطقة الشرقية من حضرموت في نهاية القرن السابع الهجري قال: «وبهذه الأراضي سبع قرى مقلوبة وتسمى عند الفرس (هوسكان) أي (منكورين)»[١٠]، فهو يقصد بذلك الطفوح البركانية (الحرات) المنتشرة في المنطقة الشرقية من حضرموت، مثل منطقة المصينعة، والمضي، وعسد الغاية وغيرها (شكل ٩).

شكل ٩صورة عبر الأقمار الاصطناعية للحرات السبع الواقعة إلى غرب حيريج ذكرها ابن المجاور على إنها قرى مقلوبة يطلق عليها من قبل السكان الفرس – هوسكان

ويتضح من كلامه أن المناطق التي تقع إلى الغرب من ميناء حيريج العاصمة القديمة لمنطقة المشقاص باتجاه الشحر كان يستوطنها بعض الأقوام من الفرس في نهاية القرن السابع الهجري. وكانوا يطلقون اسم (هوسكان) على تلك الحرات البركانية، وقد كان هؤلاء الفرس على المجوسية، ومثل ذلك ما ذكره عند وصف عدن فقال: تسمى عند الفرس (أخرسكين)، وعند الهنود (سيران)[١١].

موقع نزول القوة الفارسية بساحل حضرموت:

جاء في كتاب (مروج الذهب) للمسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): «إن الفرس ركبوا في سفن البحر، وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت في موضع يقال له (مَثْوَب)، فخرجوا من السفن فأمرهم (وهرز) أن يحرقوا السفن؛ ليعلموا أنه الموت»[١٢]. فَجَمَعَ إِلَيْهِ سَيْفٌ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْ قَوْمِهِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَحِقَهُ السَّكَاسِكُ مِنْ كِنْدَةَ[١٣]... ثم ساروا من هناك برًّا حتى التقوا بـ(مسروق)»[١٤].

ويبقى السؤال: أين يقع هذا الموضع الذي يقال له مَثْوَبْ؟

فالدلائل تشير إلى أن خط الساحل الذي نزلت فيه القوة الفارسية هو الممتد ما بين رأس باغشوة (رأس المرزبان) غربًا، والذي توجد عليه آثار قلعة قديمة تراقب الخط التجاري البحري من بقاياها (حصاة قورن)، وبين رأس قصيعر شرقًا حيث الميناء التاريخي الشهير القرين، وقرية المخرج حيث آثار موضع (مثوب)، الذي يبعد بحوالي ١٦ كم إلى الشرق من

رأس باغشوة (انظر شكل ١٠).

(شكل ١٠) موقع نزول القوات الفارسية على ساحل حضرموت

اجتهاد الباحث عبدالرحمن الملاحي في تحديد موضع (مثوب):

وقد أشار إلى ذلك الباحث عبدالرحمن الملاحي رحمه الله في كتابه (الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص ثعين والحموم) إذ قال: «لعل قائد الحملة الفارسية وهرز قد حط رحاله وألقى مراسيه في حضن جبل (رأس العرزيان) الشاهق، الذي هو اليوم (رأس باغشوة) فأطلق اسم وظيفته عليه، وهي الإمارة، والرأس يقع على الجناح الغربي لخليج واسع، يشكل رأس قصيعر جناحه الشرقي... ومن البديهي أن يكون الخليج على عهد الحملة الفارسية، مكسو الضباب، كثيف الشجر، غزير المياه، فكان بهذه الصفات ملجأ ومحمى استقرت وتجمعت به القوات اليمنية المساندة للملك اليمني».

ويقول الملاحي أيضًا: «إن موقع قرية مهينم اليوم، نرى أنه الملجأ الذي وصلت إليه الحملة الفارسية، ولنا ما يرشدنا للاعتقاد بأن مهينم وما حواليها بين ميناء قصيعر ومخرج وادي عسد، هو الموقع الذي عرف تاريخيًا بـ(مثوب)، خاصة أن بهذا الموقع تقوم قرية المخرج المندثرة اليوم ولربما كانت ميناءً بحريًا هامًا»[١٥].

أسباب اختيار (مثوب) موقع نزول القوة الفارسية بساحل حضرموت:

إن اختيار هذا الموقع مكانًا آمنًا لنزول القوة الفارسية رغم بعده الكبير عن هدف الحملة -صنعاء- كان للأسباب الآتية:

١. إن هناك نفوذًا للفرس على الساحل الشرقي لحضرموت وعلى طرق التجارة قبل وصول سيف بن ذي يزن. وهذا ما أكده د. جواد علي في كتابه: (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)؛ حيث قال: «ثم إنه كان في حضرموت وفي العربية الشرقية أناس منهم - أي من الفرس - أقاموا هناك. وقد كان وكلاء الأكاسرة على هذه الأماكن منهم، وهم على دين المجوسية»[١٦].

٢. تجميع الأنصار للحملة الفارسية من القبائل اليمنية بعيدًا عن أعين الأحباش.

٣. إن القوة الفارسية لا تستطيع دخول ميناء عدن لوجود حامية حبشية قوية، لذا فضلت النزول في ساحل حضرموت.

وبعد نجاح الحملة، توافر للفرس ما لم يكونوا يحلمون به من السيطرة على مخارج التجارة البرية والبحرية من بلاد اليمن وإليها عن طريق البحر الأحمر والمحيط العربي - الهندي-، وعلى الطرق البرية المؤدية إلى الخليج والعراق من ناحية وإلى الشام ومصر من ناحية أخرى، إلى جانب ما كانوا يسيطرون عليه من تجارة الخليج العربي[١٧].

سؤال: ما علاقة ما يسمى بـ(حصون الكافر) الموجودة في المنطقة بالفرس؟ ومتى شيدت؟

فمن المستحيل أن يتم بناء هذه الحصون في مدة نزول الحملة الفارسية على ساحل حضرموت؛ لأن الحملة جاءت لهدف واضح، وهو طرد الأحباش من اليمن، وليس من أجل الاستقرار والتجارة، وهذا ما أكده المسعودي حيث قال: «ثم ساروا من هناك برًا حتى التقوا بـ(مسروق)»[١٨]. أي إن الفرس ساروا من (مثوب) حتى التقوا بجيش الحبشة بقيادة (مسروق). بمعنى أن القوة التي أرسلها كسرى لمساندة ذي يزن لم تستقر في حضرموت إطلاقًا. ومن المستحيل أيضًا أن هذه الحصون بُنيَت بعد انتصار الفرس على الأحباش؛ حيث لم يشر إلى ذلك أحد من المؤرخين، ولم تؤيده الوقائع الأثارية لهذه الحصون القديمة جدًا، التي يعود تاريخها إلى عصور حضارة جنوب الجزيرة العربية، أي إن هذه الحصون موجودة قبل نزول الحملة الفارسية وهذا هو القول الأرجح، وهو ما أكده الباحث الآثاري والأنثروبولوجي المؤرخ الدكتور عبدالعزيز جعفر بن عقيل، الذي تتبع هذه الحصون ووجد أنها تقع على خطوط الطرق التجارية القديمة لمملكة حضرموت، التي تمتد إلى وديان وجولان أخرى، ومنها إلى قارة حبشية، ومنها إلى وادي سناء ونهايته قرب قبر هود، الذي يمكن تجاوزه شمالًا إلى الهضبة فالصحراء الشرقية. وتحصينات قارة حبشية بنيت في القرن السادس -حسب شكل النقوش-.

وفي هذه الحقبة رغم سيطرة الدولة الحميرية واتساعها فإنها كانت ضعيفة المراقبة على خطوط التجارة ومنها اللبان والبخور وغيره. وأخذت واردات ميناء قنا في الضعف وقلّ الطلب على مادة اللبان بعد انتشار المسيحية في الامبراطورية الرومانية وإن كان ما زال يستخدم. وهكذا وجد التجار وأرباب القوافل طرقًا عديدة للتهريب عبر الساحل الشرقي إلى وادي حضرموت الشرقي شرق تريم، ومن ثَمّ بعدها إلى الهضبة الشمالية الشرقية (ثمود)، ومنها إلى وسط وشمال وشرق الجزيرة العربية، وإن مهمة هذه الحصون مراقبة القوافل التي تعمل على تهريب اللبان[١٩].

وهذا لا يمنع من استغلال هذه الحصون مرة أخرى في العصور الإسلامية المبكرة لحراسة القوافل التجارية من لصوص البر وفرض الضرائب في أثناء الوجود الفارسي بحضرموت.

النشاط الاقتصادي الفارسي في المنطقة في العصور الإسلامية المبكرة:

استمر النفوذ الفارسي على ساحل حضرموت بما في ذلك (رأس باغشوة) ومنطقة المشقاص بعد طرد الأحباش من اليمن، ودخول الإسلام إلى حضرموت.. وقد بقيت جماعات منهم على دين المجوسية، وقد أشير إلى وجودهم في أخبار الفتوح؛ حيث دفع الجزية من أبى منهم الدخول في الإسلام. والظاهر أن هؤلاء كانوا مقيمين فيها من أمد طويل بدليل ورود جملة في أخبار الفتوح تفيد ذلك[٢٠].

وكان أوج نشاط للفرس بساحل حضرموت في عهد الخلافة العباسية، عندما كان الخلفاء العباسيون يعملون على تشجيع امتزاج رعاياهم العرب والفرس بعضهم ببعض في وحدة إسلامية لسانها العربية، واستمر الوجود الفارسي في المشقاص إلى ما بعد القرن السابع، وقد ترك الفرس آثارًا عدة في الحياة البحرية لتلك العصور[٢١]؛ حيث كثير من المصطلحات التي نستخدمها اليوم في لغتنا الدارجة أصلها فارسي ومن هذه المصطلحات على سبيل المثال: البندر، الدُفْتر، الخن، النوخُدة، السَنْبُوق[٢٢]، وغيرها.

توجد دلائل كثيرة على نشاط فارسي كبير جداً في منطقة المشقاص في العصور الإسلامية المبكرة، ويتمثل في النشاط الصناعي والزراعي كمثال منطقة يضغط (الجربة)[٢٣] حيث آثار صناعة الخزف والزجاج وآثار قنوات الري والحواجز المائية، أما النشاط التجاري فيتمثل من خلال شبكتين تجاريتين عظيمتين شبكة برية وأخرى بحرية ترتبطان ببعضهما البعض.

أولًا: الشبكة التجارية البرية:

وهي التي تربط ساحل حضرموت بالطرق البرية في الجزيرة العربية، وما يتصل بها من طرق برية أخرى، وهذه الشبكة هي امتداد لشبكة الطرق التجارية القديمة لحضرموت، وتقع في مناطق إنتاج اللبان الرئيسة بحضرموت، وقد استخدمت قديمًا في حقبة الممالك القديمة لمراقبة تجارة اللبان، واستخدمت في حقبة الوجود الفارسي لحماية القوافل البرية من لصوص البر وربما لفرض الضرائب، ومن الدلائل على وجود هذه الشبكة التجارية ما يطلق عليه اليوم بـ(حصون الكافر)، وهذ التسمية تشير إلى أن القائمين عليها في العصور الإسلامية المبكرة ليسوا بمسلمين بل (مجوس) أي كفار، ومن هذه الحصون:

- حصن الكافر (شروان): بمنطقة معبر على ربوة بمدخل القرية.
- حصن الكافر (تنشوه): ويقع شمال شرقي قرية معبر.
- حصن الكافر (شقبون) وادي عسد الجبل (انظر الشكل ١١).

(شكل ١١) حصن شقبون يقع على ارتفاع شاهق بين شعب حيظ شرقاً و شعب الضيق غرباً المتفرعان من وادي عسد لحراسة تجارة الفرس بحضرموت في العصور الإسلامية المبكرة

- حصن الكافر (سول) بوادي رغدون.
- حصن الكافر (حلفون): يقع شمال غرب قرية حلفون (انظر الشكل ١٢).

وغيرها من الحصون.

(شكل ١٢) أطلال حصن الكافر بقرية حلفون يقع على الضفة الغربية لوادي حبه

ثانيا: الشبكة التجارية البحرية:

وهي التي تربط ساحل حضرموت بموانئ المحيط الهندي وشرق أفريقيا والبحر الأحمر، ومن الدلائل على هذه الشبكة (ميناء شرمة التاريخي)، الذي أنشأه تجّار تعود أصولهم إلى الخليج الفارسي؛ حيث أسس عند نقطة تقاطع خط سير رحلاتهم البحرية التجارية، وذلك بعد خراب ميناء سيراف، ميناء إيران الرئيس بسبب زلزال عام ٩٧٧م (٣٦٧هـ)[٢٤]، كما أكدت ذلك نتائج التنقيبات الأثرية لميناء شرمة من قبل البعثة الفرنسية برئاسة الدكتورة أكسيل روجيل، وذلك بتتبع الصادرات والواردات من وإلى ميناء شرمة. كما أكدت ذلك أيضًا المسوحات الأثرية في (الجربة) بضواحي قرية (يضغط) على وجود آثار لمجمعات صناعية لصناعة الفخار

والخزف والزجاج، وأن القائمين عليها هم من الفرس أيضًا، وارتباطها بميناء شرمة التاريخي[٢٥]. (انظر الخريطة شكل ١٣).

خريطة (شكل ١٣) توضح طرق الصادرات والواردات من وإلى ميناء شرمة في العصور الوسطى

المرحلة الثالثة: مرحلة (رأس باغشوة) ما بعد القرن العاشر الهجري:

أطلق على (رأس المرزبان) اسم (رأس باغشوة) منذ القرن العاشر الهجري وإلى اليوم، وذلك نسبة إلى الشيخ أحمد بن محمد باغشوة.

يقول الملاح باطايع في مرشدته الملاحية من مسقط إلى بندر المخا:

باغشوة الشيخ[٢٦] هب للديامين[٢٧] تربيخ[٢٨]

وإن كان شي لبخ[٢٩] قبلك[٣٠] رفع في الصرية[٣١]

من هم آل باغشوة؟

أخبرني الشيخ صالح بن عبدالرحمن بن عبدالله باغشوة رحمه الله[٣٢] (انظر الصورة شكل ١٤) أن أصل آل باغشوة من وادي حضرموت؛ حيث يروى عن أجدادهم أن ثلاثة من أجدادهم الأوائل هاجروا من حضرموت الداخل، اتجه أحدهم إلى منطقة (رأس باغشوة) وسكنوا في (البلاد) تحت الرأس، التي كانت عامرة في تلك الحقبة، وهم يشكلون اليوم (آل باغشوة) ومساكنهم الحالية في حلفون، واتجه الثاني إلى منطقة بروم وهم يشكلون اليوم (آل مزاحم)، واتجه الثالث إلى منطقة زيلع وهم المشهورون (بالزيلعي)، والثلاثة هؤلاء بعد وفاتهم كانت لهم مزارات مشهورة وفي كل مزار تابوت، يقصده العامة بالتبرك والزيارة[٣٣]، كما كانت العادات السائدة في ذلك الوقت لجهل العامة.

ولئن كان الأمر كذلك فإن آل باغشوة يرجع نسبهم إلى آل باجابر، وهم مشائخ كانوا يسكنون عندل[٣٤]، ويُزعم أنهم يُنسبون إلى الصحابي جابر بن عبدالله الأنصاري ولا سند لذلك. ويرى بعضهم أنهم من سلالة عقيل بن أبي طالب والله أعلم بالصواب[٣٥].

(شكل ١٤) الباحث طاهر المشخلي في مقابلة مع الشيخ صالح بن عبدالرحمن بن عبدالله باغشوة رحمه الله

موقع بلدة (البلاد):

تقع هذه البلدة تحت جبل (رأس باغشوة) من جهة الشرق في سهل منبسط، وتمتد بشكل طولي من جهة الشمال الشرقي باتجاه الجنوب الغربي بمسافة حوالي كيلومتر واحد، وبشكل عرضي من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بمسافة ٤٠٠ متر، يحدها من الشرق مصب وادي شزوة، ومن الغرب جبل رأس باغشوة، ومن الشمال قارة صغيرة تسمى (قارة الشِمال) -بكسر الشين- ومن الجنوب البحر العربي. (انظر الشكل ١٥ الخريطة الجوية لموقع البلاد).

(شكل ١٥)
خريطة جوية لموقع البلاد

تاريخ مستوطنة (البلاد):

كانت (البلاد) بلدة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، من البر حيث المزارع والغياض المنتشرة على طول الجزء الأسفل من وادي شزوة لتوافر المقومات الزراعية من تربة خصبة ومياه، ومن البحر حيث النشاط التجاري والسمكي.

وعند قدوم آل باغشوة إليها واستقرارهم حولها نسبت الرأس إليهم لمكانتهم الروحية؛ حيث كان سائدًا في ذلك الزمان بأن تنسب المواقع البحرية لأولياء الله الصالحين، مثل شرمة تنسب للشيخ عمر محضار، والمكلا بندر يعقوب، وبروم تنسب لآل مزاحم، وعدن تنسب للعيدروس... وهكذا[٣٦].

رأس باغشوة والقرصنة البرتغالية:

في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجري كانت (رأس باغشوة) جزءًا من دولة حضرموت (الدولة الكثيرية الأولى)، وكان سلطانًا على حضرموت السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري، المشهور بـ(بدر بوطويرق). وهناك حكام العشائر والقبائل على مناطق نفوذهم. وكانت الدولة الكثيرية، امتدادًا لدولة الخلافة الإسلامية (الدولة العثمانية العلية)، التي كان يمثلها في ذلك الزمان السلطان سليمان القانوني، الذي كان إذ ذاك ملك الدنيا، ووحيد سطوتها[٣٧].

في هذه المدة ظهر البرتغال قوةً تريد السيطرة على طريق التجارة في المحيط الهندي، فقاموا بمحاولة لاحتلال ميناء عدن عام ٩٢٣هـ فشكلت الشحر وضواحيها مصدر إمداد ورافدًا قويًا لصمود مدينة عدن في محنتها بمحاولة البرتغاليين الاستيلاء عليها، فكان انتقام البرتغاليين من مدينة الشحر عام ٩٢٩هـ ومن ضواحيها، والتي منها (رأس باغشوة).

وفي هذه المدة ظهر البرتغاليون القراصنة، الذين كانوا يغيرون على الموانئ لنهبها وحرقها وإغراق السفن في أعالي البحار والموانئ، ويأسرون البحارة ويبيعونهم بيع الرقيق، ومن أهم الموانئ التي هاجمها الإفرنج: قصيعر، وروكب، وخلفة، وبروم، ورأس باغشوة، وغيرها. وإغراق حوالي ١٤ سفينة من سفن أهل الحامي التي كانت قادمة من الخليج العربي، وذلك لدور أبناء الحامي في مقاومة الغزاة البرتغاليين على عدن والشحر، واستخدام سفنهم في نجدة إخوانهم[٣٨]. وفي هذه الظروف الصعبة استنجد السلطان بدر بدولة الخلافة العثمانية التي أمدته بالسلاح؛ حيث عرفت حضرموت لأول مرة الأسلحة النارية (بوقتيلة) والمدافع، كما أمدته أيضًا بالرجال.

إحراق البلاد من قبل البرتغاليين:

ذُكرت بلاد (رأس باغشوة) في مصادر تاريخ حضرموت من ضمن البلدات التي تعرضت للتدمير الشامل والإبادة الجماعية من قبل القراصنة البرتغاليين. فقد ذكر المؤرخ محمد بن عمر الطيب بافقيه في كتابه (تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر) ضمن أحداث شهر رمضان من سنة ٩٣٩هـ (١٥٣٢م) حركة القراصنة بعد اقتحامهم ميناء بروم؛ حيث قال: «بعد مسيرهم (أي البرتغاليين) من بروم، مروا مكان باغشوة فحرقوه، ونزل منهم جماعة فكمنوا في الساحل حتى مر بهم اثنان من الصيادين فأخذوهم»[٣٩]. وأحرقوا جانبًا من ديار الأهالي المصنوعة من القش، وقتلوا ثلاثة من رجالها، وأسروا اثنين[٤٠].

البلاد (آثار وأطلال):

قمنا بزيارة لموقع (البلاد)، ضمن مشروعنا (كنوز بلادي)؛ وذلك لتوثيق المواقع الأثرية بمديرية الديس الشرقية، برفقة الإخوة جمال سالم قرنح (رئيس جمعية التراث والآثار بالمديرية)، والأخ أحمد كناش النموري، والوالد صالح البخيت كرامة النموري، والسائق الأخ صالح أحمد النموري، وذلك بتاريخ ٢٨ سبتمبر ٢٠١٣م، وبهذه المناسبة أتقدم بالشكر لآل نمير وفي مقدمتهم الأخ أحمد كناش، الذي أعد لهذه الرحلة وذلّل جميع الصعوبات. كما أتقدم بالشكر لجميع مرافقينا. وكان من نتائج هذه الزيارة التعرف على بقية الآثار في الموقع، وتم العثور على بعض الملتقطات السطحية، ومن هنا يكون لدينا تصور عن البلدة.

المواقع الأثرية في بلدة رأس باغشوة (البلاد):

أولًا: آثار المباني المدمرة:

في أثناء زيارتنا لموقع البلدة وتجوالنا بين أنقاض تلك المباني المنهارة تبين لنا آثار الدمار والخراب، الذي حل بهذه البلدة، فقد رأينا أكوام المباني المنهارة، على شكل أكوام من الحجارة المتراكمة والمتناثرة، وآثار الحرائق في جميع مواقع البلدة، فكلما نبشنا التراب في أي موضع من مواضع البلدة نجد الرماد، مما يدل على أن البلدة تعرضت لقصف بالمدفعية الثقيلة، وإحراقها بالكامل، وفرار سكانها، واستشهاد البعض الآخر. (انظر الصورة ١٦، ١٧ آثار الدمار والخراب الذي تعرضت له بلدة رأس باغشوة).

(صورة ١٦) جانب من الدمار والخراب الذي تعرضت له بلدة رأس باغشوة

(صورة ١٧) جدران أحد المباني المنهارة في البلدة

لماذا هذا الدمار؟

إن الدمار الشامل الذي تعرضت البلدة، يدل على الحقد الصليبي على الإسلام والمسلمين. قال تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم...) [البقرة: ١٢٠]. كما يعد انتقامًا من سكان البلدة الذين تصدوا للهجمات البرتغالية المتكررة على حضرموت خاصة والجنوب عامة ومناصرة إخوانهم سكان مدينة الشحر وسقطرى وعدن؛ حيث تذكر كتب تاريخ حضرموت والشحر عددًا من رجال البحر منهم آل طوعري، والحموم، وبعض قبائل المهرة، ومواقفها الباسلة في مقاومة القرصنة البرتغالية على السواحل الجنوبية.

تصور عن البلدة:

من النظرة الشاملة للدمار يمكن تصنيف البلدة إلى ثلاثة أحياء وهي:

١) **الحي الراقي**: يقع في منخفض أسفل جبل الرأس، ونعتقد أن هذا هو الحي الراقي للبلدة؛ حيث تسكن الطبقات الراقية من سادة ومشايخ وتجار؛ وذلك لأن جميع المساكن مبنية من الحجر ومجصصة، وبعضها مزخرف، ويعد هذا من مظاهر الترف، وتوجد ببعض المباني ملحقات من زرانب وأحواش وسقائف ومطابخ وغيرها.

وصف مباني البلدة:

مباني البلدة أساساتها من حجر الجرانيت، وجدرانها مبنية بالحجر الرملي أو الحجر الكلسي (الخرشع)، ومعظم المباني مطلية وملبسة بمادة الجس، لا يوجد أي أثر لأي مبانٍ طينية في البلدة، وجميع المباني مبنية بالحجر المنحوت المنتظم، وهذا يدل على الرقي الحضاري والتطور المعماري للبلدة، ويدل أيضًا على الحياة الرغيدة لسكانها الذين عاشوا حياة فيها نوع من الترف. تنتشر آثار المباني على البلدة ما يقارب من نصف الكيلومتر طولًا، مما يدل على كبر البلدة نسبيًا وكثرة عدد المباني التي تبلغ بالمئات.

ولاحظنا أن مباني البلدة تمتد بشكل عام طوليًا من الشمال إلى الجنوب، مما يساعد تجديد الهواء في المنزل بفعل تأثير نسيم البحر نهارًا ونسيم البر ليلًا، مما يساعد على تهوية وتلطيف جو المنزل طوال اليوم، والغرف ضيقة لحد ما، وهي تمتد بشكل طولي والمعروفة محليًا بـ(ضيقة)، مساحتها حوالي (٣ × ٧ متر)، تختلف المباني من حيث عدد الغرف (الضيق)، فبعضها كبير يتكون من ست غرف، وبعضها أقل من ذلك، وهذه الغرف ملبسة بمادة الجس.

٢) **الحد الفاصل**: ونرى أن الحد الفاصل بين المباني الحجرية والعضبة هو وجود سوق البلدة، لوجود آثار مرابض الإبل (المحط)، التي تحط فيه الجمال وهي محملة بالبضائع. وتمتد السوق بشكل طولي إلى قرب البحر، حيث الميناء، وهو ميناء عميق جدًا ومحمي من الرياح بشكل جيد؛ حيث يعمل (رأس باغشوة) كلسان يمتد جزء منه في البحر لصد حركة الرياح.

٣) **حي العوام**: يقع على العضبة، ونعتقد أنه كانت به مساكن الأكواخ (الأخصاص)، المصنوعة من سعف النخيل (العُرُوش)، التي احترقت عن بكرة أبيها بفعل القصف المدفعي من قبل سفن القراصنة البرتغاليين. والدليل على وجودها هو إنه كلما نبشنا التربة عن هذه العضبة تظهر آثار الحرائق والرماد وبعض الملتقطات الفخارية، مما يدل على امتداد جزء كبير من البلدة على هذه العضبة شرق البلاد... كما توجد آثار لبعض المباني المتناثرة هنا وهناك، ونعتقد أن معظم السكان في هذا النطاق من الطبقات المتوسطة والكادحة كالعمال والصيادين وغيرهم لطبيعة تلك المساكن.

جامع البلاد:

وخلال نزولنا للموقع لم نستطع تحديد موقع المسجد بدقة، إلا أن بعض المعمّرين من كبار السن ومنهم الشيخ صالح بن عبدالرحمن بن عبدالله باغشوة، والشيخ صالح البخيت كرامة النموري، أكدا لنا إنهما يتذكران آثار سواري المسجد وآثار الحريق والدمار على جدرانه، وأن موقعه شرق الجبل، غير أننا في أثناء نزولنا السريع لم نتبين ملامح المسجد بشكل دقيق بسبب الدمار الشامل للبلدة، وتأثير عوامل التعرية مع مرور الزمن. وهذا يحتاج إلى المزيد من البحث في نزولات قادمة إن تيسرت.

المقابر:

توجد في منطقة (رأس باغشوة) ثلاث مقابر كبيرة، منها مقبرتان قديمتان في البلدة القديمة (البلاد)، والمقبرة الثالثة مقبرة (مول العيقة)، شاهدة على الاستيطان البشري في هذا الموقع. وتفصيلاتها كالآتي:

(١) **مقبرة البلاد القديمة**: تقع في الجانب الشمالي الشرقي من البلدة، مقبرة عظيمة، بها مئات القبور ظاهرة للعيان، وهناك مجموعة أكبر من القبور قد اندرست معالمها وأزالتها عوامل التعرية، ولم تبقَ منها إلا معالم بسيطة، بها بعض القبور الدائرية الشكل، وهي شاهد على الاستيطان البشري في البلدة في عصور ما قبل الإسلام (العصر الجاهلي)، وبها قبور إسلامية تعود لفجر الإسلام، تتميز تلك القبور بأنها طويلة؛ إذ يصل طول القبر إلى حوالي عشرة أقدام.

(٢) **مقبرة البلاد الحديثة نسبيًا**: تقع المقبرة شمال البلاد، وهي امتداد للمقبرة القديمة نحو الشمال، أحدث القبور فيها تعود للثلث الأول من القرن العاشر الهجري، أي قبيل إحراق البلدة، بها مئات القبور، وبعضها قد اندرست معالمها بفعل

عوامل التعرية، إلا إن أكثرها ظاهر للعيان، وكبر المقبرة شاهد ودليل على الاستقرار البشري في بلدة الرأس وكثرة السكان؛ حيث يصل امتداد المقبرتين معًا حوالي نصف كليومتر، وهناك بعض القبور المميزة بارتفاعها، التي نعتقد أنها قبور أولياء وأعيان البلدة، إلا أننا لم نعثر على كتابات على شواهد تلك القبور؛ إذ إن تلك الشواهد قد أزيلت معالمها. (صورة شكل ١٨).

(صورة ١٨) جانب من مقبرة البلاد الحديثة (مول العيقة) التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع الهجري

(٣) **مقبرة مول العيقة**: هي أحدث المقابر في (رأس باغشوة) تعود إلى حوالي منتصف القرن العاشر الهجري بعد انتقال السكان نحو الداخل قليلًا بعيدًا عن مرمى مدافع السفن البرتغالية، تقع على الضفة الغربية لوادي شزوة أمام العيقة، وهي مقبرة كبيرة جدًا بها المئات من القبور، وبها مزار الولي أحمد بن محمد باغشوة المكنَّى بـ(مول العيقة)؛ حيث توجد غرفة صغيرة على شكل (مربعة)، قد انهارت، ثم رممت من قبل المعلم مبارك عبيد بن حمزة، إلا أنها قد انهارت مرة أخرى[١٠].

الملتقطات:

في أثناء تجوالنا المحدود بين أنقاض البلدة عثرنا على بعض القطع الأثرية والملتقطات أهمها:

- **مجموعة أعضاد وأساور**: مصنوعة من مادة شبه زجاجية، وتنتشر بقايا هذه الأعضاد بكميات كثيرة، وهي تشبه مثيلاتها في منطقة الجربة بيضغط.
- **قطع فخارية متنوعة مثل شقفات**: أزيار، وجحال، وأكواز، ومباخر، وأذن قدر وجرار، وفناجين حيث تتناثر قطع من الفخار وبقايا القدور.
- **سيراميك (صين)**: من النوع الراقي ذي لون أسود لامع وناعم الملمس ومزخرف.
- **روث حيوانات (أغنام وجمال وأبقار)**: في أكثر من موقع، مما يدل على أنّ الموقع عبارة عن حضيرة أغنام لأحد سكان البلدة؛ حيث يلاحظ أن مجموعة من سكان البلدة كانوا يقومون بتربية الأغنام، لوجود هذه الزرائب ملحقة بمنازلهم. (صورة شكل ١٩).

(شكل ١٩ من الملتقطات التي عثر عليها أعضاد وأساور - قطع فخارية متنوعة شقفات - زير - جحال - أكواز - مباخر - قدور - جرار - فناجين - سيراميك (صين)

خَلْفة تثأر للبلاد: بقتل ٧ جنود برتغاليين، وجرح آخرين وتدفع الثمن غاليًا:

جاء في كتاب (تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر) لمحمد بن عمر الطيب بافقيه ص ٢١٥ ما يأتي:

تعرض ميناء خلفة لقرصنة من قبل البرتغاليين، وذلك يوم السبت ٢٣ من شهر رمضان سنة ٩٣٩هـ؛ حيث وصل غراب الفرنجة إلى ميناء خلفة، وصادف طرادًا من زبلع، وأخذ ما فيه من دقيق وغيره، وهرب أهل الطراد إلى البر ومعهم بعض الحوائج والرقيق، فلحقوهم إلى البر وأخذوا بقية ما معهم من ذلك، ورجعوا ثم إنهم توهّموا أن الذين هربوا دفنوا الذهب، فخرجوا في اليوم الثاني ليخرجوا الدفين فكمن لهم جماعة من آل محمد[١٢] فقتلوا منهم سبعة وجرحوا اثنين، وهرب من سلم منهم إلى البحر، ثم رجع الغراب إلى الهند[١٣].

وبهذا العمل الفدائي ضد الجنود البرتغالين وهزيمتهم فإن خلفة دفعت الثمن غاليًا؛ حيث دب الخوف بين السكان عندما رأوا مصير البلدات الساحلية التي قاومت المحتل البرتغالي بإحراقها وتهجير سكانها، لذا فقد هاجر سكان خَلْفة والبلدات الساحلية نحو الداخل بعيدًا عن مرمى المدفعية البرتغالية. نحو الغياض التي يتناوب عليها المزارعون والشُرَّاح؛ حيث أنشأوا لهم بعض الأكواخ من سعف النخيل ليكونوا قريبين من مزارعهم، ومن ثم تكاثروا واستقر عددٌ منهم حول معيان الصيق. وبذلك تكونت مستوطنة جديدة هي بلدة الديس الشرقية. ومن أقدم الأسر التي انتقلت من خلفة وسيف مقرة وسكنت بالديس: باهجيرة، وباخبازي، وباعمرو، وباغويطة، وبن جمعان، والخامر، ومحروس، وبن سما، وبامكي، وبن سلومة، وغانم.. وغيرهم[١٤].

المصادر والهوامش:

١. بازار، سالم ربيع سعيد (المعدات والملوثات: مصادرها - وتأثيراتها - وكيفية الحد منها)، ورقة عمل لمشروع المحميات الساحلية بلحاف - بئر علي - بروم - شرمة - جثمون - للفترة من ٢٧ - ٢٩ يناير ٢٠٠٤م، ص٤.

٢. بامطرف، محمد عبدالقادر، الرفيق النافع على منظومتي الملاح باطايع، مطبعة السلام، عدن، ص١٠.

٣. كتبت هذه المرشدة سنة ١٨٠٥م، المرجع: محاضرة مسجلة بالفيديو للأستاذ عبدالرحمن الملاحي ألقيت بالمركز الثقافي بالديس الشرقية بتاريخ ٨/ ١٠/ ٢٠١٠م، يوم الجمعة.

٤. بامطرف، محمد عبدالقادر، الرفيق النافع، ط١، ص٦٧.

٥. مقابلة مع الأستاذ أحمد كناش النموري، باحث مهتم بتاريخ المنطقة.

٦. Rémy Crassard, Marie-Louise Inizan, Axelle-Rougeulle]Sharma Un entrepôt de commerce -médiéval sur la côte du ?a?ramawt]Yémen, ca ٩٨٠-١١٨٠[. ١٦. L'occupation préhistorique, PNO I/١

٧. الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ط٨، ص٨٩.

٨. إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبدالقادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٩. شرف الدين، أحمد بن حسين، اليمن عبر التاريخ، ص١٥٦.

١٠. ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي (ت ٦٩٠هـ)، تاريخ المستبصر، طبعة ١٩٩٦م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص٢٩٨.

١١. المرجع السابق، ص١٢٩.

١٢. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٥٥.

١٣. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط١، ج١، ص٤٠٨.

١٤. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٥٥.

١٥. الملاحي، عبدالرحمن، الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص ثعين والحموم...، ص٤٤.

١٦. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٤، ج١٢، ص٢٦٨.

١٧. عبدالعزيز بن صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، ص١٢١.

١٨. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٥٥.

١٩. مقابلة مع المؤرخ ومقتطفات من كتاباته على صفحته على الفيس بوك.

٢٠. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٢، ص٢٦٨.

٢١. حوراني، جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمه وزاد عليه: د. السيد يعقوب بكر، تقديم ومراجعة: د. يحيى الخشاب، مكتبة الأنجلو المصرية، ص١٩٩.

٢٢. المرجع السابق.

٢٣. الجربة: وهي مشتقة من لفظ (الجريب)، والجريب: وحدة لقياس المسافات، وأصله فارسي وهو عندهم مساحة من الأرض تعادل عشرة آلاف متر مربع، اقتبسه العرب منذ بداية العصر الإسلامي مع اختلاف في المساحة، واستخدموه في تحديد مساحات الأرض، فالجريب عند العرب يعادل (١٢٠٠ م٢)، وقد يراد به المزرعة، ويسميها الحضارمة: الجَرْب، ينظر: إدام القوت، الهامش ص٣٧٥.

٢٤. أكسيل روجيل، (الحفريات الأثرية في شرمة موسم ٢٠٠١-٢٠٠٢م) مجلة (حوليات يمنية)، ٢٠١٣م، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء.

٢٥. أكسيل روجيل، الطبقات المعاصرة لشرمة: الآنية المزخرفة المنحوتة والخزفيات المزججة الأخرى لتجارة المحيط الهندي (حوالي ٩٨٠- ١١٥٠م)، دراسة أثرية نشرت في (أعمال ندوة الدراسات العربية الـ٣٥، ٢٠٠٥م، ص٢٢٣-٢٤٦)، ترجمة: عبدالله صالح النموري.

٢٦. المقصود به: ولي الله الصالح الشيخ أحمد بن محمد باغشوة.

٢٧. الديامين: جمع ديمان، وهما حبلان تربطان أسفل مؤخرة الشراع.

٢٨. تربيخ: ترخي حبال الديمان.

٢٩. ليخ: شباك يستخدمها الصيادون لاصطياد سمك القرش (اللخم).

٣٠. قبلك: أمامك.

٣١. رفع في الصرية: ادفع بالسفينة صوب البحر مبتعداً عن شباك الصيادين.

٣٢. توفي الشيخ صالح بن عبدالرحمن بن عبدالله باغشوة رحمه الله تعالى فجر يوم الثلاثاء ٢٢ مارس ٢٠١٦م، ودفن بمقبرة حلفون.

٣٣. مقابلة مع الشيخ صالح بن عبدالرحمن بن عبدالله باغشوة بتاريخ ٩/ ١٠/ ٢٠١٣م.

٣٤. السقاف، (مجلة العرب)، ج٨، ص٥٢٦.

٣٥. أشار عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف في كتابه (إدام القوت) إلى أن الشيخ مزاحم بن أحمد باجابر قد أتى من منطقة عندل بوادي حضرموت إلى بروم حوالي ١٤١٦م (٨١٩هـ).

٣٦. بامطرف، محمد عبدالقادر، الرفيق النافع، ط١، ص١٩، بتصرف.

٣٧. بن مرعي، سالم بن أحمد، آل كثير، فصول في الدول والقبائل والأنساب، ص٨٧.

٣٨. بامطرف، محمد عبدالقادر، الشهداء السبعة، ص١٠٩.

٣٩. بافقيه، محمد بن عمر الطيب، تاريخ الشحر، ص٢١٥.

٤٠. بامطرف، محمد عبدالقادر، الشهداء السبعة، ص١١١.

٤١. مقابلة مع الوالد الشيخ صالح البخيت كرامة النموري.

٤٢. وآل محمد: هم قبيلة من المهرة المتحالفين مع السلطان بدر أبوطويرق حيث كانت المنطقة الساحلية تخضع لسيطرتهم.

٤٣. بافقيه، محمد بن عمر الطيب، تاريخ الشحر، ص٢١٥.

٤٤. من الذاكرة الشفهية للكثير من كبار السن منهم الشيخ باصعة وغانم وغيرهم.

69
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

البدايات الأولى لنشوء المدن في وادي حضرموت

هل تكفيها اكتشافات الصدفة

يُقرُّ الباحثون جميعًا أن علم الآثار هو المصدر الحقيقي لصياغة التاريخ، ويأتي ذلك من خلال المصادر الحقيقية، والمتمثل في المواقع والملتقطات الأثرية من نقوش وكتابات وقطع أثرية ومبانٍ، تحكي قصة حضارة أيِّ مدينة في أي بقعة من بقاع الأرض.

وفي وادي حضرموت عرفت مدن قديمة من عصر ما قبل الإسلام، وجاء ذكرها في عدد من النقوش اليمنية القديمة (المسند)، ولعل أبرز هذه النقوش (نقش الإرياني ٣٢-٣٣)، الذي يذكر مدينتي شبام وتريم، وهما مقصد الحديث. كما أن لهاتين المدينتين سجلاً تاريخيًا وحضاريًا، بدءاً من حقبة ما قبل الإسلام وانتهاء بعصر الإسلام المبكر والتاريخ الحديث.

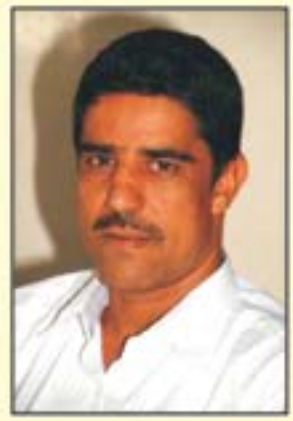

حسن عيديد طه عيديد *

• تاريخ نشوء مدينتي شبام وتريم :

تتحدث المصادر التاريخية أنّ مدينة تريم ورد ذكرها كأول إشارة لها من خلال نقوش المسند الموسوم بـ(نقش إرياني ٣٢)، وهذا النقش يعود إلى نهاية القرن الثالث - بداية القرن الرابع الميلادي. كما جاء ذكرها عند الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) ص ١٧٠ بأنها مدينة عظيمة من غير الإشارة إلى تاريخ وجودها، وجاء ذكرها عند الحموي كإحدى مدينتي حضرموت.

وإذا رجعنا إلى مدينة شبام فإنها لا تختلف كثيرًا عن شقيقتها تريم، فكلُّ مَنْ كتب عن مدينة شبام حاول أن يجتهد بنفسه حول سبب تسمية شبام بهذا الاسم، شأن بقية المدن الأخرى، فخرجت بذلك نظرياتٌ عِدَّةٌ وتأويلات. فالهمداني مؤرخ اليمن المتوفى ٣٣٥هـ قال في كتابه (صفة جزيرة العرب): «أما شبام فهي مدينة الجميع وسكنها حضرموت» ص١٦٩.

ويقول بعضهم إنّ وجود شبام كان في الحقبة الممتدة من بين حكم ياسر

يهنعم ٣٢٥م وبداية حكم الملك ذمار علي يهبـــر الثاني ٣٣٥م أو ٣٤٠م (شكري محمد سعيد، ص١٣٣).

إذًا نحـــن ما زلنا أمام نظريات وافتراضات ليســت مؤكّدة؛ لأنه إلى اليوم لم يتم الكشف عن هُـويّة هذه المدن وبدايات نشـونها الحقيقـي، ولن يتحقـــق ذلك إلا من خلال المصدر الوحيد الذي يفصح عن تاريخ هذه المدن، وهو الاكتشافات الأثرية من خلال الحـــفريات العلمية والمنهجية، التي تنفّذها بعثات الآثار ومختصّوهـا وغيـر ذلـك، وتظـل الافتراضات مجرّدَ نظرياتٍ محـــلّ دراسةٍ وتحقيق.

• مشاريع الترميم واكتشافات الصدفة:

مكتب الهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية فرع شبـــام ووادي حضرموت هو من المكاتب الحكومية، المعنيّة بتنفيذ سياسة الحـفاظ على المـدن والمعالـم التاريخيـة فـي وادي حـــضرموت، ومن أبـــرز اختصاصاته تنفيذ مشـــاريع الترميم للمبـــاني التاريخية وتنفيذ مشاريع البنى التحتية للمدن التاريخية في وادي حـــضرموت ولا سيّما مدينة شبام؛ باعتبـارها من المدن المســـجلة في قـــائمة التراث العالمي (اليونسكو).

ونحن هنا سنحاول أن نبرز بـعضًا من اكتشافات الصدفة من القطع الأثرية والشـواهد التاريخية، التي ترســم لنا الأسطر الأولى لتاريخ نشأة المدينة ولا سيّما مدينتي شبام وتريم؛ حيث جاءت هذه الاكتشـافات بـــالصدفة في أثناء قـيام مكتب الهيئة العامة للمحـافظة على المدن التاريخية بشبام بـأعمال ترميم لمبـــــان تاريخية في تلك المدينتين.

أولًا: الاكتشاف الأثرية في مدينة شبام

في مدينة شبام التاريخية وفي أثناء تنفيذ أعمال مشروع البـنية التحـتية، والذي يُـعَـدُ من المشاريع الرائدة في المدينة؛ حـيث بـدأ تنفيذه منذ عام ٢٠٠٧م، ولكن البـــداية الفعلية له كانـت مـــن عـــام ٢٠١٠م، وهـــذا المشـــروع يتكوّن من مكوّناتٍ عِدّة، تهدف إلى حـــماية المدينة من أي مخاطر مع إدخال بـعض التحـديثات في مجال الخدمات، التي تتناسب مع المدينـة، ومنهـا مكـوّن المجـاري والصرف الصحي، ومكوّنات الكهرباء والاتصالات والمياه والإنـارة، وتنفيذ هذا المشـــــروع يعتمد على إجراء حفريات في كل أجزاء المدينة بـأعماق مختلفة تصل ما بين ١- ٢ متر.

وبطبيعة الحـال فإنّ القـائمين على تنفيذ المشـــروع، وهم: المشـــروع اليمنـي الألمانـي (GIZ)، والهيئـة العامة للمحـافظة على المدن التاريخية بشبام، والصندوق الاجتماعي للتنمية، ومختلف الشركاء، لم يغفلوا عن مدى أهمية الحفريات وخطورتها، التي ستتم في مدينة قـديمة كمدينة شبـام؛ حـــيث تمّ تكليف مهندس ومختص في الآثار لرصد أي مكتشـف أثري في أثناء عملية الحفر، وبالذات عند التنفيذ في الأعماق وبخاصة مكوّن المجاري.

مكتشفات من مدينة شبام

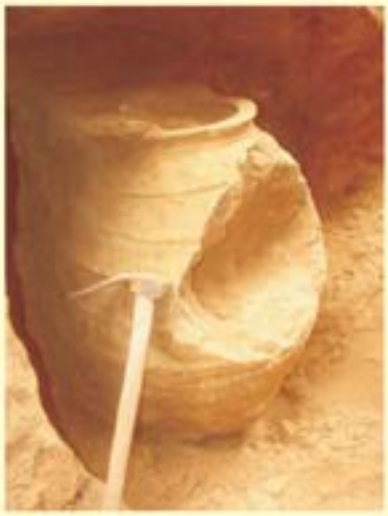

قصر الرناد - تريم

• نوع المكتشفات الأثرية:

١. بقايا قنوات تصريف مياه الأمطار في طبقاتها الأولى على عمق ٧٠-١م؛ حيث تذكُر بعض الدراسات أن شبام كان بها قنوات لتصريف مياه المدينة، ومياه الأمطار النازلة من سطوح المباني، وقد كان تصريفها يتمّ إلى خارج المدينة.

٢. بقايا جدران طينية في طبقاتها الثانية، عبارة عن جدران طينية، تمتدّ إلى اتجاهات متعددة؛ حيث عثر على ذلك في بعض أجزاء المدينة في أثناء أعمال الحفر.

٣. العثور على أدوات خزفية كبيرة (أزيار) في وسط بوابة مدينة شبام، وهذا يُعَدُّ أهمّ اكتشاف؛ لأنه وجد على عمق ١,٨٠م، تحتوي على زخارف بارزة، يمكن مقارنتها بما هو موجود في (متحف سيئون).

٤. العثور على عتبة من الحجر، طولها ١م، يعود إلى عصر ما قبل الإسلام.

• الإجراءات المتخذة بعد الاكتشافات:

من خلال هذه المكتشفات التي تم العثور عليها بالصدفة في أثناء تنفيذ مشروع البنية التحتية بشبام تم اتخاذ إجراءات إدارية عاجلة، تتمثل في رفع دراسة وتصور لتنفيذ مشروع سُمّي بـ(مشروع تحديد العمر الزمني لمدينة شبام)، يتمثل في إجراء مجسات وحفريات في وسط ونواحي مدينة شبام؛ للخروج بحقائق علمية منهجية في تحديد العمر الزمني لتاريخ نشوء مدينة شبام، يقوم بتنفيذ هذا المشروع خبراء ومختصّون في علم الآثار بالتنسيق مع الهيئة العامة للآثار بسيئون، وتمويل الصندوق الاجتماعي للتنمية - صنعاء، لكنّ المؤسف له أنّ هذا المشروع لم يُنَفَّذْ إلى اليوم.

ثانيا: اكتشافات مدينة تريم:

في مدينة تريم يسعى مكتب الهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية شبام ووادي حضرموت إلى التدخل في ترميم وصيانة بعض المعالم التاريخية، وكان من أبرز المشاريع في تريم مشروع استكمال وترميم قصر الرناد التاريخي، الذي تحدثتْ عنه المصادر بأنه من القصور التي يعود تاريخ نشأته منذ عصر ما قبل الإسلام، ويقع الحصن وسط المدينة القديمة، بجوار جامع تريم، ويعد من أقدم الحصون في المدينة، ويتربع الحصن على الهضبة الواقعة وسط البلدة، وقد شهد جميع المراحل التي عاشتها البلدة، بدءاً من عصر ما قبل الإسلام؛ حيث يتردّد عند كثير من المؤرخين أن حصن الرناد يرجع بناؤه إلى عهد قديم قبل الإسلام، وقد ذكر ذلك السيد علي ابن الإمام عبدالرحمن بن محمد المشهور، أن حصن الرناد بني قبل البعثة المحمدية بأربعمائة عام، ويذكر الشاطري في كتابه (أدوار التاريخ الحضرمي) أن حصن الرناد بتريم بني على أنقاضه قصر سلطاني، ويقال إنهم عثروا فيه على رأس حيوان من الرخام الأبيض الجميل، وتوجد به كتابات مسندية.

إنّ مشروع ترميم حصن الرناد قد بدأ عام ٢٠٠٧م بتمويل من السلطة المحلية بمحافظة حضرموت وإشراف مكتب الهيئة بشبام، وقد تمّ إعداد دراسة متكاملة لتوثيق القصر من حيث رسم لمساقط طوابق القصر، وكذلك توثيق لكافة العناصر الزخرفية والمعمارية الطينية الموجودة في ثنايا القصر، وتمّ تشكيل فريق عمل فنّيّ مختصّ بأعمال الترميم، وفريق أثري مختصّ في الجوانب الأثرية.

• اكتشافات الصدفة:

في أثناء تنفيذ أعمال الترميم في باحة وسور القصر الداخلي من الجهة الجنوبية تمّ العثور على أساسات حجرية ظهرت في جدار السور، عبارة عن أحجار متراصة مع بعضها البعض، بارتفاع حوالي متر، وعند فحص نوعية الأحجار تبيّن أنها تعود إلى أساسات حقبة ما قبل الإسلام، وهذا يعطي دلالة أن قصر الرناد تعود نشأته إلى ما قبل الإسلام، وأن طوابق البناء السفلية هي جزء من مبنى قديم، كما عُثِر على مذبح حجريّ بطول متر، وكذلك ظهرت أجزاء من جدران حجرية في أثناء رفع كمية الأطيان في ساحة القصر مما يؤكّد أنّ القصر مرّ بعدّة

حقب تاريخية منذ ما قبل الإسلام والحقبة الإسلامية وبخاصة ولاة الدويلات اليمنية في عهد دولة بني زياد(٢٠٤-٤٢٦هـ/ ٨١٩-١٠٣٥م)، الذين حكموا تريم، وبخاصة في عهد الحسين بن سلامة آخر حكام الدولة الزيادية (٣٩٣-٤٢٦ هـ/ ١٠٠٣-١٠٣٥م)، كما تذكر المصادر أن السلطان عبدالله بن راشد، أحد أشهر سلاطين الدولة الراشدية، أنّه جدّد عمارة القصر، ويقال له إذ ذاك (مصنعة الرناد)، وكان ذلك في سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م. وفي حوادث تاريخ شنبل يذكر أن في سنة ٦٢٢هـ سقط جانب من مصنعة تريم الأيسر من بناء عبدالله بن راشد، فبناه مسعود بن يماني في منتصف القرن السابع الهجري، وجعل فيه بابًا (انظر تاريخ شنبل). أمّا آخر تجديد فيه فكان في سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م في عهد حاكم تريم آنذاك محمد بن حسن الكثيري، والذي دعا المهندس علوي بن أبي بكر الكاف ليشرف على عملية إعادة البناء.

إن هذه الاكتشافات الأثرية التي كشفت بالصدفة تعطي دلالة على قدم قصر الرناد، ولكنّها ليستْ كافية لدراسة قصر كهذا بحجمه ومساحته وإنّما فرضت علينا مخاطبة الجهات المختصة لإجراء حفريات أثرية منظّمة وعلمية حتى نخرج بمعلومة صحيحة مؤكّدة عند الحديث عن البدايات الأولى لنشوء قصر الرناد.

ولكن المؤسف له أيضًا أنّنا لم نستطع تنفيذ أي أعمال أثرية بسبب غياب الوعي الأثري لدى السلطات العليا بالمحافظة.

• الخاتمة:

إنّ أي حديث عن نشوء المدن القديمة لا بد أن يكون مقترنًا بدلائل وشواهد أثرية، وهي الفيصل والمرجع لصياغة تاريخ المدن بطريقة نحفظ فيها تاريخنا من تأويلات ونظريات ليست مؤكدة. نتمنّى أن يكون للمراكز العلمية دورٌ في توثيق تاريخنا وحضارتنا، بالتعاون مع جهات الاختصاص الحكومية، وعمل دراسات ميدانية علمية ممنهجة حتى نستطيع أن نشارك في عملية صياغة تاريخ وحضارة الشعوب. انتهى .....

مكتشفات من مدينة تريم

---

* أخصائي آثار - مدير عام الهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية - فرع شبام ووادي حضرموت.

• المراجع:

١. الإرياني، مطهر علي: في تاريخ اليمن، نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمني، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م.

٢. الشاطري، محمد بن أحمد: أدوار التاريخ الحضرمي، جزآن، دار المهاجر، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣. شكري، محمد سعيد: تأسيس مدينة شبام وتاريخها السياسي في العصور الوسطى، مجلة أسيا، العدد(٨) ديسمبر ١٩٩٩م، ص١٢٦-١٥٢.

٤. الهمداني، أبي محمد الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة دار الإرشاد، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

في رحاب مخطوطات الأحقاف ١٩٨٣ - ٢٠٠٣م

(٢ - ٢)

د. أحمد صالح رابضة*

لجنة فهرسة المخطوطات وعرضها على شبكة الإنترنت:

بناء على الاتفاقيات المبرمة بين (رئاسة جامعة عدن) ممثلة برئيسها الأسبق الأستاذ الدكتور صالح علي باصرة، و(جامعة أكستر) في بريطانيا ممثلة برئيس (مركز دراسات البحر الأحمر في معهد الدراسات العربية والإسلامية) الدكتور عبدالسلام نور الدين[١]، والدكتور أحمد صالح رابضة كرئيس للجنة فهرست المخطوطات، تشكلت اللجنة برئاسة كاتب هذه السطور بتاريخ ١٣/ ٣/ ٢٠٠٣م، وتم اختيار عناصرها من مجموعة من المدرسين والمهتمين بالمخطوطات والوثائق في مدينتي تريم وسيئون.

واستنادًا إلى أمر تكليف رئيس الجامعة لنا[٢] شرعت في قراءة مفردات المجموعة المكونة من (أربعمائة مخطوطة)، وتبيَّن لي أنها تميزت بالتنوع، وحسن الاختيار، والجودة وتفرّدت بمحتويات، وموضوعات علمية قيمة في الزراعة، والطب، والحساب، والجبر، والمقابلة وسواها.

واعتمدنا في فهرستها على طرائق التصنيف المعروفة، وتتبّعنا أرقام المخطوطات، ورفوفها وموضوعاتها الخاصة، والعامة ومؤلفيها، وتواريخ ميلادهم، ووفياتهم، وعدد الأوراق، ومضامين المحتويات، وما بها من إحالات وأسماء ناسخيها، وتاريخ نسخها، وعدد نسخها، ومقاساتها، والتشكيل، والتنقيط، والعلامات المائية فيها، وتوصيفها المادي، ونوع خطوطها وأوراقها، ومصادرها، ومحققيها، وما طرأ عليها، وأصابها من هشاشة وتلف في الخياطة، وتآرض واحتراق، وبلل ثم نوعية الورق، والمادة المصنوعة منها إلى غير ذلك.

وتعدّدت موضوعات هذه المخطوطات ومحتوياتها، منها ما يقع في نطاق الحساب مثل (الإرشاد في معرفة سباعيات الأعداد) لأحمد الحبشي، و(فائدة جليلة تتعلق بجمع المربعات والمكعبات) لأحمد بن محمد باعلوان، و(الأسرار المنطوية في المثلثات المستوية)، و(شرح الياسمينة في علم الجبر والمقابلة) لمحمد المارديني، و(الطريقة الواضحة إلى الجبر والمقابلة) لصالح بن غالب القعيطي، ومنها في علوم الطب، الطب الوقائي، مثل (رسالة في الطب) لمحمد بن عمر بحرق، التي قمت بدراستها وتحقيقها[٣]، و(الأدوية المنتخبة والأدوية المجربة)، مجهول المؤلف، و(الدرة السنية في زبدة الكتب الطبية)، و(الزلال الصافي والدواء الشافي) لعبدالرحمن باكثير، ومن المخطوطات الطبية المفيدة كتاب في الطب، يعالج أمراض الإنسان الجسدية والنفسية، مجهول المؤلف[٤]، وتتناول هذه المخطوطة الأمراض التي تصيب جسم الإنسان وأعضاءه وعلاجها، والأمراض وأعراضها وأسبابها.

ومن المخطوطات (تذكرة وأدوية) لمؤلفها علي بن حسن العطاس المتوفى ١١٧٢هـ[٥]، ومنها في الفلك (الشرك في علم الفلك) لعثمان العمودي، وفي علم المساحة مخطوطات مثل (شرح الأفهام المراحة في رياض الميسرة والإراحة) لأحمد عبدالله السانة، و(الروضة المباحة لمريدي التفاحة)، وفي التعليم (بشرى الكريم بشرح مسائل التعليم) لسعيد باعشن، وفي أحكام المنشطات (الجواب المحرر لأحكام المنشط والمخدر) لعبدالرحمن بن زياد، وفي التحذير من التمباك (تحذير الإخوان من شرب الدخان) لأبي بكر الأهدل، و(مخرج المتباك من دخان التمباك)، و(تحذير النساك عن شرب دخان التمباك) لعمر محمد باذيب، و(فائدة جليلة في شرب التتن)، وهناك من وقف موقف النقيض من ذلك، فهذا أحمد بن عوض الحضرمي يسمي مخطوطته (تنبيه الغبي الشاك القائل الجازم بتحريم التمباك)[٦] مؤكّدًا جواز تعاطيه دون حرمة أو كراهة، وفي الأحبار (كيمياء) (نبذة في صفة الحبر وصناعة المداد)، وفي السياسة على غالب الظن (سبائك الأبريز في الرد على الأنقريز) لأحمد بن عمر باذيب، و(السيف البتار على من يوالي الكفار) لعبدالله بن عبدالباري بن محمد الأهدل.

لقد كانت هذه المجموعة المختارة، لا سيما العلمية منها، منتقاة انتقاء نوعيًا، يقف على أسس ومعايير دقيقة، وللأمانة العلمية فقد كان للدكتور عبدالسلام نور الدين قصب السبق في

ذلك وحسن الاختيار، وكان قد زار (مكتبة الأحقاف) في السنوات الماضية، وانتقى هذه المجموعة العلمية التي امتازت بالتنوع والطرافة والمحتويات العلمية القيمة.

وأيًا كانت الحال، فهي تشتمل، كما ألمحنا فيما تقدم، على علوم شتَّى في النبات، والفلك، والزراعة، والطب، والأغذية، والمقابلة، والجبر، والحساب، والمساحة، وعلوم البحار، والمآثر، والمعالم، والرحلات، والطيور، والحيوانات، والبلدان، والفقه، والتفسير، والتصوف.

وثمة مخطوطات درست وحققت ونشرت من هذه المجموعة وهي (رسالة في الطب) لمحمد بن عمر بحرق المتوفى سنة ٩٣٠هـ التي قمت بدراستها وتحقيقها، ونشرت سنة ٢٠١٠م، وشرعت في دراسة وتحقيق رسالة طبية أخرى حالت الظروف دون إتمامها.

نظرات عابرة في المتون النادرة:

وفي أثناء العمل الجاد في الفهرسة، كنت أجيل النظر في متون بعض المخطوطات، وعلى الأخص، الطبية، ولعلي لا أعدو جانب الحقيقة إذا قلت إن إمعان النظر في المتون أفضل من الفهرسة، فهي قراءات نادرة قد لا تتكرر، ولهذا حرصت على نقل بعض الفقرات الطبية، ففي كتاب الأغذية والأشربة، وهو جزء من مخطوطة (تيسير الأسباب والعلامات في الطبائع والعلاجات) للشارح نفيس بن عوض بن حكيم، وهي مخطوطة كتبت عام ١٠٠٨هـ[٧]، فالحمص الأبيض، وهو حار في آخر الدرجة الأولى، رطب في وسطها وأكله يهيج شهوة الجماع ويزيد في المني ويحسن النوم ويسمن خاصة إذا خلط بالباقلاء، وإذا نقع في الماء وأكل على الريق نَيْئًا يحدث[٨].

واللوبيا تهيج الباءة وتدرُّ البول والطمث وخاصة اللوبيا الحمراء، واللوبيا ليست بصالحة للمعدة بل تغثي، ولذلك ينبغي أن تؤكل بالخل.

وثمة كتاب اسمه (كتاب في الطب) في المعروضات عدد أوراقه ١٨١، ومؤلفه يمني مجهول، بناه على طريقة الجداول، وبطريقة معاصرة حديثة، ويعد من النوادر، والنسخة من مخطوطات القرن العاشر الهجري، وعليها تصحيح وفي صدرها تاريخ ١٢٥٥هـ.

وهذا نموذج منه على النحو الآتي ورقة ٦٢:

عنكبوت عظم عاج عقيق عسل عشر علك، قيل إن العنكبوت عظم الإنسان، يقوي القلب، ينفع من إذا علق على الرأس، محرق يشفي وينفع من السعال، ينفع من الصداع، من الصرع، الخفقان، البارد المزمن، وإذا طبخ بدهن ورد مشروبًا، يدر البول، وينفع في الأذن سكت وجعها من وجع الركبتين وألمها، ويخرج الشوك، والسلي، ويلحم الجراحات وينبت.

ومن المخطوطات الطبية (الرحمة في علم الطب) -طب شعبي- لمهدي بن علي إبراهيم المقري المتوفى ٨١٥هـ[٩]، وهي تتناول علم الطبيعة، وما أودع الله فيها من الحكمة وطبائع الأغذية والأدوية، وما يصلح للبدن، وصلاح الأمراض الجامعة بكل عضو، فيضع لك علاجًا لخفة الرأس، وعدم النوم من العسل منزوع الرغوة والسمن، ويصف لك علاجًا للشقيقة بنقع أفيون، وزعفران، ويسحقان بخل وماء ورد وتطلى به الأصداغ، ولأوجاع الأذن يؤخذ سليط ويطرح فيه ثوم وفلفل ومصطكى وقرنفل، ويغلى على النار اللينة حتى يزيد زبدًا أبيض، ثم يقطر منه في الأذن فاترًا، ويجعل منه في قطنة.

وألف سلاطين الدولة القعيطية في حضرموت مصنفات عدة وفي مجالات مختلفة، من ذلك كتاب منسوب للسلطان صالح بن غالب القعيطي المتوفى ١٣٧٥هـ في الرياضيات في حساب المثلثات المعروف بـ(الأسرار المنطوية في المثلثات المستوية)، وفيه جداول وأشكال وكتب بخط نسخي إلَّا أنه حديث عهد، وله كتاب في علوم البحار بعنوان (الملاحة البحرية)[١٠] يحتوي على شرح جملة من المصطلحات الهندسية، وشرح مدروس عن الملاحة البحرية، وآخر في الرياضيات بعنوان (الطريقة الواضحة إلى الجبر والمقابلة)[١١].

ومخطوطة (حسن الاختصار بحل سبك النضار نظم نزهة النظار) لعبدالله سعيد باقشير[١٢]، وهي تتناول علم الحساب من جمع وضرب وطرح وأشكال الأعداد.

وثمة مخطوطات في صناعة الحبر (كيمياء) منها رسالة لطيفة في معرفة عمل الأحبار وتركيبها[١٣].

وفي علم الفلك، ثمة مخطوطة بعنوان (نبذة في علم الفلك) لعبدالله بن عمر بامخرمة[١٤]، تناولت علم النجوم والمواقيت، وقسمه على أربعة فصول، ومثلها (جدولة لمعرفة المواقيت) لعمر بن حسن باهارون[١٥].

وعن الزلازل، هناك رسالة صغيرة عن الزلازل عنوانها (كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة) لعبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، في أربع أوراق[١٦]، وتحتوي على بعض الأذكار والأوراد التي تقال عند وقوع الزلزلة، وذلك في الورقتين الأولى منها، وفيما تلا ذلك ذكر للزلازل التي حدثت من هلاك قوم شعيب وحتى عام ٨٨١هـ، وكل حادثة مؤرخة بالعام الهجري.

العلاجات الشعبية للأمراض العصرية:

لقد استفاد الأقدمون والمحدثون من معطيات هذه المخطوطات، وفي الأخص، الطبية في علاج الكثير من الأمراض والعلل، وقد تتبعت هذه العلاجات في أثناء دراستي وتحقيقي لمخطوطة (رسالة في الطب) للعلامة محمد بن عمر بحرق المتوفى سنة ٩٣٠هـ[١٧]، وقد برز عدد من الباحثين - لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة- اعتنوا بهذه الدراسات، يحضرني منهم الساعة الباحث المجتهد عادل حاج باعكيم من أهالي مدينة الشحر، الذي حقق نموذجين من هذه المخطوطات الطبية في غالب الظن، وأهداني إحداهما وهي (مجربات باهرمز) في الطب الوقائي.

ومن العلاجات في تريم وحضرموت بعامة، استخدام الأهالي قهوة اللوز الصنعاني، بدقه وطحنه وغليه وشربه كقهوة تعالج الأرق، كما يعدّون زيت القرع (الدباء) الذي يزرع في تريم ويباع في أسواقها، علاجًا للمصاب بالأرق، وذلك بدهن الرأس به، وطريقة استخلاصه على حد تعبير الراوي (يشخونه)، أي يقطعونه ثم يغلونه من غير وضع الماء فيه، ومما يدل على نضجه فإنهم يضعون خوصه في الزيت، فإذا اشتعلت، فهذا يعني أنه أصبح زيتًا يدهن به الرأس.

ويأكل بعض الناس الخس؛ لأنه يجلب النوم ويزيل السهر والوسواس، وماؤه ينفع من الصداع، ويذكر صاحب (فوائد في الطب من حلية البنات والبنين) لمحمد بن عمر الحداد[١٨] أن الزبدة إذا دهنت بها (المرة)[١٩] المرأة بعد طهرها، أسرع الحمل لها مجرب صحيح على حد تعبيره، وأنبأني أحد المشاركين في لجنة الفهرسة أن بعض الأهالي يعتقدون بصحة ذلك.

ولوجع الأسنان والضروس، يسحق فلفل وثوم مع لباب خمير الحنطة، ويضمد به موضع الضرس، وإذا تآكلت الأسنان، أو تحركت يكون علاجها بدق العفص، وثمرة الورد والكركم دقًّا ناعمًا، ويعجن بخل ويضمد به أصول الأسنان فإنه يقوّيها.

دعوة قديمة حديثة:

كنا قد ألمحنا في كثير من المقالات الصحفية، منذ عقدين من الزمان، إلى ضرورة تحقيق المخطوطات والنصوص والرسائل الخطية العلمية في العلوم النظرية والتطبيقية، وإدراج مادة تحقيق المخطوطات في مناهج الدرس الجامعي، وعلى الأخص، في مساقي الماجستير والدكتوراه، فكثير من الرسائل والمخطوطات العلمية في مجالات الطب والفلك والرياضيات والجبر والمقابلة والكيمياء وعلوم مختلفة أخرى تحتفظ بها مكتبة الأحقاف، ومكتبات أهلية كثيرة في حضرموت وسواها لم تحقق ولم تدرس الدراسة المنهجية، وهي في مسيس الحاجة للعرض على مجهر الفحص العلمي المنهجي ومعرفة محتوياتها، فقد دأبت مراكز البحث والأكاديميات العلمية في العالم العربي والإسلامي، بما في ذلك كليات الطب والهندسة والاقتصاد وسواها على تحقيق المخطوطات المتعلقة بكل تخصص في هذه الكليات، وقد لمست ذلك في مشاركاتي في مؤتمرات تاريخ العلوم عند العرب التي عادة ما تعقد في بلاد الشام (سوريا) وبلدان أخرى، فوجدت الطبيب يدرس ويحقق المخطوطة الطبية، والمهندس في كلية الهندسة يحقق مخطوطة في مجالات المعمار والمآثر التاريخية، وأستاذ الرياضيات يحقق مخطوطة في الجبر والمقابلة، وأستاذ الكيمياء يحقق مادة أو نصوصًا أو رسالة كيميائية في صناعة الحبر والأحبار إلى غير ذلك، ووجدت حركة علمية زاهرة في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي تبدو ثمارها جلية في معارض الكتب التي تضم أعدادًا كبيرة من المخطوطات العلمية المحققة، أما نحن، فمعظم أطاريحنا يكرّر بعضها بعضًا، هذا لمن يمعن النظر في إحصاءات الأطاريح للأعوام الماضية والحالية، فلا جديد ولا جدة، حشو ونقول واقتباسات غير منضبطة لا طائل تحتها، ثم يمنح الطالب في آخر المطاف درجة ممتاز (امتياز) كقاعدة أساسية متبعة اليوم في الجامعة، ولهذا فإننا ندعو مجددًا إلى إبراز هذا التراث العلمي، الذي نؤكد غير مرة أنه لم يدرس دراسة أكاديمية، بيد أنه طبع بغثه ورثه لاعتبارات تجارية أو فئوية أو مذهبية ليس إلا، وندعو رئاسة الجامعة -جامعة عدن- إلى إصدار قرار تشترط فيه الجامعة لمن يتقدم لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه من دراسة وتحقيق مخطوطة في العلوم النظرية أو التطبيقية استكمالًا للرسالة المزمع تقديمها للأقسام العلمية.

إننا نعلم علم اليقين أن هذا المشروع سيقابل بالرفض، وسيقف منه بعض الأساتذة والمدرسين، وطلاب الدراسات العليا، موقف الحذر والحيطة وربما الرفض والنقض لأسباب وحجج واهية منها أن هذه المخطوطات طبعت ونشرت، ونحن لا ننفي صحة ما ذهبوا إليه، خاصة أننا هجرنا هذا التراث وجعلناه نهبًا للعبث والأرضة، بيد أننا نؤكد أن ما طبع لم يدرس ولم يحقق البتة، بل نشر بغثه ورثه، وربما زاد النساخ عليه ما لم يكن منه، فمعظم ما طبع منه، وهو قليل، ونادر الوجود، لا يعدو أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك لم نقف إلا على النزر اليسير منه، ويوصي بعض الاختصاصيين في علم تحقيق النصوص، والحال هذه، بدراسة وتحقيق ما طبع خلوًا من التحقيق، وإذا لم تتوافر نسخ مماثلة منه، فالأجدر بنا دراسة المخطوطة ومطابقة محتوياتها بالعلوم الحديثة، إذا أمكن ذلك، فهذا مسعى حميد في كل الأحوال، وإن لم يعد من صلب التحقيق، ولا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تظل أطاريح رسائل الماجستير والدكتوراه على هذه الشاكلة التي تسوّد اليوم، وعلى وجه الخصوص، في العلوم الإنسانية، فمعظمها اجترار لما سبقها، ونقول لا قيمة لها البتة.

كما تكتظ مراكز الوثائق في بلادنا بأعداد كبيرة ومتعدّدة من الوثائق، أبرزها أرشيف عدن في فترة الإدارة البريطانية على سبيل المثال، فلم نطلع على رسالة علمية واحدة تناولت هذا الأرشيف أو جانبًا منه تناولًا منهجيًا أكاديميًا، فالكلُّ ينأى بنفسه عن هذين الاتجاهين، المخطوطات والوثائق لصعوبة الخوض فيهما، ويميلون ميلًا شديدًا إلى الأطاريح الجاهزة والنصوص المجمّدة، التي يسهل اقتباسها، وهي لا تسمن ولا تغني من جوع.

ومن نافلة القول أن نعيد ما ذكرناه في عقود مضت من أن إغفال الجامعات وجامعتنا على وجه الخصوص، للعلوم

النظرية والتطبيقية في متون المخطوطات والوثائق، وهما ركيزتا الحضارة والتمدّن في الشعوب، لأمر لا ينبغي السكوت عنه طويلًا، فالتحديث يقتضي ذلك في العلوم الإنسانية بخاصة، ولهذا يجب أن نذكّر به دائمًا، وأن نطيل الوقوف أمامه، ونعالجه بكل ما أوتينا من قدرات وإمكانات متاحة؛ ذلك لأن مخرجات التعليم الجامعي العالي تميل إلى الانحطاط والانهيار، إذا ما قارنّا مخرجات التعليم العالي في بلادنا بمخرجات التعليم العالي في الأردن والعراق وسواهما، ونزعم أننا في مسيس الحاجة إلى تغيير النظم العلمية وتطويرها في مساقَيْ الماجستير والدكتوراه، على شاكلة النظم الأردنية والعراقية والسورية على سبيل المثال لا الحصر، وليس هذا الأمر بدعًا أو غريبًا في العمل الأكاديمي، فالجامعات العربية في الأقل، تشهد تطورًا علميًا ومنهجيًا، رغم المصاعب والمعوقات؛ لأنها وقفت على أسس متينة، فتطورت مناهجها الأكاديمية.

ولعلنا لو وقفنا على لائحة تقويم أداء عضو هيئة التدريس في جامعة عدن لسنة ٢٠١٠م(٢٠)، الذي أثير حولها لغط كثير لا مسوّغ له البتة، أثاره لفيف ممّنْ لا صلة لهم بالعمل الأكاديمي الهادف إلى تطوير الجامعة، لو أننا عملنا بها ستتنذ أو بالخطوات الأولية فيها في أدنى حدودها، لشهدت جامعة عدن، وهي من الجامعات العريقة في بلادنا، تطورًا ملحوظًا في الأداء الأكاديمي خلال السبع السنوات الماضية، ولنبذنا القاعدة التي باتت سائدة اليوم المتمثلة في الامتيازات الجوفاء.

وحريٌ بنا والحال هذه أن نتحلى بالدقة في اختيار الكفاءات العلمية العاملة في الحقل الأكاديمي، التي يجب أن تتمتع بالقدرة والدراية والخبرة فيما ترغب فيه من تخصصات قبل ولوجها أبواب الماجستير والدكتوراه، وليس فيما نقول مطعن لطاعن أو إساءة لأحد، بل هو طموح في الرفعة والعلو، وعناية فائقة بالعلم، وأخص بالذكر التراث العلمي الذي تزخر به مكتباتنا الخطية، والذي نال قسطًا وافرًا من الصد والإهمال، في حين اعتنى به الأجانب، وكانوا سبّاقين فيه لحيازة الفضيلة وإبرازه إلى حيز الوجود، لأن هؤلاء، قبل أن يقفوا على أسس البحث العلمي، ويمتلكوا أدواته، كانوا منشغلين بالدرس ومحبّين للبحث، ولهم مهارات وممارسات ودربات سابقة فيه، وهي ظاهرة قلّما نلمسها في الزخم الوظيفي المتنامي في جامعاتنا، والهادف للأسف إلى امتلاك ناصية الشهادات فحسب، ولا يغرب عن ذي مسكة في العلم، قلّت أو كثرت، خطأ هذا المنحى، وضعف هذا المسلك، الذي يورث المزيد من الضعف في التعليم الجامعي.

واستشعارًا بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا تجاه الأجيال، فقد أدرج (مركز الرشيد للتدريب والدراسات) في خطته العلمية لسنة ٢٠١٧م دورة تدريبية لتحقيق المخطوطات، وكان كاتب هذه السطور هو المشرف والمدرب والمحاضر فيها بتكليف من قبل رئيس مركز الرشيد، رئيس مجلس الأمناء الأستاذ الدكتور صالح علي باصرة، وذلك ابتداءً من يوم السبت ١ أبريل حتى الثلاثاء ٣٠ مايو ٢٠١٧م، قدمت فيها جملة من المحاضرات تركزت في ثلاثة محاور:

المحور الأول: الجوانب النظرية في التحقيق وطرائقه.

المحور الثاني: التحقيق العملي.

المحور الثالث: تجارب عملية في تحقيق النصوص.

وقد آتت الدورة ثمارها.

بقي لنا في الختام أن ندعو جامعة عدن منفذة (مشروع فهرست مخطوطات الأحقاف وعرضها على شبكة الإنترنت لسنة ٢٠٠٣م)، والجامعات اليمنية، ومراكز البحث العلمي أن تسهم في تصوير هذا الكم من المخطوطات العلمية وقدرها أربعمائة مخطوطة من القطع الكبير والصغير والرسائل والمجموعات، وفق طرائق التصوير الحديثة، وعرضها على شبكة الإنترنت؛ كي تكتمل الفائدة ويتمكن الباحثون والمحققون وطلاب الدراسات العليا في مساقَيْ الماجستير والدكتوراه من الاطلاع عليها وتصويرها ودراستها وتحقيقها.

تجدر الإشارة إلى أن رئيس مركز الرشيد قد بذل جهودًا بهدف تصويرها وعرضها على الشبكة، بيد أن العمل يتطلب ميزانية خاصة لا تقوى على تنفيذها إلا الجامعات ومراكز البحوث والوثائق والمخطوطات وهذا لم يتأت بعد.

الهوامش:

١. ينظر: اتفاقية فهرست المخطوطات، وثيقة مؤرخة ١٠/ ٣/ ٢٠٠٣م.

٢. وثيقة مؤرخة ١٠/ ٣/ ٢٠٠٣م، المرجع (١٠٠/ ١/ ٢/ ١).

٣. ينظر: الطبعة.

٤. رقم المخطوطة ٢٤٧.

٥. رقم المخطوطة ٢٤٥٨.

٦. رقمها ٣٠٧٧، الرف ٢، الخزانة ٣.

٧. مجموعة آل يحيى ٦٧، طب، تريم.

٨. لعل المراد يسهل.

٩. رقم المخطوطة ٢٤٦٢.

١٠. رقم المخطوطة ٢٥١٨، رقم الرف ١، خزانة ٢٤.

١١. رقم المخطوطة ٢٥٠٥.

١٢. رقم المخطوطة ٢٥١٠، الرف ٤، الخزانة ٢٤.

١٣. رقم المخطوطة ٢٤٩٠، الرف ٣، خزانة ٢٤.

١٤. رقم المخطوطة ٢٥٦٠، رقم ١، خزانة ١٥.

١٥. رقم المخطوطة ٢٥٤٧، الرف ١، خزانة ٢٥.

١٦. رقم المخطوطة ٢٦٢٦، الرف ٥، خزانة ٢٥.

١٧. لمن أراد الاستزادة فليرجع إلى دراستنا وتحقيقنا للمخطوطة، طبعة مطابع الإبداع، عدن ٢٠١٠م.

١٨. رقم المخطوطة ٢٤٦٧، الرف ١، خزانة ٢٤.

١٩. كذا في الأصل وهي عامية.

٢٠. الصادرة عن مركز التطوير الأكاديمي، سنة ٢٠١٠م.

قراءة نقدية في كتاب:

(أربعون حديثا في الأدب النبوي)

هي أربعون حديثًا تناولت عددًا من الآداب النبوية، وجامعها هو الدكتور علوي بن حامد بن شهاب الدين، الذي نزع في مؤلفاته إلى التجديد والتأصيل والإبداع في مختلف تناولاته الدينية، وقد اختص بكتابه هذا موضوعًا عزيزًا نحن اليوم بأمس الحاجة إليه مما نعانيه من غربة في آدابنا الإسلامية، وكربة في قيمنا المجتمعية، إنها (أربعون حديثًا في الأدب النبوي)، هكذا أطلق ابن شهاب على عنوان كتابه.

وحيث إن المؤلف الصديق ابن شهاب قد أهدى إليَّ هذا الكتاب، وأرسله إليَّ من تريم عبر الباحث مراد باخريصة، وطلب بكل تواضع مني إبداء رأيي في ما ضمه بين دفتيه، فقد وضعت طلبه هذا في مقام الأمر الأخوي، مع أنني أعترف -والصدق منجاة- بأن بضاعتي في العلوم الدينية بضاعة مزجاة، فوضعت يدي على قلمي الرصاص؛ لأقيد ما يعنُّ بخاطري من ملاحظات وأنا أتلو ذلك الكتاب الشهابي، الذي خف وزنه حجماً، وغلا ثمنه بما ضمه من جواهر أحاديثه وفوائده، وترونني الآن أرسلها في هذا المقال، موزعًا تلك الملاحظات ما بين المقدمة، والأحاديث، والفوائد، ومتفرقات تتعلق بالمراجع ولغة الكتاب.

د. أحمد هادي باحارثة

المقدمة:

لم يذكر ابن شهاب في مقدمة كتابه هذا أنه ملتزم بصحة جميع الأحاديث التي يوردها، وما كان أحراه بذلك، وهو المتخصص في الحديث وعلومه، في وقت كثر فيه الكلام والجدل حول هذه المنطقة الحديثية، وقد أشار بأنه سيقتصر فقط على الأحاديث النبوية، لكنه خالف ذلك باعتماد أثر عن صحابي، هو ابن عباس رضي الله عنهما؛ ليستنبط منه أحد الآداب، كما التزم أيضًا بذكر سبب الحديث، وحدثت له في ذلك إشكالات بنظرنا نوردها لاحقًا.

وقد تفرّد ابن شهاب بعزية جمع تلك الأربعين حديثًا في الأدب، وربما كان من المستحسن برأيي أن يذكر من سبقه ممّن خصُّوا الأدب بجمع أحاديثه في كتاب منفصل، أو في قسم خاص من بعض كتبهم، ولا سيما الإمام البخاري في كتابه (الأدب المفرد)، أو كتاب الأدب من جامعه الصحيح.

كما إنه كذلك لم يلزم نفسه في المقدمة بذكر مصادر فوائد أحاديثه، وفي رأيي أن الأولى هو إيراد مصادرها، ولا سيما في لطائفها، أو ما قد تتضمنه من أحكام كالحرمة والإباحة، خصوصًا ما فيه اختلاف بين العلماء، وتمنّيت أن يفعل ذلك كي نعلم الفوائد التي أتت من جانبه، واستنبطها هو بنفسه من تلك الأحاديث، وكان سيمثّل ذلك إضافة قوية لعلمه، وحفظًا لحقوقه الأدبية، كما سيدل على مستوى ذهنيته، ولطف معارفه.

وقد ألزم نفسه بالترجمة لصحابي كل حديث يورده، مع أنه غير ملزم بذلك؛ لكونه عملًا تاريخيًا محضًا، ولا يفيد موضوع الكتاب إفادة مباشرة، ومع ذلك فقد تراوحت تلك التراجم طولًا وقصرًا، وتفصيلًا وإيجازًا، دون معيار علمي محدّد سوى وفرة المعلومات أو شحتها عن بعض الصحابة، متنكبًا أحيانًا سبيل الاختيار والاختصار، ومن العجيب أنه يذكر اسم الصحابي مرّتين؛ في المتن لدى إيراد الحديث، وفي الهامش عند التخريج، من غير حاجة ظاهرة.

الأحاديث:

يكتفي ابن شهاب -غالبًا- في تخريج أحاديثه بمصدر واحد، إلا ما اتفق عليه الشيخان، فيذكرهما معًا بطبيعة الحال، وهو لم يلتزم بذكر حكم ما هو خارج الصحيحين من حيث الصحة والضعف، فتراوح بين ذكرها وعدمه، فينص أحيانًا - وهو الأكثر - على حكمه تصحيحًا أو تحسينًا، ثم إنه تارة يبين صاحب الحكم وينسبه إليه، وغالبًا ما يكون ذلك في هامش الصفحة، عدا الحديث (السابع والثلاثين) فذكر تحسينه في المتن، وتارة يهمل ذكره، وهنا أيضًا خفي عمل المؤلف الحديثي لنعلم ما باشر بنفسه الحكم بتصحيحه.

وقد اشتملت الأربعون حديثًا التي جمعها ابن شهاب على أحاديث فيها كلام من حيث صحتها وضعفها في مظانها؛ من كتب التخريج والعلل المعروفة لدى المشتغلين بعلوم الحديث كابن شهاب، وهي من تلك الأحاديث التي وردت خارج الصحيحين اللذين هما الوحيدان اللذان كادت الأمة تجمع على صحة ما جاء فيهما من أحاديث نبوية.

وفي الحديث الخامس والثلاثين سقط واضح؛ إذ سقطت من آخره لفظتان هما «والثلاثة ركب»، وعكسه في الحديث السادس والثلاثين؛ إذ زاد المؤلف بعده كلمة «بيمينه» لأحد رواة الحديث (ابن قدامة)، وكان بإمكانه أن يذكرها في الفوائد كما هي عادته في تفسير دلالات الأحاديث، وليس مقترنة بمتن الحديث، وقد صرح هو بذلك في الفائدة الثالثة بأن «لفظة بيمينه ليست من الحديث»، لكنه أغفل روايات أخرى ذكرها بعض المخرجين احتوت على تلك اللفظة، أو تحلُّ محلَّها لفظة بيده، فلم يُشِرْ إلى ذلك البتة، وسارع إلى إثبات سُنِّيَّة إثبات التسبيح عقب الصلوات بكلا اليدين؛ يمينها ويسارها، فلا عول على سائر الروايات، ولا على تضعيف ذلك الراوي الذي (حشكه) في المتن، ومع ذلك فالمسألة في نظري أقرب لجو العبادات وليس الآداب.

وقد جعل ابن شهاب من بين أحاديثه الأربعين أثرًا عن الصحابي حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، أو ما يسمَّى بالحديث الموقوف، وذلك في الحديث الثلاثين، وهو ليس حديثًا نبويًا، وقد ورد مرفوعًا في بعض روايته، لكنْ تشكَّك المحدثون في ذلك الرفع؛ لذا ربما أعرض عنها ابن شهاب،

د. علوي بن حامد بن شهاب الدين

لكنْ لا أدري لماذا أثبت ذلك الأثر مخالفًا ما التزمه من كون أربعينه كلها نبوية؟! إلا إذا كان يراه في حكم الرفع، لكن برأيي لا أراه كذلك؛ لأنه لم يتضمَّنْ خبرًا غيبيًا، أو حكمًا تعبُّديًا، بل هو نصيحة مجرَّدة، قد تأتي على لسان أي شخص ذي حكمة ورويَّة، فيبقى السؤال أو الإشكال قائمًا.

وثُمَّت آداب بعينها أطال ابن شهاب الوقوف عندها، بتعدُّد ما ورد فيها من أحاديث، كآداب الطعام التي خصَّها وحدها بربع أحاديث الكتاب، أي نحو عشرة أحاديث، وظفر العُطاس وتشميته بخمسة أحاديث، وهناك أحاديث هي أدخل برأيي في باب العبادات، وليس الآداب، كالحديث السادس والثلاثين المتعلق بسُنِّيَّة التسبيح باليدين، وكان ممكن أن يشغل مكانه، أو مكان ذلك التعدد الذي قد يصل إلى التكرار، بأحاديث آداب أخرى لم يوردها، ومجتمعنا بحاجة ماسة بتذكيره بها.

وكان بإمكانه في هذه الحالة الاستعانة بصنيع الإمام البخاري في (الأدب المفرد)، أو في كتاب الأدب من صحيحه، فيأخذ منها آدابًا أخرى، كالآداب المتعلقة باللباس، والحوار، والتبسُّم، وطلاقة الوجه، وما شاكلها، مع بقاء الحق له في ذكر الأحاديث التي أوردها البخاري، أو يأتي بأحاديث أخرى متعلقة بها ودالة عليها.

أمَّا ما للأحاديث من سبب فإن حديثها عجب! فقد رأينا ابن شهاب يذكر أحيانًا أسبابًا لأحاديث بروايات مختلفة مع عدم اتفاقها في الحدث والموقف، أو بسبب ما لا يحتاج لسبب ولا يتصل به، فالحديث الرابع والعشرون لا يتضمن حادثة أو موقفًا بحاجة إلى تسبيب، فهو يبين ذكر العُطاس لا غير، ومع ذلك جعل له المؤلف سببًا مأخوذًا من حديث يخالفه في الصحابي، وفي اللفظ، ومن ثم فالموقفان متغايران، وفي الفوائد أغفل الذكر المغاير الذي ورد فيه، فضلًا عن الحديث المسبب في صحته مقال لدى أهل الشأن فقد ذكروا أن في سنده انقطاع، أو رجل مجهول.

الفوائد:

أورد ابن شهاب فوائد جمة ومهمة لجميع أحاديثه، وهي تمثل موطن اللباب من الأحاديث الواردة بكتابه، لكنه لم يكنْ يشير غالبًا لمصادرها، ولم يفصل ما هو من استنباطه، وما هو منقول، وقد يذكر قليلًا مصدرها، وأكثر مصدر تكرَّر عنده هو كتاب (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني، وغالبًا ما ينقل الفائدة عنه بنصها، وقد ينسب بعض تلك الفوائد لقائلها، لكن من غير مصدر، وأكثر من نسب إليه فوائد هو الخطابي، ومع ذلك بخل عليه بتعريف وجيز، حتى باسمه.

ونرى في بعض الأحاديث تكثر الفوائد وتتفرع؛ بحيث قد تتناول أمورًا خارج نطاق نص الحديث المذكور، وتدخل في باب المعلومات الإضافية، أو التتمّة المعرفية، وكان يفضّل الإشارة لهذا في مقدمة الكتاب، ومن ذلك الحديث الخامس؛ إذ فيه فائدتان (الثانية والثالثة) تعدّان من الآداب العامة للنوم، ذكرهما تتمّةً من غير أن يشير لهما حديث الباب، ومثله الحديث العشرون فائدته الثالثة ليست في نصه، كذلك الحديث الثامن والعشرون في فوائده معلومات يعوزها الدليل، ولم ترد في نص الحديث كقوله: «إن الله يحب العطاس»، كما اختلفت علة كراهة التثاؤب لديه في الفائدتين الثالثة والرابعة بين دلالتها على الشهوات والامتلاء والاسترخاء، وبين تغيُّر صورة الشخص المتثائب فيصبح شكل وجهه مضحكًا، وإن كنت لا أدري كيف سيتجنّب الواحد منّا ذلك التغيُّر (المضحك) لوجهه عندما يغلبه التثاؤب.

وبالمقابل رأينا في بعضها شحة قد لا تتجاوز الحديثين، وقد تهمل فوائد ظاهرة في نص الحديث، أو يمكن أن تستنبط منه، كالحديث التاسع عشر؛ إذ من الممكن وبوضوح أن يستنبط منه سؤال ذوي الفضل، وإحالة العلم إلى أهله، والحديث الثلاثون يمكن أن تستنبط منه فائدة تدعو للتواضع، أيضًا الحديث الحادي والثلاثون لم يبيّنْ فيه الفرق بين استعمال الفعلين ألح وأدخل كما يوهم لفظ الحديث، لكن توضح بعض الشروحات أنه لا فرق، ولا دلالة لتغايرهما، فيزول بذلك وهم التغاير بين اللفظين لذاته.

كذلك الحديث الثامن والعشرون ذُكِرَتْ فيه أمور لم تتطرق لها الفوائد، وهي الانحناء، والالتزام أو المعانقة، والتقبيل، وصرف جميع فوائده الستة إلى المصافحة فقط، ومما رآه في أحكامها استثناء الأمرد الحسن من عموم جواز المصافحة لخوف الفتنة، ولم يدلّلْ على ذلك الاستثناء، وهو قول لبعض العلماء كالنووي، وفيه من الحرج والتكلُّف ما لا يخفى.

لم يلزم ابن شهاب نفسه في مقدمة كتابه بذكر مصادر فوائد أحاديثه، وفي رأيي أن الأولى هو إيراد مصادرها، لا سيما في لطائفها وما تضمنته من أحكام.

وبعض الفوائد ذات إيجاز مُخلّ لنقص أو حصر، فمثال النقص في الحديث التاسع مثلًا؛ فقد ذكر في فائدته الأولى «كراهة ذكر عيوب الطعام»، وفيها إجمال يحتاج القارئ اليوم لتفصيله كالتفريق بين العيب الخلقي، والعيب الطبخي، وقد نصّ بعض الشارحين على التفريق بينهما، فقد يحتاج لذكر العيب الثاني لمضرّة قد تلحق بالآكل كزيادة الملح أو السكر أو الدهون لمن يظن أنه يحمل أمراضًا قد تثيرها تلك العيوب، أو حميّة قد تفسدها؛ فيتحرّج القارئ لتلك الفائدة المجملة من ذكرها؛ خشية وقوعه في محذور شرعي، ومخالفة للأدب النبوي.

ومثال الحصر في الفائدة الثالثة للحديث العاشر حين حصر الأكل من وسط وأعلى الوعاء في الفاكهة وهو شامل لكلّ ما هو طعام متنوع، ومن بينها مثلًا المكسّرات، والمتعدّد الطبخات، ونحو ذلك، وحصره للعق في الأصابع الثلاثة في الحديث الحادي عشر بينما نصه أعمّ، والأكلون بكل أصابعهم كثُر، كما نسي إطلاق الأمر نفسه على مستخدمي الملاعق وجواز لعق ما علق بها من طعام لوجود العلّة نفسها.

ومثلها الفائدة الرابعة من الحديث التاسع عشر فقد حصر شرور الأسواق في رذيلتي الغش واليمين الكاذبة وهي أكثر من ذلك، كضياع الأوقات وتأخير الصلوات والصخب والغفلة وحبّ الدنيا وغيرها، وكذلك في الفائدة الخامسة من الحديث الحادي والعشرين؛ إذ حصر النياحة في لفظتي (وا ويلاه وا حسرتاه)، ولو قال هي نحو قول النائحة كذا لكان أدقّ وأشمل، أيضًا نراه في الحديث التاسع والثلاثين قد حصر حرمة إفشاء السرّ فيما يجري بين الرجل وزوجه في الفائدة الأولى، بينما أتى العنوان عامًا، وهو الأليق.

وبعض الفوائد قد تتكرر من حديث لآخر، كالفائدتين الأولى والخامسة من الحديث السادس عشر عن لعق الأصابع، وإعادة كلام النووي من غير نسبته إليه، وبعضها يذكر في غير موضعه، أو يناسبها حديث آخر من المذكورات، ومثال ذلك الحديث السابع والعشرون فهو يكاد يكون تكرارًا للحديث السابق له؛ لذا تداخلت فوائدهما، فالفائدتان الثانية والثالثة كان من الأحرى أن يذكرهما في الحديث السادس والعشرين، أما الفائدة الرابعة فهي تابعة لهذا الحديث مباشرة؛ لأنها مأخوذة من نصه وتخالف نص تاليه، فهو ينص قولًا على التشميت ثلاثًا، بينما تاليه، أي السابع والعشرون، ينص فعليًا على مرة واحدة فقط، ولم يقف المؤلف عند هذا الإشكال أو تلك المخالفة، أما الفائدة الخامسة فهي مناسبة للحديث الثالث والعشرين الذي يتناول أدب كيفية العُطاس، أي أنها أتت في غير موضعها، وكل تلك الإشكالات جاءت

بسبب تكرار أحاديث خمسة عن العَطَاس وحده.

وبعضها فوائد عامة ممكن تصدق على كل أحاديث الكتاب كالفائدة الثانية للحديث التاسع؛ إذ نصها «سعة خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم»، وهي فائدة لعلها تصلح لكل أحاديث الكتاب، ومثلها الفائدة الثانية من الحديث الثامن عشر؛ إذ تصلح لكل أحاديث الطعام.

ومن الفوائد ما يحتاج إلى تدقيق في صياغتها؛ حتى لا يشكل فهمها على قارئها، أو يسيء فهمها فلا يحسن تطبيقها، ومن ذلك الفائدة الثانية للحديث السابع عن كيفية التعامل مع القذاة التي تسقط في الإناء، فوردت الفائدة هكذا «استحباب إراقة المشروب الذي وقعت فيه القذاة»، وكان ابن شهاب قد فسر القذاة بأنها كالعود أو الشعرة، فنصُّ الفائدة أن يسكب الشارب مشروبه بمجرد أن يرى عودًا أو شعرة في إنائه، أي سيتخلص من كلِّ ما في الإناء، وفي ذلك تكلُّف وإسراف غير محمود، بل ليس من الأدب مطلقًا، بينما المقصود والمتعيِّن هو سكب بعض المشروب بحيث تنسلُّ معه القذاة، وهو ما نص عليه شارحو الحديث.

ومن ذلك الفائدة الأولى في الحديث الثلاثين المتضمن أثر ابن عباس، ونصُّها «لا بد للمسلم أن يذكر عيوبه حتى يتمكن من إصلاحها»، من غير أن يبيِّنَ هنا محلُّ الذكر أهو ذهنيٌّ أم لفظي؟ إذ قد يفهم القارئ من نص الأثر والفائدة أن يعدِّد عيوبه، ويجهر بها، ويفضح نفسه، ويهتك ستره، وهذا خلاف للأدب والمروءة، والأمر ليس كذلك كما نصت شروح هذا الأثر.

ومن ذلك الفائدة الرابعة من الحديث السادس عشر، وهي التي فسَّر فيها نسلتُ القصعة بمعنى نمسحها، ولم يبيِّنْ غرضَ المسح وأداته، وهو موهمٌ للتنظيف، وليس لِلَعق واللحس.

والفائدة الثالثة من الحديث الثاني والعشرين في غاية الإشكال، وهي تجيز التناجي لاثنين دون الثالث إذا لم يكن في الإثم والعدوان؛ ونسبه إلى مفهوم الحديث، وهو مفهوم غير مفهوم، ولم ينص عليه أحد على العموم؛ إذ كيف سيعلم الثالث أنهما لا يتناجيان، والنجوى هي كلام سرِّي، في إثم ولا عدوان، فلا يحزن، ثم إن المؤلف لم يفسِّرْ سبب حصول ذلك الحزن ليفهم من الحديث هذا الجواز العجيب، فالعلَّة لا تنحصر في خوف العدوان أو التآمر، بل تمتد إلى علة ظن الاحتقار، واتهام الرأي، كما قال الشُّرَّاح، وهذه العلة قائمة على كل حال، كذلك فات المؤلف إشارتان مهمتان وهما: تثبيت أن ذلك النهي يصدق في السفر للعابرين، وفي الحضر بالمجالس للحاضرين، والأخرى هي قياس التحدُّث بلغة لا يفهمها الثالث؛ لأنها قد أصبح مدلولها غير معلوم عنده كالنجوى، وهي مما نص عليه القوم.

ومن ناحية أخرى كثيرًا ما يؤدي إيراد بعض الفوائد لذكر أحاديث نبوية أخرى، أو عرض روايات متعدِّدة للحديث المذكور، وأحيانًا يورد آثارًا من أفعال بعض الصحابة وأقوالهم، وتشملها أيضًا جدليةُ الصِّحَّة والضَّعْف، التي تُعَدُّ بحقٍّ أكبرَ إشكالات الاستعانة بالحديث النبوي في الدلالات الدينية أخبارًا وأحكامًا، ولا يعلم تأويلها إلا الراسخون في العلم الحديثي، ولا يلقَّاها إلا ذو حظ عظيم.

تفرَّد ابن شهاب بميزَة جمع تلك الأربعين حديثًا في الأدب، وربما كان من المستحسن برأيي أن يذكر من سبقه ممن خصوا الأدب بجمع أحاديثه في كتاب منفصل أو في قسم خاص من بعض كتبهم.

اللغة:

أخطأ في ضبط بعض الألفاظ، وقد يكون الضبط لغويًا أو صرفيًا أو إملائيًا، فالخطأ اللُّغويُّ كان في لفظة (ألية) وهي بفتح الهمزة كما نصُّوا عليه، فرسمها مكسورة في الحديث الثالث والثلاثين، والخطأ الصرفي كان في لفظة (ضِجعة) في الحديث الخامس، وهي بكسر الضاد؛ لأنها اسم هيئة، فجعلها بالفتح كأنها اسم مرة، والخطأ الإملائي المتكرِّر أنه رسم اسم (أبو داود) صاحب السنن بواوين، وهو بواو واحد.

ونرى ابن شهاب أحيانًا يذكر معاني بعض المفردات الواردة في أحاديثه، لكنه يهمل معاني أخرى غيرها مما هو مكرَّر بكتابه، مع وجود الحاجة إليه، كتفسير كلمات اللغق، والتشميت، التناجي، تفسيرًا لغويًا، وفي الحديث الأخير كان يزيد في صياغته لفائدتيه كلمتي «في هذا»، و«في الحديث» دون حاجة.

المراجع:

أورد المؤلف ابن شهاب في آخر كتابه قائمة بمراجع الكتاب ومصادره التي عاد إليها، سواء كانت حديثية، أو فقهية، أو لغوية، أو أدبية، أو غيرها، لكنَّه لم يستوعبْ كل ما أورده منها في تلك القائمة، ومن بين ما أهمل ذكره أربعة كتب: هي: كتاب (جامع السيوطي)، وكتاب (ملحق مصنف عبدالرزاق)، وكتاب (خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام) للنووي، وكتاب (أزواج الرسول) للمؤلف نفسه، أي ابن شهاب.

المجلات الصادرة بحضرموت بين التوقف والاستمرار

من الجميل والرائع أن نجد حراكًا ثقافيًا متنوعًا في حضرموت يوزع بين المطبوعات الورقية - سواء كانت صحفًا أو مجلات أو كتبًا وغيرها - وبين الصفحات الإلكترونية من صحافة وإعلام، وبالرغم من طغيان الجانب الإلكتروني إلا أن للمطبوعات الورقية عشاقها ومتابعوها وموثقوها.. وفي حضرموت ما زال الاهتمام بالمطبوعات الورقية حاضراً بقوة.. وفي موضوعي هذا سيقتصر الحديث على الجانب الورقي من هذه المطبوعات وبالتحديد عن المجلات التي أهتم بها كثيراً وأقتنيها وأوثقها وأبحث عن أعدادها هنا وهناك لاستكمال سلسلة الأعداد لأي مجلة صادرة هنا بحضرموت البلد الغني بموروثه الثقافي والحضاري والاحتفاظ بها..

محمد سالم بن صويلح

وفي هذا الموضوع سأسلط الضوء على عددٍ من المجلات التي صدرت واستمر إصدارها أو توقفت لأسباب موضوعية، كثيرة هي المجلات التي صدرت بحضرموت، وحديثي سيكون بحسب المجلات المتوافرة لدي أو بما حصلت عليه من معلومات ممن استعنت بهم عن أعداد أخرى غير متوافرة لدي، ولن أتوغل كثيراً فالحديث سيقتصر على المجلات الصادرة منذ بداية الألفية الثالثة وقد يزيد عن ذلك لبعض الأعداد التي صدرت قبل هذه المدة وما زالت تصدر بعد ذلك.

وبعد هذه المقدمة المقتضبة أبدأ حديثي عن هذه المجلات حيث سأذكر كل مجلة على حدة مستعرضًا تاريخ صدورها، ومسيرتها، وجهة إصدارها، وآخر عدد منها، وسبب توقفها إذا كانت قد توقفت عن النشر، وسيكون الحديث عن ٢٦ مجلة توصلت إليها وهي:

• مجلة (الفكر)

تصدر مجلة (الفكر) عن (جمعية المؤرخ سعيد عوض باوزير الثقافية) بمدينة غيل باوزير، حيث صدر أول عدد

منها للفترة من يناير - مارس عام ١٩٩٦م في شكل نشرة تكونت من (١٢ صفحة) تراس تحريرها الأستاذ نجيب سعيد باوزير، وذكر في افتتاحية العدد (الأول): أن اختيار اسم الفكر لهذه النشرة جاء تعبيراً عن الوفاء للمجلة التي حملت نفس الاسم والتي كانت تصدر في الستينيات عن دار الطليعة ولم يصدر منها إلا أربعة أعداد فقط، وشارك في تحريرها والكتابة في أعدادها الأربعة الأستاذ سعيد عوض باوزير.

وهي مجلة فصلية ثقافية جامعة، استمرت هذه المجلة في الإصدار حتى عام ٢٠١٤م حيث صدر منها ٤٠ عدداً، ولأسباب مادية توقفت عند العدد رقم (٤٠) الصادر عام ٢٠١٤م، وبعد توقف دام قرابة أربعة أعوام تعود المجلة للإصدار من جديد خلال هذا العام ٢٠١٨م في عددها رقم (٤١)، وقد شهدت المجلة تطوراً ملحوظًا خلال مسيرتها من مجرد نشرة بالأبيض والأسود إلى مجلة ذات صفحات أكثر عدداً، وغلافًا ملونًا.

• مجلة (الحومة)

الحومة مجلة فصلية تصدر عن اللجنة الثقافية والإعلامية بـ(نادي شباب القارة) مديرية غيل باوزير، حيث صدر العدد الأول في بداية الفصل الثالث من عام ١٩٩٩م، تزامنًا مع أربعينية الفقيد محمد عمر قمان عضو مجلس النواب حينها ابن القارة الذي لعب دورًا أساسيًا ومهمًا في حصول نادي

الشباب على الاعتراف الرسمي من قبل وزارة الشباب والرياضة. والبداية كانت متواضعة والإمكانيات محدودة، ومع استمرار صدورها في مواعيدها المحددة وتناولها للعديد من المواضيع الرياضية والثقافية والاجتماعية والتراثية والصحية والبيئية والتاريخية والمتابعات الإخبارية المحلية والمنوعات ومسابقة النشرة الفصلية بالإضافة إلى عمود رئيس ثابت تحت عنوان (شخصيات لا تنسى) يتم فيه تسليط الضوء في كل عدد على شخصية اجتماعية من أبناء المنطقة إضافة إلى التحقيقات واللقاءات مع بعض المسئولين والشخصيات، ونشر نتائج الامتحانات الفصلية والنهائية لأبناء القارة في مدارس التعليم الأساسي بنين وبنات كل هذه الأمور إضافة إلى هيئة تحرير النشرة ومخرجها الذين أسهموا في استمراريتها من خلال إبداعاتهم المختلفة والمتجددة.

واستمرت المجلة في الصدور وبدأت تدخل عليها الصفحات الملونة وزاد عدد صفحاتها إلى (٢٦ صفحة)، ولقيت رواجًا على مستوى المحافظة، فقد كانت توزع وتباع في بعض المكتبات في غيل باوزير والمكلا والشحر، وشارك الكثير من الكتاب من خارج المديرية في مواضيع المجلة، ويصدر هدية مع النشرة تقويم ميلادي مع بداية كل سنة ميلادية، كما تصدر بعض الملاحق التراثية والتربوية، وحاز النادي على درجة متقدمة في الجانب الثقافي أهلته لأن يكون ضمن أندية الدرجة الممتازة في الجانب الثقافي على مستوى الجمهورية.

كما تم تنظيم حلقتين نقاشيتين عن نشرة الحومة وذلك من خلال اللقاء بالعديد من الإعلاميين والوجهاء لمناقشة آفاق تطور المجلة مستقبلًا.

والدورة النقاشية الثانية التي عقدت في مارس ٢٠٠٧م حضرها وكيل المحافظة، ومدير مكتب الشباب والرياضة بالمحافظة، ومدير عام المديرية، ومدير مؤسسة الإذاعة والتلفزيون بالمحافظة وغيرهم.

بعد صدور العدد ٣٦ توقفت المجلة عن الصدور لمدة ٣ سنوات كاملة نتيجة لظروف مادية حينها، ثم عاودت الصدور بالعدد ٣٧ في يناير ٢٠١٢م، واستمرت حتى العدد ٤٠ في نهاية عام ٢٠١٢م، وتوقفت بعدها عن الصدور حتى اليوم.

• مجلة (شعاع الأمل):

المجلة الرائدة من حيث كثرة أعدادها الصادرة واستمراريتها إذ صدر منها (١٦٥) عددًا منذ عام ٢٠٠٠م حتى عام ٢٠١٨م، تصدر مجلة (شعاع الأمل) عن مؤسسة الأمل للتنمية بمنطقة بروم، وهي مجلة شهرية جامعة، صدر أول عدد منها للفترة أبريل - يونيو عام ٢٠٠٠م في شكل نشرة فصلية ترأس تحريرها الأستاذ عبدالعزيز محمد بامحسون، احتوى العدد الأول على ثماني صفحات، وكانت تحمل اسم (نشرة الأمل)، وتم تغيير اسمها ابتداءً من العدد الثالث الذي صدر في أكتوبر - ديسمبر عام ٢٠٠٠م حيث حملت اسم (مجلة الأمل) بدلًا من (نشرة الأمل)، وفي مطلع عام ٢٠٠١م قررت هيئة التحرير التقدم خطوة نحو التطوير وذلك بزيادة عدد الصفحات وتقديم الإصدار كل شهرين، وفي ديسمبر من العام نفسه حصلت المجلة على ترخيص رسمي من وزارة الإعلام، وفي مايو ٢٠٠٢م تقرر الإصدار الشهري للمجلة متزامنًا مع العدد رقم ١٢، واستمرت المجلة في الإصدار حتى عام ٢٠١٥م حيث صدر العدد رقم (١٦٣) في نوفمبر - ديسمبر ٢٠١٥م، وتوقفت بعده لأسباب مادية لأكثر من سنة ونصف حتى شهر مايو ٢٠١٧م حينها صدر العدد (١٦٤)، ثم توقفت مرة أخرى، وفي شهر أبريل ٢٠١٨م عادت المجلة من جديد في عددها رقم (١٦٥) وجاء في افتتاحية العدد للدكتور عمر بامحسون مؤسس ورئيس مجلس الإدارة ما نصه: (منذ أن مرت ظروف الحرب الأخيرة بالمنطقة ومجلتكم - أعزائي القراء- مجلة (شعاع الأمل) تتعثر في صدورها، فلم تعد تنتظم كما كانت من قبل، وإنما تصدر حسب الظروف والأسباب الموانية في أوقات ومناسبات غير منتظمة رسميًا...) وترأس التحرير في هذا العدد الدكتور عبدالقادر باعيسى.

احتوت أعداد مجلة (شعاع الأمل) على المئات من المواضيع والاستطلاعات والمقالات عن مناطق حضرموت وأعلامها وعاداتها وتقاليدها فهي بحق تعد كنزًا ثمينًا ومرجعًا لكثير من المعلومات عن حضرموت.

• مجلة (التراث)

التراث مجلة فصلية تعنى بشؤون التراث، تصدرها (جمعية أنصار الثقافة والتراث) بمديرية غيل باوزير، صدر أول عدد منها وهو رقم (صفر) في يونيو ٢٠٠١م، وهو بمسمى (نشرة التراث)، استمرت النشرة تصدر فصلية إلى العدد رقم ١٢، ومنذ العدد ١٣ تحولت النشرة إلى مجلة بمسمى (مجلة التراث) نصف سنوية، تعاقب على رئاسة النشرة الأستاذان سامي محمد بن شيخان، والأستاذ سالم عبدالله العطيشي ثم رأس تحريرها عندما تحولت إلى مجلة الأستاذ أكرم أحمد باشكيل رئيس الجمعية، استمرت المجلة في الصدور حتى العدد (١٧) الذي صدر في يناير - يونيو ٢٠٠٩م، ولم يصدر بعده أي عدد حتى اليوم لظروف مالية.

• مجلة (الدعوية)

الدعوية مجلة فصلية جامعة تعنى بشؤون الدعوة إلى الله والفكر والثقافة، يصدرها (منتدى الغيل الثقافي الاجتماعي) بمدينة غيل باوزير، برزت مجلة (الدعوية) في ساحة النشر سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م حين كان منتدى الغيل يسمى (المجلس الدعوي) قبل الترسيم، ومن هنا يظهر سبب التسمية بالدعوية. فقد رأى الإخوة القائمون على (المجلس الدعوي) في تلك السنة وبالأخص اللجنة العلمية فيه أن يصدروا هذه المجلة تعريفًا بالمجلس وإعلامًا بأنشطته وإبلاغًا للناس. صدرت الأعداد الأربعة الأولى من (اثنتي عشرة صفحة بحجم A٤) بلون واحد. ومن العدد (الخامس) إلى (الحادي عشر) أخذت الدعوية لونًا آخر في مسيرتها، وزاد عدد صفحاتها إلى (ست عشرة صفحة). وكانت في حجمها أشبه بالصحيفة منها بالمجلة. ومن العدد (الثاني عشر) إلى عددها (السابع والعشرين) اصطبغت الدعوية في غلافها بجميع الألوان، وبلغ عدد الصفحات (ثماني وعشرين صفحة). ثم تميزت أكثر بصفحاتها الملوّنة جميعها منذ صدور العدد الممتاز (٣٤) حتى العدد الأخير. تدرجت الدعوية في عدد النسخ المطبوعة منذ نشأتها من ٢٠٠ نسخة حتى ١٠٠٠ نسخة، ثم شهدت تراجعًا في الأعداد الأخيرة بسبب الوضع الراهن حتى وصل بها الأمر إلى ٥٠٠ نسخة. شغل الأستاذ محمد عبدالرحيم باوزير رئيس التحرير للأعداد (١- ٢) ثم الأعداد (٢٨- ٤٣)، فيما شغل الدكتور حسين علوي الحبشي رئيس التحرير للأعداد (٥ إلى ٢٧). صدر عددها رقم (٤٣) في ربيع الآخر ١٤٣٩هـ. وصدر آخر عدد منها وهو رقم (٤٤) في شهر رجب الماضي ١٤٣٩هـ الموافق شهر مارس ٢٠١٨م، وكان التحرير هذه المرة من نصيب الأستاذ جمال عبدالقادر بامخرمة، وقد شهدت المجلة في مدة مسيرتها عدم انتظام في صدورها ويعود ذلك إلى شحة مصادر التمويل، وقلة الدعم المالي المطلوب.

• مجلة (ضبضب)

صدر أول عدد منها في ١ مايو ٢٠٠٦م وكان على شكل نشرة شاملة تكونت هيئة التحرير من أربعة اعضاء وهم: فيصل صالح بازهير، وعبدالرحمن علي باشراحيل، وأحمد حسن سعد بن الشيخ سعد، وسالم عوض بن سلوم.

وهي مجلة فصلية ثقافية شاملة متنوعة (أدبًا، وتراثًا، ورياضة، وآثارًا، وشعرًا ومساجلات شعرية، ومقابلات مع بعض الشخصيات ومواضيع عامة وناقدة لبعض الظواهر السلبية في المجتمع) تصدر نصف سنوية (مؤقتًا) وتصدرها نقابة مكتب الأراضي م/ الشحر.

ومنذ العدد الثاني تم هيكلة هيئة التحرير وتسمية مهامهم كالآتي: فيصل صالح بازهير رئيس التحرير، عبدالرحمن علي باشراحيل سكرتير التحرير، وأسرة التحرير مكونة من: أحمد حسن سعد بن الشيخ سعد، سالم عوض بن سلوم، عبود أحمد منصور - مسؤول مالي.

وابتداء من العدد الثالث أصبحت تسميتها مجلة (ضبضب) بدلًا من نشرة، ولم يتغير رئيس التحرير، صدر آخر عدد من المجلة في عددها (السابع) يناير - يونيو ٢٠١١م،

وتوقفت المجلة بعد ذلك بسبب قلة الدعم المالي، وكذا الأحداث السياسية التي مرت بها البلاد، ويعتزم القائمون عليها إعادة إصدارها قريبًا حيث يوجد عدد جاهز هو العدد (الثامن)، وتم تجميع مواضيعه والإخراج الأولي له وتبقى اللمسات الأخيرة لإصداره.

• مجلة (دوعن)

مجلة دوعن مجلة ثقافية اجتماعية رياضية متنوعة تصدر عن نادي دوعن الرياضي الثقافي الاجتماعي صدر أول عدد منها في عام ٢٠٠٦م تحت اسم (دوعن الرياضي)، وكانت عبارة عن نشرة بالأبيض والأسود عدا غلافها، اكتفت تلك السنة بذلك العدد الوحيد، وفي السنة التي تليها لم يصدر أي عدد، أما سنة ٢٠٠٨م فكانت السنة التي انتظمت فيها المجلة من حيث الإصدار إذ صدر أربعة أعداد منها وحملت منذ العدد (الثاني) اسم مجلة بدلًا عن نشرة، ومنذ العدد (السادس) الذي صدر عام ٢٠٠٩م حدث تغيير في اسمها من (مجلة دوعن الرياضي) إلى (مجلة دوعن) دون إضافة الرياضي إلى اسم المجلة، وذلك بناء على طلب القراء الذين ارتأوا أن يكون اسمها كذلك نظرًا لغالبية المواضيع غير الرياضية التي تنشر بها وأيضًا حتى تكون أكثر شمولًا بدلًا من تخصيصها في جانب معين، واستمرت المجلة في الإصدار حتى عام ٢٠١٠م إذ بنهاية العام صدر العدد رقم (١٢) وكان مسك الختام لتتوقف المجلة ثلاث سنوات، ثم تعود للإصدار من جديد في عام ٢٠١٤م بعد أن وقّعت إدارة النادي اتفاقية تعاون مع مؤسسة البادية فرع دوعن حينها واحتوى أحد بنودها دعم إصدار (مجلة دوعن) بعدد واحد في العام، وصدر العدد رقم (١٣) لعام ٢٠١٤م، وفي عام ٢٠١٥م صدر العدد رقم (١٤) لتتوقف المجلة بشكل نهائي حتى يومنا هذا.

المجلة لم تقتصر على وادي دوعن فحسب بل امتدت لتصل ربوع حضرموت والمملكة العربية السعودية، وشارك في الكتابة فيها عدد من الكُتّاب والمثقفين من أبناء حضرموت في الداخل والخارج، المشرف العام هو الأستاذ غالب محمد بوحسن، تراس تحريرها الإعلامي يوسف عمر باسنبل، وشغل مدير التحرير الأستاذ صالح عبيد باسليم.

• مجلة (الساعية)

تصدر مجلة (الساعية) عن جمعية التراث بالحامي (لجنة إحياء التراث سابقًا)، وكان إصدارها كنشرة ثقافية منذ عام ١٩٩١م، عندما تأسست لجنة إحياء التراث البحري والشعبي بالحامي، وقد نشرت (الساعية) العشرات من المقالات الثقافية التي توثق تاريخ حضرموت المترجم من اللغات الإنجليزية، والألمانية، والفرنسية، وكتب فيها عدد من المؤرخين الحضارمة كالمؤرخ محمد عبدالقادر بافقيه والمؤرخ عبدالرحمن الملّاحي وغيرهم، وعندما تحولت اللجنة إلى جمعية رسمية عام ٢٠٠٧م تحت اسم (جمعية التراث بالحامي) صدرت (الساعية) كمجلة عام ٢٠٠٩م في عددها رقم (١٢) إلا أنها توقفت بعد ذلك عند هذا العدد لتوقف الجمعية عن ممارسة نشاطها بعد سفر رئيسها د. عادل الكسادي إلى الإمارات وغيرها من الأسباب.

• مجلة (سعاد)

مجلة (سعاد) هي مجلة ثقافية تراثية عامة فصلية، تصدرها (جمعية الشحر للثقافة والتراث)، التي تأسست في ١٧ أغسطس ٢٠٠٧م، برئاسة عمر عوض خريص، وأمين عام هو ثابت السعدي، ولجنة من خمسة أعضاء. وفي اجتماعها الأول أقرت الهيئة الإدارية بإصدار مجلة ثقافية، واختير لها اسم (سعاد)، ورئيسٌ للتحرير هو عمر عوض خريص، ومديرٌ للتحرير هو ثابت عبدالله السعدي، وهيئة تحرير من د. عمر سعيد الصبان، وأحمد عمر مسجدي، وجمال عبدالله حميد، ومستشارون هم الأستاذ عبدالرحمن الملاحي، ود. محمد أبوبكر حميد، ود. سعيد سالم الجريري.

وتم إصدار العدد (الأول) للفترة من أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٧م، وصدر العدد (الثاني) في يناير - مارس ٢٠٠٨م، فيما صدر العدد (الثالث) في أبريل - يونيو ٢٠٠٨م، وصدر (الرابع) يوليو - سبتمبر ٢٠٠٨م، وجاء العدد (الخامس) و(السادس) في إصدار واحد - أكتوبر ٢٠٠٨م وفي مارس ٢٠٠٩م، أضيف إلى المستشارين الأستاذ محمد عوض، وفي سنة ٢٠٠٩م صدر العدد (السابع) أبريل - يونيو، كما صدر في ذات السنة العدد (الثامن) أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٩م، ومنذ هذا العدد توسعت هيئة التحرير فكانت كالآتي:

١- عمر عوض خريص رئيسًا ٢- ثابت عبدالله السعدي نائبًا للرئيس ٣- جمال عبدالله حميد مديرًا للتحرير ٤- د. عمر سعيد الصبان سكرتيرًا للتحرير ٥- أحمد عمر مسجدي محررًا ٦- محمد سالم بن داود محررًا ٧- خالد محمد بلفقيه محررًا ٨- إبراهيم محمد البكري محررًا ٩- علي عقيل الكلالي الشئون المالية.

وصدر العدد (التاسع) في يناير - مارس ٢٠١٠م، وأيضًا في ذات العام صدر العدد (العاشر) أغسطس، وتوقفت المجلة لأكثر من سنة لمعوقات حالت دون ذلك منها عدم وصول أي دعم مالي لطباعة الأعداد وغيرها من الأسباب.

ثم عادت المجلة للنشر من جديد في العدد (الحادي عشر) يناير - مارس ٢٠١٢م، بهيئة جديدة هي:

١- عمر عوض خريص رئيسًا ٢- د.عمر سعيد الصبان مديرًا للتحرير ٣- جمال عبدالله حميد محررًا ٤- محمد سالم بن داود محررًا ٥- عمر سالم باصالح محررًا ٦- خالد محمد بلفقيه محررًا ٧- الشيخ سالم حسين السعدي مستشارًا إضافة إلى سابقيه، وصدر العدد (الثاني عشر) في أبريل - يونيو ٢٠١٢م، وتوقفت مرة أخرى عن الإصدار حتى عام ٢٠١٤م حيث صدر العدد (الثالث عشر) في يناير ٢٠١٤م، وبعد هذا التاريخ توقفت مجلة (سعاد) عن الصدور، لعدم الاستطاعة في دفع تكاليفها، ولظروف البلد وما مرت به من ثورات وحروب، فاتجهت الجمعية إلى النشاط السهل فكونت الصفحات والمجموعات في الفيس بوك والواتس آب... وشاركت هيئات أخرى في فعالياتها الثقافية وما زالت تزاول نشاطها في أضيق نطاقه الذي لا يكلف مالًا.

• مجلة (آفاق)

تصدر مجلة (آفاق) عن اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين – حضرموت، وهي

مجلة أدبية ثقافية فصلية، صدر عددها الـ(٢٦) عام ٢٠٠٧م متزامنًا مع السنة الخامسة والعشرين وهو اليوبيل الفضي للمجلة (١٩٨٢-٢٠٠٧م)، ثم صدر بعده عددان تقريبًا لتتوقف بعد ذلك بشكل نهائي لأسباب موضوعية. وعند عودة نشاط الاتحاد في قادم الأيام يعتزم القائمون عليها معاودة إصدارها.

• مجلة (خلفة)

تصدر (مجلة خلفة) عن جمعية التراث والآثار مديرية الديس الشرقية، وهي مجلة فصلية ثقافية، صدر عددها (الأول) في أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٧م، واستمرت في الإصدار بشكل غير منتظم بسبب الموارد المالية حيث صدر عددها (الثاني) في يونيو ٢٠٠٨م، و(الثالث) في مايو ٢٠٠٩م، بينما صدر العدد (الرابع) و(الخامس) في نوفمبر ٢٠١١م، واستمرت حتى عام ٢٠١٤م حيث صدرت الأعداد (٦، ٧، ٨) في أكتوبر ٢٠١٤م لتتوقف بعد ذلك طيلة أربع سنوات، ثم عادت من جديد في عام ٢٠١٨م حيث صدر العدد (٩، ١٠) في شهر أبريل ٢٠١٨م في طبعة واحدة، مؤسس المجلة ومشرفها العام حتى عام ٢٠١٤م سعيد عبدالرب الحوثري، بينما المشرف العام منذ العدد الصادر في أبريل ٢٠١٨م جمال عبدالرحمن قرنح، وشغل منصب رئيس التحرير للأعداد الأولى د. عبدالباسط سعيد الغرابي، ثم بقية الأعداد صالح سعيد بحرق.

• مجلة (سلامتك):

(سلامتك) مجلة صحية شاملة، تصدر شهريًا عن (مؤسسة حضرموت لمكافحة السرطان) عضو الاتحاد الخليجي لمكافحة السرطان، صدر العدد (صفر) في يونيو عام ٢٠٠٧م، فيما صدر العدد (الأول) للأشهر أغسطس، سبتمبر، أكتوبر ٢٠٠٧م، وقد صدرت الأعداد الأولى منها بشكل متقطع، ومنذ العدد (السادس) انتظمت المجلة في إصدارها، واستمرت في الإصدار حتى وصلت إلى العدد (٢٧) الذي صدر في أكتوبر ٢٠١٣م، لتتوقف بعدها المجلة عن الإصدار بشكل نهائي لعدم توافر التمويل الكافي، وقد قامت (إذاعة سلامتك) بعد ذلك التابعة للمؤسسة بعملية التوعية والتثقيف الصحي، ترأس تحرير المجلة منذ العدد (الأول) حتى العدد (الثاني عشر) محمد سالم بن ثعلب، ثم مجدي محمد بازياد من

العدد (١٣) حتى آخر عدد (٢٧)، اهتمت المجلة بالجانب الصحي من تثقيف وتوعية إلى جانب أخبار المؤسسة.

• مجلة (المكلا)

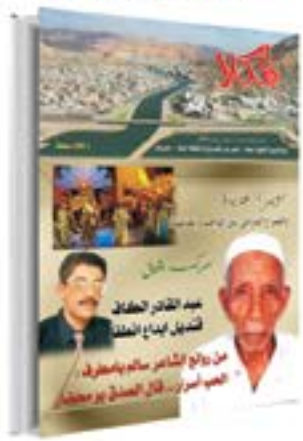

تصدر مجلة (المكلا) عن مكتب وزارة الثقافة بساحل حضرموت، صدر العدد (الأول) منها في يوليو - أغسطس ٢٠٠٨م ترأس تحريرها الأستاذ القدير صالح سعيد باعامر، وهي مجلة فصلية ثقافية جامعة، استمرت في الإصدار حتى عام ٢٠١٥م حيث صدر منها في هذه المدة (٢٣) عددًا، بعد ذلك توقفت المجلة عن الإصدار لأسباب مادية، وظلت متوقفة طيلة ثلاث سنوات وبالتحديد حتى عام ٢٠١٨م لتعود للإصدار من جديد في عددها رقم (٢٤) الذي صدر في مارس ٢٠١٨م عددًا خاصًا احتوى ملفًا عن الفنان الراحل أبوبكر سالم بلفقيه الذي وافته المنية يوم ١٠ ديسمبر ٢٠١٧م بالمملكة العربية السعودية، إضافة إلى مواضيع أخرى، وترأس تحريرها منذ هذا العدد الدكتور وجدي عبدالرحمن باوزير الذي يشغل مدير (مكتب وزارة الثقافة بساحل حضرموت) خلفًا للأستاذ القدير صالح سعيد باعامر الذي ظل رئيس تحرير للمجلة منذ العدد (الأول) حتى العدد (٢٣).

• مجلة (حضرموت)

مجلة (حضرموت) مجلة ثقافية متخصصة في عالم الكتب والمكتبات، تصدر مرتين في السنة عن (دار حضرموت للدراسات والنشر)، صدر العدد (الأول) منها في أبريل ٢٠٠٨م، الذي حمل اسم دورية، وكان المشرف العام لها هو الأستاذ سالم عبدالله بن سلمان، وترأس تحريرها د. عبدالقادر علي باعيسى، صدر العدد (الثاني) للسنة الأولى في يناير ٢٠٠٩م، وهنا حمل اسم مجلة، وصدر العدد (الثالث) في يوليو - ديسمبر ٢٠٠٩م، ومنذ السنة الثالثة من عمر المجلة صدر عددان معًا ضمن مجلد واحد حيث

صدر العدد (الرابع والخامس) في يناير - ديسمبر ٢٠١٠م، واستمرت الأعداد اللاحقة تصدر ضمن مجلد كل عددين معًا، وفي السنة الخامسة ٢٠١٣م صدرت ثلاثة أعداد في نسخة واحدة (الثامن والتاسع والعاشر)، استمرت المجلة في الإصدار حتى عام ٢٠١٤م وهي السنة السادسة للمجلة حيث صدر العدد (الحادي عشر والثاني عشر) يناير - ديسمبر لتتوقف المجلة بعده بشكل نهائي، ولم يصدر منها شيء حتى تاريخ موضوعنا هذا، ويعتزم القائم عليها إصدارها عند تحسن الأوضاع.

• مجلة (عندل)

تصدر مجلة (عندل) عن (مكتب وزارة الثقافة بوادي حضرموت والصحراء)، وهي مجلة ثقافية فصلية، ترأس تحريرها الأستاذ أحمد عبدالله بن دويس، فيما شغل مدير التحرير حسين أبوبكر العيدروس، صدر أول عدد تجريبي منها ويحمل الرقم (صفر) في

يوليو - سبتمبر ٢٠٠٩م، وعن سبب التسمية لهذه المجلة باسم (عندل) قال رئيس تحريرها في افتتاحية العدد: (.. تم اختيار اسمها من إحدى الحواضر الحضرمية التي كانت مرتعًا ثقافيًا لم يغفل ذكره الشاعر الجاهلي الشهير امرؤ القيس عن تذكره في شعره؛ فكانت عندل معتركًا لمعارك سجلها التاريخ كغيرها من مدن وقرى وادي حضرموت، فحق علينا أن نسهم في توثيق تراثنا لا سيما وقد ظهرت بوادر التطور العمراني تزاحم وتطمس ما خلفه الأجداد)، صدر العدد (الأول) وهو (الثاني في التسلسل) في يناير - مارس ٢٠١٠م وجاء متزامنًا مع بدء فعاليات تتويج (تريم) عاصمة للثقافة الإسلامية حيث احتوى عددًا من المواضيع عن تريم إلى جانب مواضيع أخرى، تأخر العدد (الثالث) عن الإصدار لأسباب خارجة عن إرادة أسرة المجلة بحسب ما ذُكر في افتتاحية العدد الذي صدر في يوليو - سبتمبر ٢٠١١م، وبنهاية العام ٢٠١١م صدر العدد (الرابع) وهو نهاية المطاف لتتوقف المجلة بعد ذلك بسبب توقف الاعتمادات المالية للطباعة، ويستمر توقفها لسبع سنوات أي إلى ٢٠١٨م حيث يعتزم القائمون عليها معاودة إصدارها في عددها (الخامس).

• مجلة (ريبون)

(ريبون) مجلة ثقافية أدبية فنية، تصدر عن (مكتب الثقافة بمديرية القطن)، استمرت في الإصدار حتى العدد رقم

(١٨) الذي صدر في عام ٢٠١١م، لتتوقف المجلة بعد ذلك لقلة الإمكانيات المادية، وتضم المجلة مواضيع دراسية ومقالات وإبداعات متنوعة، ومن المقرر إعادة إصدارها في هذا العام ٢٠١٨م بعد توقف دام قرابة ست سنوات.

• مجلة (هنا المكلا)

مجلة (هنا المكلا) تصدر عن إذاعة المكلا م/ حضرموت، وهي مجلة إذاعية اختصاصية فصلية تعنى بشؤون الإعلام الإذاعي والتلفزيوني صدر عددها (١٤) في أكتوبر - ديسمبر ٢٠١٣م، وهو عدد خاص بمناسبة الذكرى الـ(٤٦) لتأسيس إذاعة المكلا، وهو عدد وحيد لم يصدر بعده شيء، فيما صدرت جميع أعدادها في الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي من ١٩٨١- ١٩٨٥م، وكان رئيس التحرير للعدد (١٤) علي صالح باقي، ونائب رئيس التحرير خالد سعيد مدرك، ومدير التحرير سعيد عبدالله سويدان.

• مجلة (التواصل)

مجلة إسلامية علمية دعوية، تصدر كل شهرين عن (دار المصطفى بتريم للدراسات الإسلامية) صدر العدد (صفر) من المجلة في شعبان - رمضان ١٤٣٢هـ/ يوليو - أغسطس ٢٠١١م، فيما صدر العدد (الأول) في شوال - ذي القعدة ١٤٣٢هـ، واستمرت المجلة

في الصدور كل شهرين حتى وصلت إلى العدد (٢٣) الذي صدر في ذي القعدة - ذي الحجة ١٤٣٧هـ (٢٠١٦م) لتتوقف بعدها نهائيًا بسبب وجود عجز مالي وارتفاع كلفة الطباعة، ويعتزم القائمون عليها إعادة إصدارها عند تحسن الأوضاع التي تمر بها البلد.

• مجلة (الشافعية)

مجلة (الشافعية) مجلة تصدر كل ستة أشهر عن (مؤسسة الإمام الشافعي الخيرية) بسيئون بالتعاون مع (مركز وادي حضرموت للدراسات والنشر) بتريم، صدر عددها (الأول) في ١٤٣٧هـ (٢٠١٦م)، وفي العام الذي يليه صدر العددان (الثاني) للنصف الأول لسنة ١٤٣٨هـ، والعدد (الثالث) للنصف الثاني لسنة ١٤٣٨هـ، وتحوي المجلة على العديد من المواضيع الدينية التي تهتم بدرجة أساسية بالفقه الشافعي، مدير تحريرها هو الشيخ أكرم مبارك عصبان، والمشرف العام الشيخ عبدالله بن عبدالقادر باحميد، توقفت المجلة بعد العدد (الثالث) ولم يصدر منها شيء حتى تاريخ كتابة هذا الموضوع (٢٠١٨م).

• مجلة (النور)

تصدر هذه المجلة عن حلقات مسجد النور بالقرين - دوعن، وهي مجلة سنوية دينية تربوية ثقافية منوعة،

يشرف عليها الأستاذ عبدالله بن محسن الجفري، ويترأس تحريرها الأستاذ عبدالله حسن العماري، صدر عددها (الأول) في عام ٢٠١٠م وهي ما زالت مستمرة في الإصدار، إذ صدر العدد (التاسع) في العام الجاري، وتوثق المجلة إلى جانب أخبار الحلقات، كثيرًا من المواضيع الاستطلاعية عن مناطق دوعن، وكذا عدد من الأعلام الحضرمية، ومواضيع عديدة هادفة.

• مجلة (نبض الوادي)

مجلة طبية خاصة، يصدرها الأستاذ أحمد خميس فرارة - ماجستير إعلام ونائب مدير التثقيف والإعلام الصحي بمكتب الصحة بوادي حضرموت، تصدر بشكل فصلي وتُعنى بالجانب الصحي التوعي، يشارك فيها نخبة

من أطبـــــاء الوادي ذوي الكفاءات والخبرات، وتتطرق للمواضيع الصحية التي تلامس الواقع، وتلعب دورًا كبيرًا في الرقي بمستوى الوعي بين أفراد المجتمع، صدر منها ثلاثة أعداد في عام ٢٠١٧م (١، ٢، ٣). وفي انتظار الدعم لإصدار العدد (الرابع) الذي يعد جاهزًا من حـــيث مواضيعه إذ إنها تعتمد على الدعم المقدم من مالكي الوكالات والمؤسسات بالوادي.

• مجلة (حضرموت الثقافية)

مجلة فصلية تصدر عن (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشـــر) صدر العدد (الأول) منها في يوليو - سبتمبر ٢٠١٦م وكان صاحب الامتياز الأستاذ محمد سالم بن علي جابر، فيما المشرف العام أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي، ورئيس التحرير أ. صالح حسين الفردي، والسكرتير الفني حسن أحمد بلجعد، وصدر العدد (الثاني) في ذات العام، وفي عام ٢٠١٧م صدر أربـــعة أعداد هي (٣، ٤، ٥، ٦) ومنذ العدد (الثالث) أصبح د. عبدالقادر علي باعيسى رئيس التحرير بالمجلة، وصدر العدد (السابع) للأشهر الأولى من عام ٢٠١٨م، وما زالت المجلة تواصل إصدارها، وتحـــوي المجلة على الكثير من الدراسات والبحوث والمقالات ومواضيع جمّة عن تاريخ حـــضرموت، ويكتب فيها نخبة من كوادر حضرموت.

• مجلة (تريم الثقافية)

تصدر مجلة (تريم الثقافية) عن (مكتب الثقافة) بتريم، وهي مجلة سنوية صدر عددها (الأول) في أبـــريل ٢٠١٧م، يترأس تحـريرها عبـدالله سـعيد بـن حميدان، وبسبب عدم وجود الدعم تعثر إصدار العدد (الثاني) في هذا العام.

• مجلة (المشكاة)

مجلة تربـوية، تصدر عن (مكتب وزارة التربية والتعليم بالوادي والصحراء - محافظة حضرموت) صدر العدد (الأول) في يوليو ٢٠١٠م وهو العدد الوحـيد ثم توقفت بعد ذلك.

• مجلة (نبض)

مجلة ثقافية شبابية منوعة، تصدر عن (الجمعية الأهلية لرعاية الطالب - وادي

حضرموت، إدارة الإعلام)، صدر أول عدد تجريبي منها ويحمل الرقم (صفر) في ربـيع الأول ١٤٣١هـ/ مارس ٢٠١٠م متزامنًا مع فعاليات إعلان تريم عاصمة للثقـافة الإسـلامية، ومهرجان الروّاد الأول الذي نظمته الجمعية، وهو العدد الوحيد الذي لم يصدر بعده شيء.

• مجلة (المهندس)

صدر عددها (الأول)، وهو العدد الوحيد منها في يونيو ٢٠١٤م، وتصدر عن طلاب كلية الهندسة والبترول بجامعة حضرموت، توقفت بسبب عدم وجود دعم لاستمراريتها.

وختامًا هذا ما وسـعني الحـصول عليه والوصول إليه مـن المجـلات الصـادرة بحضرموت منذ مطلع الألفية الثالثة سواء المتوافرة لدي بمكتبـــتي الخاصة أو من خلال التواصل مع الكثير من الأســـاتذة والإخوة الذين تعاونوا معي بشكل مباشر أو غير مباشـــر في جمع المعلومات، فلهم جزيل الشكر والتقدير كلًا باسمه وصفته، وعلى النقيض هناك ممن تواصلنا معهم ولم يتجاوبـــوا معنا فلنلتمس لهم العذر، والمجلات غير التي ذكرنا قد تكون عديدة وكثيرة، ولكن بحســـب ما ذكرت فإن هذا هو ما استطعت الوصول إليه وتوثيقه.

89
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

الشاعر الحدّاد

من الشعر الغنائي إلى مساجلات الدان

ولد الشاعر الغنائي محمد عبدالله الحداد في عام ١٩٤٧م بمدينة الديس الشرقية.

تربى وعاش في كنف والده العلامة والقاضي عبدالله محفوظ الحداد الغني عن التعريف، ترعرع الحداد في أسرة معروفة بحب العلم وقول الشعر.

أنهى تعليمه الابتدائي في عام ١٩٦٠م بـ(المدرسة الغربية) بمدينة الديس الشرقية، انتقل بعدها إلى الشحر لتلقّي تعليمه المتوسط بالمدرسة الوسطى بالباغ.

كانَ متفوّقًا في تعليمه، ولتفوّقه التعليمي تحصّل على منحة دراسية لاستكمال دراسته الثانوية، وتحصل على الثانوية العامة في القسم العلمي من ثانوية الشويخ بدولة الكويت سنة ١٩٦٩م.

وفور عودته إلى مسقط رأسه من الكويت بعد تخرّجه فيها عمل بسلك التدريس بمدرسة الحامي، ثم انتقل في عام ١٩٧٠م إلى مدرسة الحافة بمديرية الريدة وقصيعر.

غيرَ أنّه لم يلبثْ كثيرًا حتى حصل على منحة جامعية لمواصلة التعليم الجامعي، فدرسَ في جامعة عدن، ثمّ نال شرف أول دفعة بجامعة عدن (كلية التربية بخور رمكسر) تخصص كيمياء ــ أحياء، ونال شهادة البكالاريوس سنة ١٩٧٤م. وبهذه الدرجة عُيّن معلّمًا بثانوية المكلا.

في عام ١٩٨١م انتقل إلى ثانوية الديس الشرقية ثانوية الصديق حاليًا في ضمن أول هيئة تدريس لها وظلّ معلّمًا لمادتي الأحياء والكيمياء حتى تقاعده عن العمل سنة ١٩٩٩م.

وافاه الأجل يوم الأربعاء الحادي عشر من مارس من عام ٢٠١٥م.

الحداد الشاعر:

انطلق صدى صوت الحداد مدوّيًا شاعرًا غنائيًا من خلال روائعه الغنائية التي جاءت كانطلاقة لمولود جديد في سماء الشعر الغنائي الحضرمي، وخصوصًا بعد رائعته الشهيرة (يا ساهر الليل)، فقد جعلت الساحة الفنية في حضرموت تلتفت إلى هذه الموهبة المتميّزة وتعطيه الكثير من الاهتمام، وتتابع كلّ ما يصدح به الفنانون من قصائده الرائعة، التي سجّلت حضورًا في الذاكرة الفنية، وخصوصًا اللون الغنائي الحضرمي الديسي الذي جاء امتدادًا لشعراء الأغنية الديسية من مؤسسها الشاعر والملحّن سعيد يمين عبدالله بايمين مرورًا بالملحّن سالم سعيد جبران، والأستاذ أحمد محفوظ الحداد، والموسيقي الملحّن عبدالله حسين الطفي، وسالم محمد مفلح (أبو راشد) وغيرهم.

د. عبدالباسط سعيد الغرابي

مساجلات الدان:

الشاعر الحداد ابن بيئته، التي اشتهرتْ وعُرفتْ بتراثها الأصيل في مختلف أطياف الدان الحضرمي والرقص الشعبي، وخصوصًا دان رقصة الهبيش أو الحفة.

بطبيعة الحال كانتْ مساجلات دان الحفة تجذب كلّ شعراء وادي عمر؛ لما تمتلكه من خصوصية نابعة من طبيعتها الخلابة من سواحلها الفضية من شرمة والقرن ويثمون، ومن وديانها الواسعة حمورة وميوان وقصماي، ومن

جبالها الشاهقة وأكواتها وحصونها الأثرية، ومن ينابيعها المختلفة الصيق، والعارة، والعيينة، وصنعه. من تلك الربوع كانت تقام المساجلات الشعرية، تكاد لا تخلو ليلة من الليالي المقمرة من مساجلات هذه الرقصة في خليف الصفر ووادي حبيب في الاحتفالات العامة والخاصة، في الزيارات والحراوات (الأعراس)، فهي تسجّل حضورها بقوة، فيرتادها كبار شعراء حضرموت من أبناء الديس الشرقية من أمثال سعيد باجعالة، وعوض وسعيد أبناء عبيد بامطرف وقد عرفا بأبناء طيور، وعبود ريحان، وسعيد عمرو الغرابي المعروف بابن عسيمة وغيرهم الكثير.

وما هؤلاء الشعراء إلا أمتداد لشعراء عرفتهم حضرموت وتميّزوا بهذا اللون من أمثال الشاعر عوض عبدالله بن سبيتي، وعلوي عبدالله المقدي، وعبدالله سعيد باعمرو، وعبدالله محمد بن سلم، وفرج باجعالة وغيرهم.

بالإضافة إلى مغنّي الدان المتميزين من أمثال سالم أبوبكر المقدي، وفرج سعيد مفلح، وصويلح بن حمزة، وسبيت بازهير، وسعيد سالمين الوعل، وسالم سعيد بن زغيو، وصبيح الغرابي وغيرهم الكثير. كما أنّ الديس الشرقية في ذلك الوقت كانت مقصد الكثير من شعراء حضرموت ومسرحاً لسجالاتهم ومساجلاتهم الرائعة من أمثال الشاعر حسين المحضار، والشاعر والملحّن عبدالله عمر سواد، والشاعر سعيد حمود .... إلخ.

كل هذه الخلفية رُسِّخَتْ في الذاكرة التاريخية للديس الشرقية، وجعلتْ من الحداد عاشقًا مُتَيَّمًا حتى النخاع لرقصة الهبيش وشعرائها وكلّ شيء متعلق بهذه الرقصة الجميلة، فهي النبع الذي لا ينضب، وهي ميدان الرهان لكل شاعر أراد أن يسجل اسمه في صفحات تاريخ الرقصة، فلها بريقها الجذاب الذي جعل الحداد يقتحم محرابها، ويخوض يمّها بكل جدارة وثقة، فكان له ما أراد، فأصبح من أبرز شعرائها، وبدأ يُحْسَب له ألف حساب في مساجلات دان الهبيش.

وفي سجل تاريخها الناصع استطاع الحداد أنْ يكوّن ثلاثيًا رائعًا في السبعينيات والثمانينيات إلى التسعينيات من القرن الماضي مع الشاعرين سعيد سالم باجعالة، والشاعر عبدالله محسن الحويري، واستطاع هذا الثلاثيُ الرائع أن يقدّم أجمل المساجلات الرائعة، التي ما تزال يستذكرها الرواة ويتناقلها هواة الدان الحضرمي.

وقد وصفهما أحد الشعراء حين قال :

يا يطيب السمر لوحيري حضر في سفته خو حسن
يا المغني نهم ثل صوتك ولا يحلا لك الليل

وعندما نستذكر ما دوّنه الرواة في ذاكرتهم، وما سجّله المدوّنون في مذكراتهم من هذه المساجلات فهي كثير غير أنّنا نأخذ هذه المساجلة التي حدثت وقائعها في السبعينيات من القرن الماضي في منطقة حضاتهم بمديرية الريدة وقصيعر يقول فيها:

الحداد :

بركة المحلة في حضاتهم
اليِن آدم حيث ما يحب قلبه يحل
أيش يبقي الواحد
لا با يحصل وقر للراس وكنان

سعيد بامطرف (ابن طيور) :

نا سري ودحق مهاشم
ما تنشد عا الحذا، عا القدم يا هبل
نتسمّع الراعد
ونسمع حنين البل والقعدان

سعيد با جعالة :

يا المعطرفي لك قلب ظالم
لا حسبنا كل ظالم با ضرب بك مثل
ما تأمن الشارد
كمين خيفان منك ما لحق مان

الحداد :

يا باجعالة لا تهاجم
ذا جبل سدك ولا حد يناطح جبل
أحسن وقع واهد
وشف نهشت الذئب ما هي نطحة الضان

سعيد بامطرف :

هذا الجزا، يا ود سالم
لي حصل منك بسد العدو يا النفل
عا تكدر المورد
لا با يردن النشر لحقوك شيطان

كان الحداد كثير الحضور في مساجلات الدان وخصوصًا فيما بعد التسعينيات، ففي هذه المرحلة ساجل العديد من الشعراء من أبناء الديس الشرقية من أمثال: سالم عمرو الغرابي الشهير بالعكر، وسعيد سبيتي، وطالب حسين المقدي الشهير بـ (أبوظبي)، ومحمد حسن الشنيني، وأحمد عوض الشنيني، وسعيد لحونة، وحاج باغويطة، وعبدالصمد باوزير وغيرهم الكثير.

كما ساجل الحداد شعراء من حضرموت من خارج المديرية من أمثال عبيد باجراد، وسعيد بلكديش، وحسن مصبح الجمحي، وثابت السعدي، وعبيد باجراد، وسعيد القبيلي وغيرهم الكثير.

ومن هذه المساجلات التي حدثت وقائعها عام ١٩٩٤م بمدينة الشحر يقول فيها الشاعر عبيد باجراد:

جيت وقت السمر وبلغت ماجوبي
وأنت كما ما خلفت وعدك وسعيد كل من حضر
ولعاد بانسال على الغائب
ولي حضروا معانا يسمرون

المحضار :

إن معك لي عسل نبغاه من نوبي
باطرح إذا مديت يدك لو جات اربع قطر
نا وياك باذكر الصاحب
ولا با ينتسي صاحب ولا مضنون

محمد بن شحنة :

يومنا ما قدر شديت مركوبي
با عطيك مقدارك وعزك ما نسيت كلما عبر
ولعاد با قاضي وبا حاسب
ونا إلا زين ليهم يحسبون

المحضار :

كل من جاء سبن عا حجرة الذوبي
والبز من كاكي ومن دك وأيش با يذوب الحجر
ما شيء انقلب في صاحبك قالب
يمكتون العرب والا يصيحون

باجعالة :

خلنا خلنا يا عبيد بعيوبي
ما بقيت شيء من مال جدك خليه لك يندخر
ما حد مع المغلوب عالغالب
وأن بقيت الصدق وسط الطين مدفون

باجراد :

السرين انطوت ما ثلت إغروبي
تبكي الدمع ما أنته لوحدك صابر وعادك صبر
لي من صلاة الصبح والمغرب
ولا جو ناس فوق البنر يسنون

المحضار :

يوم صوبك إذا تصوبت من صوبي
لا غلطت لازم بانردك لكن حكم القدر
لا قد نزل با وقف كما الحاجب
إذا با يوخرون ما يقدرون

باجعالة :

يوم طربت بك ما سمعت تعطروبي
أيش الذي هو قل سمعك لما خذاك الصور
نا نعرفك ما تنفذ الصائب
وغير الشر لي هو من كذاك مسهون

الوحيري :

خط داري معي ما ضاع مكتوبي

وأنته طمع ما كفاك جهدك تصطاد وسط العكر

لما متى يا سعيد تتخاطب

مع من قال لكم رحيب والعون

المحضار :

ليش تحكم وتلقي حكم مقلوبي

وليت وتخطيت وحدك كل من قفز يفتقر

يكويك لأنت بك الحالب

بفاله جبس شف كسرك ومعجون

الوحيري :

أنت يرضيك

والكذب والتزوير سدك كن لا تغض النظر

ما قلت شي، في حق بوطالب

مكانه صاحبي والسر مكنون

باجراد :

كلفونا قطع نخلتي وعنوبي

وأنت صبر عا دوم عليك ما دام عاده خضر

والحكم يمشي لحكم غالب

رضوا والا عساكم ليس ترضون

المحضار :

لا تكدر علي اليوم مشروبي

لا كدروا الصبيان شربك والحلو خلوه قر

ولعاد حد با يصلح الخارب

ولا حد هنا في الشحر ينسون

باجعالة :

با نغض النظر لا قدك هبهوبي

ما يمسك بيد وزندك حتى إذا قلت شر

يا حسين نا لي نعرف الواجب

نغض الدف ونحافظ على النون

الحداد :

نا كما الناس بفضايلي وعيوبي

وأنت مع شوكك ووردك مقبول يا بوعمر

أحيان نباعد ونتقارب

ولا شي، طول يتغير في الكون

باجراد :

صبرهم ما يضر قدنا صبر دوبي

ووعودهم من غير وعدك لكننا ننتظر

ومن الدهر قد صابنا الضارب

ولا با شكي وبعض الناس يشكون

المحضار :

عادهم عادهم ما رسلوا لك اللوبي

وأنته كبير وبلغت رشدك فكر وبير الفكر

الحداد :

نا من زمن عا حسب ترتوبي

وأنته تغير لون جلدك وعساك نلت الوطر

دائم مع الأيام تتجاوب

وقادر كل ساعة تنقلب عا لون

ونختتم هذه المقـــالة المتواضعة عن شاعرنا الكبير بمساجلة من مساجلاته في ليلة سفره لأداء فريضة الحج، يوم السبت الموافق ٢٥/ ١/ ٢٠٠٣م، في بـــــيت صديقه الشاعر عبدالله محسن الوحيري، وكان لي شرف الحضور والمشاركة التي يقول فيها الشاعر سعيد سالم باجعالة:

ذا فصل والفصل الأخر سمر

يا سعيد صوتك يجلي الحزن

ماشي مثيل الملا

يا المحبين يشفيك من هم وأحزان

باجعالة :

لنحج قاصد وبايعتمر

يا بخت من زار جد الحسن

رب السما، كافله

يا يسافر ويبعود عا جود وأحسان

محمد الحداد :

من سار بايعود بعد السفر

وعسى بعودة لنا للوطن

لعادت القافلة

كل من تاخر بايقفله بقشان

الحداد :

خلي المخالع تحن عالزبر

لا تعطفي الكير لقد رشن

وخلها شاعلة

خلها مثل عوضة وصاحبه حسان

عبدالله محسن :

له حظ واقبال سالم عمر

يستبشرو به حلول اليمن

يوصفه من عاملة

بالطاقة ويسرى معاهم وليمان

باجعالة :

خلوك في بحر ما شفت بر

ساروا وخلوك أهل السفن

وسفينتك عاطلة

سير بحري مع بن قطامي وسيفان

أبوظبي :

شي، عايسرك وشي، ما يسر

وتكاثر الحقد هو والفتن

وحبالهم خاملة

والدير ضيعوها وسط خور فكان

د. الغرابي :

ما شي، عليهم مخاطر وضر

با تحصل الخير يا خو حسن

وحكمته عادلة

شد باسك وهم شا الوقت قد حان

باجعالة :

صابر على حلو فيها ومر

أرضي ولا منها با ضعن

ولا عاد با منها

خالنا حل في كهف شاوي وعا ضان

الحداد :

العود لما اشترخ وانكسر

والعائلة تفرقت من زمن

لا تسّعن العائلة

يا يردون ما اليوم لامة كما كان

باجعالة :

كل من يدور على التبر الحمر

بتحمله من بدن لبدن

با يقرب المرحلة

بالسفينة يسير حتى اليابان

د. الغرابي :

ما شي، سوى النار هي والشرر

يا رب عفوك يزيل المحن

والهم لي شالله

رب يا رب فرّج على كل إنسان

الحداد :

لو با تحل في خليف الصفر

ما فيه شي، خير با يستهن

لا عرش بلقيس ولا

لا وعطها عصا موسى ولا كرسي سليمان

باجعالة :

بوظبي بعد الشتات استقر

ولا عاد عا يسير للا النيل جن

عامد في البنقلة

عاشر الأنس بعد العفاريت والجان

د. الغرابي :

شف كل شي، با يجي بالفكر

يا عبيد لا قدك عاقل فطن

لا تعبر الجنبلة

ساير الوقت قبل التهاويل وجنان

الحداد :

قدها مقالة إذا شفت شر

الشر منه تباعد وغن

أيامك المقبلة

با تحسب لها قال حداد حسبان

باجعالة :

أنت وأنا وسط حوش البقر

ما حد بحوش البقر يرتكن

ذا الوقت لا تحل له

يوم خلى العرب تحت حكم المريكان

د. الغرابي :

نا إلا في المان وأنت حضر

يا باجعالة تفضل وكن

راسك في الفاضلة

يوم عندي وسع للضيف ومكان

باجعالة :

أنت تحارب بمدفع بعر

وقيادتك كل بوهم خيّن

لا جانك القنبلة

با تروح ضحية وبا تفر دخان

وقفتان في التصحيح اللغوي:

الكُلّ والبَعْض (١)

أ.د. عبدالله صالح بابعير

تذكر المصنفاتُ النحويةُ أنّ كلًّا وبعضًا جاءت في فصيح الكلام مُلازمةً للإضافة، فتُضافان إلى الظاهر والمُضْمَر، فمِنْ إضافتِهما إلى الظاهر قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠] ومن إضافتهما إلى المضمر قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [مريم: ٧٣]. وتُضافُ (بَعْض) إلى المفرد النكرة، كقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] والمفرد المعرفة، كقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١] والجمع المعرفة، كقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥].

أمّا (كُلّ)[١] فتُضافُ إلى النكرة، مفردةً مذكّرةً، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] ومفردةً مؤنثةً، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. وتُضاف إلى النكرة مُثَنّاةً، كقول الفرزدق:

وكُلُّ رَفِيقَيْ كُلِّ رَحْلٍ وإِنْ هُمَا
تَعَاطَى القَنَا قَوْمَاهُمَا أَخَوَانِ[٢]

وتُضاف إلى النكرة المجموعة مذكّرةً، كقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، وقول لبيد:

وكُلُّ أُناسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ
دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْها الأَنامِلُ[٣]

وإلى النكرة المجموعة مؤنثةً، كقول قيس بن ذَرِيح:

وكُلُّ مُلِمّاتِ الزَّمانِ وَجَدْتُها
سِوَى قُرْبَةِ الأَحْبابِ هَيِّنَةَ الخَطْبِ[٤]

وتُضاف (كُلّ) إلى المعرفة المجموعة، مذكّرةً ومؤنّثةً فيُقال: كلُّ الرجال، وكلُّ الناس، وكلُّ النساء، من ذلك قول جميل بثينة:

فَقَالَتْ أَكُلُّ النَّاسِ أَصْبَحْتَ مَانِحًا
لِسَانَكَ كَيْمَا أَنْ تَغُرَّ وَتَخْدَعَا[٥]

وأكثرُ ما يكون المضافُ إليه ضميرَ الجمع، والخبرُ عنه مفردًا[٦] كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] ونَقَلَ عن أبي حيان قولَه: «ولا يكاد يُوجَدُ في لسان العرب: كلُّهُمْ قائمونَ، ولا كُلُّهُنَّ قائماتٌ، وإنْ كان موجودًا في تمثيل كثير من النحاة»[٧] كما نَقَلَ عن ابن السرّاج امتناعَ إضافة (كُلّ) إلى المفرد المعرّف بالألف واللام التي يُراد بها العموم[٨] ونَقَلَ إضافتَها إلى المفرد العَلَم، نحو: كُلُّ زيدٍ حَسَنٌ، أي: كلُّ جزءٍ من أجزائه حَسَنٌ[٩].

وقد يُقطَعُ هذان اللفظان عن الإضافة لفظًا، ولكنها مَنْوِيَّةٌ معنًى عند جمهور النحويين،[١٠] كقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقول رؤبة بن العجاج:

دَانَيْتُ أَرْوَى وَالدُّبُونُ تُقْضَى
فَمَطَلَتْ بَعْضًا وَأَدَّتْ بَعْضَا[١١]

وعندئذٍ يلحقهما تنوينٌ يُسمّى تنوينَ العِوَض عند أكثر النحويين، في حين ذهب آخرون إلى أنه تنوينُ تمكين[١٢] يقول ابنُ يعيش في هذا الخلاف: «وذلك أن منهم مَنْ جعله تنوين عِوَض كالذي في يومئذٍ ونظائره؛ لأن حقَّ هذا الاسم أن يُضاف إلى ما بعده، فلمّا قُطِعَ عن الإضافة

لدلالة كلام قبله عليه عُوِّضَ التنوينَ، ومنهم مَنْ جعله تنوينَ تمكين؛ لأن الإضافة كانت مانِعَةً من التنوين، فلمَّا قُطِعَ عن الإضافة إليه دخله التنوينُ؛ لأنه اسمٌ مُعرَبٌ حقُّه أن تدخله حركاتُ الإعراب والتنوينُ. وهذا الوجهُ عندي الوجهُ مِنْ قِبَل أن هذا العِوَضَ إنما جاء في ما كانَ مبنيًا ممَّا حقُّه أن يُضافَ إلى الجُمَل[١٣] وأمَّا المُعْرَبُ الذي يُضافُ إلى مُفْرَدٍ فَلا»[١٤].

أما الصبانُ فيرى أنْ لا مُخالَفَةَ بين القولين (أي: بين كون التنوين للعوض أو للتمكين) فالتنوينُ في هذه الكلمات «عِوَضٌ عن المضافِ إليه بلا شَكٍّ، وللتمكين؛ لأنَّ مدخولَه مُعرَبٌ مُنصرِفٌ»[١٥] فقد جاء قولُ الصبان للتوفيق بين هذين القولين[١٦].

فهذان استعمالان مُجْمَعٌ عليهما: استعمال اللفظين مضافين لفظًا ومعنًى، واستعمالهما مجرَّدَيْن لفظًا من (أل) والإضافة[١٧] ولكنَّ الإضافة مَنْوِيَّةٌ في المعنى، وفي هذه الحال يلزم كلٌّ منهما صدرَ الكلام، نحو: كُلُّ يقومُ، وكُلًّا ضربْتُ، وبكُلٍّ مررتُ، ويقبُح أن تقول: ضربْتُ كُلًّا، ومررتُ بكُلٌّ[١٨].

ولِلُزوم إضافة هذين اللفظين معنًى، كان تعريفُهما بالإضافة عند سيبويه[١٩] والجمهور، وخالَفَهما في ذلك أبو علي الفارسي، يقول أبو حيان: «اختلف النحويون في (كل) و(بعض) هل هما معرفتان أو نكرتان؟ فذهب سيبويه والجمهور إلى أنهما معرفتان، تعرَّفا بنيَّة الإضافة؛ لأنهما لا يكونان أبدًا إلَّا مضافين ... وذهب الفارسي إلى أنهما نكرتان، وألزَمَ مَنْ قال بتعريفهما بنيَّة الإضافة القولَ بأن نصفًا وثُلُثًا وسُدُسًا معارفُ؛ لأنها في المعنى مُضافاتٌ، وبإجماع منَّا أن هذه نكرات، فكذلك (كل) و(بعض)، فلا تكون الإضافةُ من طريق المعنى تُوجِبُ التعريفَ، وردَّ بأن العربَ تحذف المضافَ إليه وتريده ... واستدلَّ أيضًا على تنكير (كل) بقولهم: مررتُ بهم كُلًّا»[٢٠] فنصبوها حالًا، وأُجيبَ بأنه شاذٌّ»[٢١].

ولأنَّ تعريفهما بالإضافة عند سيبويه والجمهور كما مرَّ آنفًا، ذهبوا إلى أنه لا يجوزُ دخولُ (أل) عليهما؛ لأن إضافتهما محضةٌ، والإضافة المحضة و(أل) لا تجتمعان[٢٢] هذا إذا كانتا مضافتين لفظًا في حال وقوعهما توكيدًا أو نعتًا[٢٣] فالتوكيد كقولك: مررتُ بالقوم كلِّهم، والنعت كقولك: زيدُ الرجلُ كلُّ الرجل. أما إذا قُطِعَتا عن الإضافة لفظًا فمذهب الجمهور عدم جواز دخول الألف واللام عليهما، وعدم وقوعهما حالًا؛ لأنهما معرفتان بنيَّة الإضافة، إذْ لا تكونان إلَّا مُضافتين[٢٤] يقول ابن مالك: «ولأجل نيَّة الإضافة لم تدخل عليه الألف واللام إلَّا في كلام المتأخرين»[٢٥] ويقول السيوطي: «والجمهور أنهما عند التجرد منها معرفتان بنيَّتها؛ لأنهما لا يكونان أبدًا إلَّا مضافين، فلمَّا نُوِيَتْ تعرَّفَ من جهة المعنى، ومن ثَمَّ، أي من هنا، وهو كونهما عند القطع معرفتين بنيَّتها، أي من أجل ذلك، امتنع وقوعُهما حالًا وتعريفهما بأل»[٢٦] فعلَّةُ عدم جواز دخول (أل) على هذين اللفظين أنهما معرفتان بنيَّة الإضافة، والإضافةُ محضةٌ هنا كما ذكرنا آنفًا، و(أل) والإضافة المحضة لا تجتمعان، فلذلك مُنِعَ دخولُ أداة التعريف عليهما.

ويبدو أن اللغويين مُجْمِعون على أن العرب الفصحاء لم يستعملوا (الكُلَّ والبعض) في كلامهم، ففي تهذيب اللغة: «وقال أبو حاتم: قلت للأصمعي رأيت في كتاب ابن المقفع: (العِلْمُ كثيرٌ ولكنْ أخذُ البعض خيرٌ مِنْ تَرْكِ الكل)، فأنكره أشدَّ الإنكار وقال: الألف واللام لا تدخلان في بعض وكل لأنهما معرفة بغير ألف ولام ... قال أبو حاتم: ولا تقول العرب (الكل ولا البعض) وقد استعمله الناس حتى سيبويه والأخفش في كُتُبهما؛ لقِلَّةِ علمهما بهذا النحو، فاجْتَنِبْ ذلك فإنه ليس من كلام العرب»[٢٧].

وفي مقاييس اللغة: «فأمَّا (كُلٌّ) فهو اسمٌ موضوعٌ للإحاطة، مضافٌ أبدًا إلى ما بعده. وقولُهم: الكُلُّ، وقام الكُلُّ فخطأ، والعربُ لا تعرفُه»[٢٨] وقال الراغب الأصفهاني: «ولم يَرِدْ في شيء من القرآن، ولا في شيء من كلام الفصحاء (الكُلُّ) بالألف واللام، وإنما ذلك شيءٌ يجري في كلام المتكلمين والفقهاء، ومَنْ نَحا نحوَهم»[٢٩].

وفي (عبث الوليد) للمعري: «كان المتقدمون من أهل العلم يُنكرون إدخالَ الألف واللام على (كُل) و(بعض)، ويُروى عن الأصمعي أنه قال كلامًا معناه: قرأتُ آدابَ ابن المقفَّع، فلم أرَ فيها لحنًا إلَّا في موضع واحد، وهو قوله: العلمُ أكثرُ من أنْ يُحاطَ بكُلِّه، فخُذوا البعضَ»[٣٠].

وفي لسان العرب: «وقال الأزهري: النحويون أجازوا الألف واللام في (بعض وكل)، وإنْ أباهُ الأصمعيُّ»[٣١] وفي المزهر: «وفي كتاب ليس لابن خالويه[٣٢]: العوام وكثير من الخواص يقولون: (الكل والبعض) وإنما هو (كلٌّ وبعض)، لا تدخلهما الألف واللام؛ لأنهما معرفتان في نيَّة الإضافة، وبذلك نزل القرآن، وكذلك هو في أشعار القدماء»[٣٣] وفي تاج العروس: «ولا تَدخُلُه اللامُ، أي لامُ التَّعْريف؛ لأنَّها في الأصل مُضافةٌ، فهي مَعرفةٌ بالإضافة لفظًا أو تقديرًا، فلا تقبل تعريفًا آخَرَ، خِلافًا لابن درستويه والزجاجيِّ فإنهما قالا: (البَعْضُ والكُلُّ) . قال ابن سِيْدَه: وفيه مُسامَحَة، وهو في الحقيقة غيرُ جائز، يعني أنَّ هذا

الاسم لا ينفصل عن الإضافة. وفي العُباب: وقد خالف ابنُ درستويه النَّاسَ قاطبةً في عصره ... قال أبو حاتم: قلت للأصمعي: ...»[٢٤].

وعلى الرغم من ذهاب أكثر النحويين واللغويين إلى منع إدخال (أل) على هذين اللفظين نجد أن قسمًا منهم أجاز ذلك، إمّا نصًا وإمّا استعمالًا[٢٥]. أمّا النّصُّ فقد عُزِيَ إلى أبي منصور الأزهري أنه قال: النحويون أجازوا الألف واللام في (بعض وكل) وإنْ أباه الأصمعي، كما ذكرنا غيرَ بعيد. ومن هؤلاء النحويين الذين أجازوا ذلك الأخفش وأبو علي الفارسي وابن درستويه[٢٦] ويقول المعري: «وكان أبو علي الفارسي يزعم أن سيبويه يُجيزُ إدخال الألف واللام على (كُلّ) إلّا أنه ما لفظَ بذلك، ولكنه يَسْتَدِلُّ عليه بغيره، والقياسُ يُوجِبُ دخول الألف واللام على كل وبعض»[٢٧]. ونقل الرضي عن بعض النحويين أنه إذا قُطِعَ (كل وبعض) عن الإضافة «فالأكثر إبدال التنوين، وامتناع دخول اللام فيهما، وبعضهم جوّزه»[٢٨]. ويقول ناظر الجيش: «وأمّا (كلّ) غير الواقع توكيدًا ولا نعتًا فإنه مُلازم الإضافة معنًى لا لفظًا، لكنه لا يُجَرَّدُ عن الإضافة لفظًا إلّا وهو مضافٌ معنًى؛ فلذلك لا تدخل عليه (أل) وقد أدخلها عليه أبو القاسم الزجاجي في جُمَلِه، ثم اعتذر عن ذلك، وشذّ تنكيرُه وانتصابُه حالًا في ما حكاه الأخفش، فعلى هذا لا يمتنع أن تدخل عليه (أل)»[٢٩]. وفي تاج العروس: «ويُقال: كلٌّ وبعضٌ معرفتان، ولم يَجئْ عن العرب بالألف واللام، وهو جائز؛ لأن فيهما معنى الإضافة، أضفتَ أم لم تُضِفْ... قال أبو حاتم: وقد استعمله النّاسُ، حتى سيبويه والأخفشُ في كتابيهما؛ لقلّةِ علمهما بهذا النحو، فاجتَنِبْ ذلك؛ فإنه ليس من كلام العرب، وكان ابنُ دُرُسْتُوَيْهِ يُجَوِّزُ ذلك، فخالَفَه جميعُ نحاة عصره»[٣٠].

أمّا الاستعمالُ فقد وجدْنا أكثرَهم قد دأبوا على استعمال لفظتي (الكل والبعض) مقترنتين بالألف واللام، حتى أولئك الذين أنكروا ذلك. فابن فارس يقرر التخطئةَ بقوله: «وقولهم: الكلُّ، وقام الكُلُّ فخطأٌ، والعرب لا تعرفُه»[٣١] في حين يقول في موضع آخَر من المقاييس: «يصيب بعضَها المطرُ، ولم يُصِبِ البعضَ»[٣٢] ويقول في موضع ثالث: «والنَّقب والمَنْقَبة: الطّريق في الجَبَل، والكُلُّ قياسٌ واحد»[٣٣].

ويقول عباس السوسوة، تعليقًا على قول المعري: «والقياسُ يُوجِبُ دخول الألف واللام على كل وبعض»[٣٤] وقوله أيضًا: «وكان أبو علي يُجيزُه، ويدّعي إجازتَه على سيبويه، فأمّا الكلامُ القديمُ فيُفْتَقَدُ فيه الكلُّ والبعضُ»[٣٥] يقول السوسوة: «وهكذا رأينا المعري منسجمًا مع نفسه، فهو يرى أن القياس يُوجِبُ هذا التعريف، وإنْ كانت اللغةُ القديمةُ تَفْتَقِدُ هذه الظاهرة. أمّا المتشدّدون من اللغويين وغيرهم فيُنكرون ذلك نظريًا، لكنهم في الكتابة لا يستطيعون عنها فكاكًا، إذْ يستعملون: القليل والكثير والجميع والجزء والفرد، جنبًا إلى جنب مع البعض والكل والغير، وبعضهم يستعملها، ويعتذر عن استعمالها...»[٣٦].

والأمثلة على ورود عبارتَي (الكل والبعض) في كتب النحويين واللغويين، متقدّميهم ومتأخّريهم، كثيرةٌ، ومن هؤلاء: سيبويه، والفراء، والمبرد، وابن السرّاج، وابن دريد، وابن الأنباري، وابن جني، وابن فارس، وعبدالقاهر الجرجاني، وأبو البركات الأنباري، وأبو البقاء العكبري، وابن مالك، وابن هشام الأنصاري، وابن عقيل، وخالد الأزهري، وجلال الدين السيوطي والأشموني، وغيرهم[٣٧].

من ذلك قولُ سيبويه: «ولا يريد أن يُدخِلَ السخلةَ في الكُلّ؛ لأن (كُلّ) لا يدخل في هذا الموضع إلا على نكرة»[٣٨]. وقول أبي عبيدة: «فلا يكون الحِمام ينزل ببعض النفوس، فيُذْهِبُ البعضَ، ولكنه يأتي على الجميع»[٣٩]. وقوله أيضًا: «البعضُ ها هنا الكُلُّ»[٤٠]. وقول المبرد: «فإنْ قلتَ أخذتُ من ماله، وأكلتُ من طعامه، ولبستُ من ثيابه، دلّتْ (مِنْ) على البعض»[٤١]. وقوله أيضًا: «فتقول: جاءني بنو فلان، فيجوز أن تعني بعضًا دون الكل»[٤٢]. وقول أبي العباس ثعلب: «وقال: ما أحدٌ إلّا قائمٌ، قال: ليس له معنى، ولا يُقال في العربية (إلّا) موقع (أحد) إلّا على الكُلّ»[٤٣]. وقول ابن السراج: «فهذا كأنه كما قال: من أحد، اجتزأ بالبعض من الكل»[٤٤]. وقوله أيضًا: «والكلُّ عَقيبُ البعض، فهو منسوب إلى ما يتضمنُه الشيء»[٤٥]. وقول أبي منصور الأزهري: «ليس يريد عن بعض شكواه دون بعض، بل يريد الكُلّ، وبعضٌ ضدُّ كُلّ ... وإنما ذكر البعضَ ليُوجِبَ له الكُلّ، لا أنّ البعضَ هو الكُلّ»[٤٦]. وقول ابن جني: «وما كانت هذه حالُه أقنع منه البعض، ولم يجبْ في الكُلّ»[٤٧]. وقوله أيضًا: «لأن حكم البعض في هذا، جار مجرى حكم الكُلّ»[٤٨]. وقوله أيضًا: «فإذا كان كذلك، علمتَ أن (قام زيدٌ) مجازٌ لا حقيقةٌ، وإنما هو على وضع الكُلّ موضع البعض؛ للاتّساع والمبالغة، وتشبيه القليل بالكثير»[٤٩]. وقول عبدالقاهر الجرجاني: «وقول الناس: قتْلُ البعض إحياءٌ للجميع»[٥٠]. وقوله أيضًا: «واعلمْ أنه إذا لم تُمكِنْ معرفةُ الكُلّ، وجَبَ تركُ النظر في

الكُلّ»[61]، وقول ابن عصفور: «وبدلُ البعض من الكل، وهو أن تُبْدِلَ لفظًا من لفظٍ، بشرطِ أنْ...»[62]، وعلى هذا النحو ظهرت عبارات أخرى عند ابن مالك[63]، ورضي الدين الإستراباذي[64]، وابن منظور[65]، وابن هشام[66]، وابن عقيل[67]، وغيرهم من النحويين واللغويين الأعلام.

الهوامش:

١) يُنظَر في إضافة (كُلّ)، وأحكام هذه الإضافة ومعانيها: أحكام (كل) وما عليه تدلّ: ٢٩ وما بعدها، ومغني اللبيب: ٣ / ٩٥- ١١٢، وتاج العروس (كلل): ٣٠ / ٣٣٨.

٢) ديوان الفرزدق: ٦٢٨.

٣) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ٢٥٦.

٤) ديوان قيس بن ذريح: ٥٩.

٥) ديوان جميل بثينة: ٧٩.

٦) ينظر: نظرات دقيقة حول (كل وبعض) في الأساليب العربية: ١٦٧.

٧) تاج العروس (كلل): ٣٠ / ٣٣٨.

٨) ينظر: المصدر نفسه. ولكنّ ورد عنهم إضافتها إلى المفرد المعرّف بالألف واللام التي يُراد بها العموم إذا كان نعتًا، كقولهم: (زيدٌ الرجلُ كلُّ الرجل). ينظر: شرح التسهيل لابن مالك: ٣ / ٢٤٤ - ٢٤٥، وشرح التسهيل لناظر الجيش: ٧ / ٣٢٠٧.

٩) ينظر: نظرات دقيقة حول (كل وبعض) في الأساليب العربية: ١٦٧.

١٠) ينظر: شرح الكافية الشافية: ١ / ٩٤٩، وشرح التسهيل لناظر الجيش: ٧ / ٣٢٠٧-٣٢٠٨.

١١) ديوان رؤبة بن العجاج: ٧٩.

١٢) ينظر: ارتشاف الضرب: ٢ / ٦٦٨، وشرح المفصل لابن يعيش: ٩ / ٣١- ٣٢.

١٣) يعني (يومئذٍ وحينئذٍ) ونظائرهما.

١٤) شرح المفصل لابن يعيش: ٩ / ٣١- ٣٢.

١٥) حاشية الصبان على شرح الأشموني: ١ / ٧٨- ٧٩.

١٦) ينظر: ظاهرة التعويض في النحو العربي: ٦٩.

١٧) ينظر: نظرات دقيقة حول (كل وبعض): ١٦٦-١٦٧.

١٨) ينظر: تاج العروس (كلل): ٣٠ / ٣٣٨-٣٣٩، ونظرات دقيقة حول (كل وبعض): ١٦٦-١٦٧.

١٩) ينظر: كتاب سيبويه: ٢ / ١١٤- ١١٥.

٢٠) هذه حكاية أبي الحسن الأخفش. ينظر: أمالي ابن الشجري: ١ / ٢٣٤.

٢١) شرح التسهيل لناظر الجيش: ٧ / ٣٢١٠. وينظر كذلك: ارتشاف الضرب: ٤ / ١٨١٨-١٨١٩.

٢٢) ينظر: شرح ابن عقيل: ٢ / ٤٦، ودراسات في اللغة والنحو: ١٨٩.

٢٣) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك: ٣ / ٢٤٤- ٢٤٥، وشرح التسهيل لناظر الجيش: ٧ / ٣٢٠٧.

٢٤) ينظر: شرح التصريح على التوضيح: ٢ / ٣٥.

٢٥) شرح الكافية الشافية: ١ / ٩٤٩-٩٥٠.

٢٦) همع الهوامع: ٢ / ٥١.

٢٧) تهذيب اللغة (بعض): ١ / ٤٩٠-٤٩١.

٢٨) مقاييس اللغة (كل): ٥ / ١٢٢.

٢٩) المفردات في غريب القرآن: ٤٣٧.

٣٠) عبث الوليد: ٤٣٠.

٣١) لسان العرب: (بعض) ولم أقف على هذا القول المنسوب إلى الأزهري في (تهذيب اللغة).

٣٢) النص الذي نقله السيوطي من كتاب (ليس في كلام العرب) لابن خالويه، ليس موجودًا في نسخة الكتاب المنشورة بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار.

٣٣) المزهر: ٢ / ١٥٨- ١٥٩.

٣٤) تاج العروس (بعض): ١٨ / ٢٤٣.

٣٥) ينظر: دراسات في اللغة والنحو: ١٩١-١٩٢.

٣٦) ينظر: أمالي ابن الشجري: ١ / ١٣٥-٢٣٣، وهمع الهوامع: ٢ / ٥١.

٣٧) عبث الوليد: ٤٣٠.

٣٨) شرح الرضي على الكافية: ٢ / ٢٥٩.

٣٩) شرح التسهيل لناظر الجيش: ٧ / ٣٢٠٧. وينظر قول الزجاجي في: الجُمَل: ٢٣، ٢٥.

٤٠) تاج العروس (كلل): ٣٠ / ٣٣٩- ٣٤٠.

٤١) مقاييس اللغة (كل): ٥ / ١٢٢.

٤٢) المصدر السابق (بقع): ١ / ٢٨١.

٤٣) المصدر السابق (نقب): ٥ / ٤٦٦.

٤٤) عبث الوليد: ٤٣٠.

٤٥) رسالة الغفران: ٤٥٦- ٤٥٧.

٤٦) العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثية: ١٠٦.

٤٧) ينظر: دراسات في اللغة والنحو: ١٩٦-١٩٧.

٤٨) كتاب سيبويه: ٢ / ٨٢.

٤٩) مجاز القرآن: ١ / ٩٤.

٥٠) المصدر السابق: ٢ / ٢٠٥.

٥١) المقتضب: ٤ / ١٣٧.

٥٢) المصدر السابق: ٣ / ٢٤٣.

٥٣) مجالس ثعلب: ٥ / ١٩١ (القسم الأول).

٥٤) الأصول في النحو: ١ / ٢٩٢.

٥٥) المصدر السابق: ٢ / ٨.

٥٦) تهذيب اللغة (بعض): ١ / ٤٨٩- ٤٩٠.

٥٧) الخصائص: ١ / ٥٢.

٥٨) المصدر السابق: ٢ / ٣٢٧.

٥٩) المصدر السابق: ٢ / ٤٤٨. وينظر أيضًا: ١ / ٣٥٧، ٢٤- ٢٥، ٣٣٤.

٦٠) دلائل الإعجاز: ٢٦١. والقول بلفظه ص ٢٩٠ أيضًا، وهو مذكورٌ في (البيان والتبيين) للجاحظ: ٢ / ٣١٦، منسوبًا إلى بعض الحكماء.

٦١) دلائل الإعجاز: ٢٩٢.

٦٢) شرح جمل الزجاجي (الشرح الكبير): ١ / ٢٨١. وينظر أيضًا: ١ / ٢٨٧، ٢٨٨.

٦٣) ينظر: شرح الكافية الشافية: ٢ / ١٢٧٦.

٦٤) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٢ / ٢٠٦، ٢٠٧.

٦٥) ينظر: لسان العرب: (بعض، ربا، رقق، كلل...).

٦٦) ينظر: مغني اللبيب: ٢ / ٢٦١، ٤ / ٤١٥.

٦٧) ينظر: شرح ابن عقيل: ١ / ٣٢٣، ٣ / ٢٤٩.

الناشر الأستاذ عبدالهادي بافقير ودوره في الطباعة والنشر

عبد الهادي بافقير

أعود باستمرار، في أوقات غير مرتبة، لقضاء نزهة قصيرة في مكتبتي المتواضعة.

وأجيل النظر طويلاً في أرففها. وفي كل مرة ألمح كتابًا، لم يزل محمّلاً بالسوابق، التي لا توفر له الفرار بشكل نهائي مني، وبين كل زيارة وأخرى يروّعني غياب شيء من مكتبتي.

سعيد سبتي

قبل أيام، دخلت إلى مكتبتي بحثًا عن بعض المراجع، التي تعينني على إتمام البحث، الذي أعكف عليه حول مشكلة هجرة الحضارم وتأثيراتها المتشابكة، وعلاقاتها بكافة المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، والتي ما تزال تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحليل.

فوقع نظري على كتاب للأستاذ القدير فاروق لقمان بعنوان (هشام ومحمد علي حافظ.. وتدويل الصحافة العربية).

ورغم أن عنوان الكتاب يبدو للوهلة الأولى أن لا صلة مباشرة له بقضية الهجرة الحضرمية، غير أن هناك جزئية استوقفتني ولفتت انتباهي وأنا أتصفح الكتاب.

فبعد أن فرغ الأستاذ لقمان من كتابة مسودة كتابه القيّم الآنف الذكر، قدمه للناشرين محمد وعلي حافظ لمراجعته وإبداء الملاحظات حوله. وقد اعترف الأخوان محمد وعلي حافظ -بعد اطلاعهما على مسودة الكتاب- أنهما لم يجريا على الكتاب أية تعديلات؛ لأنه جاء على وصف مفصّل لمراحل بدايتهما الصحفية، وخلفياتهما التعليمية، وخبراتهما، والأدوار التي مرا بها في حياتهما العملية.

ولكن .. !!

في كلمتهما الإيضاحية التي نشرت في الكتاب الصادر عام (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) شعر الناشران بأن هناك بعض المعلومات المهمة، التي لم يتطرق إليها الأستاذ فاروق لقمان، من بينها ثلاث شخصيات، كانت لها دور بارز في مسيرة حياتهما العلمية .. ومن بين هؤلاء الثلاثة الذين ورد ذكرهم في الكلمة، الرجل الثاني (عبدالهادي عبدربه بافقير).

يقول الناشران بالنص: «عبدالهادي بافقير، هو الرجل الثاني .. أحد أبناء الأسرة، الذي جاء مع والده إلى (المدينة المنورة) من حضرموت وهو طفل صغير. والتحق الشيخ عبدربه بالعمل مع والدنا وعمّنا - رحمهما الله- في جريدة (المدينة المنورة) .. واستقبلت والدتنا - حفظها الله- عبدالهادي كأحد أبنائها في منزلنا، وتربى مع أخينا (سعود) "الرجل الأول"؛ باعتباره أقرب الأبناء إلى سنه».

ويضيفان:

«وعندما انتقلت جريدة (المدينة

المنورة) إلى جدة، ثم عندما أنشئت (شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر) في جدة، قرر (عبدالهادي) أن يلتحق بجزء الأسرة الذي انتقل إلى جدة، وباشر عمله في شركة المدينة للطباعة، كعامل وعمره لم يتعد العاشرة إلا بسنتين أو ثلاث. ولم تهدأ لوالدنا السيد حافظ نفس حتى تمكن من الحصول على الجنسية السعودية لجميع أسرة الشيخ عبدربه بافقير التي رافقتنا في كفاحنا الطويل».

وخلال (٣٢) عامًا من العمل المستمر في (شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر) أصبح عبدالهادي بافقير مديرًا عامًا لأكبر دار نشر وطباعة في العالم العربي، لها فروع في ثلاث مناطق في المملكة العربية السعودية، وتطبع خمس صحف يومية، وإحدى عشرة جريدة ومجلة أسبوعية وشهرية، متعددة الأشكال ومختلفة المضامين، منها: «المجلة - سيدتي - الشرق الأوسط - المسلمون - باسم (للطفل) - الرياضة - عالم الرياضة - السيارات - مجلة الرجل - مجلة هي - الاقتصادية اليومية - الأوردي - تي في - مجلة الجميلة .. إلخ».

وتصنف (شركة المدينة للطباعة والنشر) منذ سنوات في عداد المائة الأولى من الشركات الكبيرة في المملكة العربية السعودية.

ويقول الناشران: «نحن خمسة إخوان أشقاء .. ولكننا نعتبر (عبدالهادي) شقيقنا السادس.. إنه مثل صارخ للمقدرة والذكاء والعمل الدؤوب لتحقيق الهدف. لقد أصبح اليوم أحد الخبراء القلائل النادرين في الطباعة في العالم العربي اليوم».

والأستاذ فاروق لقمان -لمن لا يعرفه- نقول: إنه من أبناء (عدن) ولد ودرس فيها، ونال شهادة الليسانس في العلوم السياسية والتاريخ من جامعة (بومبي) بالهند عام ١٩٥٨م، ونال درجة الماجستير في الصحافة من جامعة (كولومبيا) بأمريكا عام ١٩٦٢م، وعمل بدار نشر تمتلكها أسرته في عدن، وتصدر (فتاة الجزيرة)، و(القلم العدني)، و(الأخبار)، و(أخبار الجنوب)، و(الصومال) بالعربية، و(إيدن كرونيكال) بالإنجليزية، وكان مراسلًا في عدن لـ(ديلي ميل)، و(فانياشتيل تايمز)، و(نيوزويك)، و(وكالة ناتيدبرس) العالمية للأنباء.

وساهم الأستاذ فاروق مع الناشرين السيدين هشام ومحمد علي حافظ في إصدار جريدة (عرب نيوز)، أول جريدة بالإنجليزية في المملكة العربية السعودية، وظل مديرًا بها، ثم رئيسًا للتحرير لمدة عشرين عامًا، كما عمل مديرًا لتحرير جريدة (الاقتصادية) في السعودية.

صدر له بالإنجليزية (اليمن اليوم)، و(اليمن الجنوبية)، و(جيبوتي)، وبالعربية (توابل هندية)، و(عالم بلا حدود)، و(حكاية تايوان)، و(بصمات)، و(هشام ومحمد علي حافظ .. وتدويل الصحافة العربية).

فاروق لقمان

هشام محمد علي حافظ

هشام ومحمد حافظ في مكتب ادارة الشركة السعودية للأبحاث والنشر بجدة

الأستاذ والمربّي الحبيب حامد أبوبكر الجفري

صالح باحيدرة

ولد الأستاذ والمربّي الحبيب حامد أبوبكر الجفري أمدّه الله بالعافية والصحة في عام ١٣٥٥ هجرية في منطقة الخريبة إحدى مناطق وادي دوعن وأكبرها، وهي منطقة معروفة بعلمائها وصلاحها وأهلها الأخيار.

نشأ وترعرع في الخريبة نشأة صالحة ووجّهه والده من صغره إلى معلّمي البلدة ومؤدّبيها فكان حريصًا كلّ الحرص على التلقّي في المعلامات المحلية وعلى مجالسة معلّميه فتلقّى تعليم القرآن الكريم وتعلّم المبادئ الأساسية بها ومن هؤلاء المعلمين الذين تلقّى تعليمه الأوّلي عنهم الشيخ عمر صالح دحدوح ، والشيخ صالح بن عبدالله باجسير.

ثمّ تلقّى تعليمه في مدرسة تسمّى مدرسة (اليمن والسعادة) في الخريبة، وكان مديرها حينذاك الأستاذ الفاضل عمر علي باناجة. ثمّ انتقل الأستاذ الجفري ليكمل باقي تعليمه في منطقة رباط باعشن في مدرسة رباط باعشن التي تأسست عام ١٩٤٥م، وكان مديرها الأستاذ سالم خميس حبليل من منطقة غيل باوزير في عهد الدولة القعيطية، فتلقّى تعليمه فيها لمدة أربع سنوات وهي المرحلة الأساسية، وهذه المدرسة مرتبطة بنظام الدولة القعيطية حيث كان يدرس فيها المنهج السوداني، ومن أبرز الذين بذروا فيه روح التعليم الأستاذ أحمد سعيد جوبان، والأستاذ أحمد سعيد مديحج، ثم خلف المدير السابق الأستاذ سالم خميس حبليل على إدارة المدرسة الأستاذ والشاعر والأديب حسين بن محمد البار، وفي مدة دراسة الأستاذ حامد في مدرسة رباط باعشن زارهم المستشار البريطاني بوستيد.

ثمّ بعد إكماله تعليمه في مدرسة رباط باعشن سافر إلى المملكة العربية السعودية ليعمل في شركات الشيخ محمد عوض بن لادن، حيث اشتغل في مكاتب الشركة كمحاسب لنبوغه في علم الحساب، ثمّ تدرّج في شركة بن لادن ثمّ عاد إلى الوطن ليكمل بقية

سيرته كمعلّم مخلص في مدرسة الخريبة الأهلية مدرسة (باصادق)، وهي مدرسة تعود لأسرة السادة آل الجفري، وكان أستاذنا من مؤسّسي المدرسة، التي افتتحت سنة ١٣٧٨ هجرية الموافق ١٩٥٩م، تحت رعاية وإشراف العلامة الحبيب حامد بن عبدالهادي الجيلاني كبير المدرّسين، وإشراف إداري من قبل الأستاذ عمر علي بن جويهر، حيث كان أستاذنا حامد من بين هؤلاء المعلمين الذين يتمتّعون بالحزم والاستقامة فضلًا عنْ كونه يتمتّع بذوق فني وخطّ جميل، حيث عمل معلمًا ثلاثَ عشرةَ سنة في ذلك الصرح العلمي الذي أبدع وتفنّن في تعليم وتربية وتنشئة تلاميذه، فأحبّوه وبذر فيهم حسن الأخلاق وحب التعلم، ومن المعلّمين الذين رافقوا أستاذنا حامد الجفريّ الأستاذ علي باهارون، وحسن بن حسين البار، وحسن بن محمد البار، والشيخ محمد باحنان، وعلي بن محمد الجفري، وغيرهم، ومن أهمّ المواد التي درّسها الأستاذ حامد في المدرسة اللغة العربية وعلم الحساب.

والطلاب الذين درسوا على يده منهم من واصل تعليمه وأصبح له مكانة في المجتمع، كفضيلة العلامة الحبيب عمر بن حامد الجيلاني مفتي الشافعية في الحجاز، وفضيلة الحبيب عبدالله حامد الجيلاني مفتي دوعن ومدير ثانوية الخريبة الأهلية، والأستاذ صالح باعوم مدير مكتب التربية بالمحافظة ووكيل وزارة التربية سابقًا رحمه الله، والسيد المهندس عيدروس بن عبدالله البار مدير بلدية جدة بالحجاز، والدكتور عبدالقادر علي باعيسى أستاذ الأدب والنقد في جامعة حضرموت، والشيخ محمد علي باجبير رجل أعمال بالرياض، وسالم عمر باقلب، رجل أعمال بالرياض، وسعيد عمر باقلب رجل أعمال بالرياض، والمهندس علي أحمد باحكيم مهندس طيران اليمن، والأستاذ سالم عبدالله بن سلمان مدير (دار حضرموت للدراسات والنشر)، والمهندس علوي محمد باروم في مجموعة بن لادن، وغيرهم، فقد بلغ عدد الطلاب في المدرسة ستمائة طالب، كما وصف هؤلاء الطلاب بالأدب والاحترام، فهم كانوا وما زالوا يكنّون له الاحترام.

توقّف الأستاذ حامد أبوبكر الجفري عن التدريس في مدرسة الخريبة الأهلية بعد إغلاقها في عام ١٩٧٠م.

بحثًا عن رؤيةٍ للعالم في أدب الأستاذ صالح سعيد باعامر

- مفتتح:

تفسير النصّ غير تأويله.

(التفسير) وقوفٌ عند ظاهر القول، شرحٌ للتراكيب وصولاً للمعنى المقصود.

(التأويل) إيغالٌ في باطن القول مستفيداً من معطيات علوم، وإجراءات منهج.

(التفسير) إعادةٌ للنصّ بلغة تقلّ عن لغته براعةَ أداء، وكيفيات تعبير.

(التأويل) إضافةٌ للنصّ تتمثّل في رؤية أعمق، ومنظور أشمل.

فهل (نفسرّ) النصّ، أو (نتأوّله)؟

أ.د. عبدالله حسين البار

للإجابة عن سؤال كهذا السؤال علينا أن نعيّن بدءًا هُويّة هذا (النصّ). وإنّه - في مقام حديثنا عن أعمال الأستاذ باعامر، وهو قاصٌ وروائيٌ في آن- متعلّقٌ بالنصّ السرديّ قصّةً قصيرةً وروايةً. ثمّ نشير من بعد إلى أنّ الأدب العربيّ الحديث قد عرف نقّادًا انشغلوا بدراسة أعمال أدباء عرب أبدعوا في مجال السرد قصّةً قصيرةً وروايةً، وقالوا فيهما أقوالًا شتّى تعتمد في غالبها على (تفسير) النصّ، وكان لأقلّها نصيبٌ من (تأويله). نجد مثل هذا في قراءات د/ شكري محمد عيّاد لأزمة الضمير في الرواية العربية، وفي قراءات د/ علي الراعي للرواية المصرية في مطلع شبابه، ثم للرواية العربية في آخر عمره، وفي قراءات د/ فاطمة موسى لروايات نجيب محفوظ والطيب صالح، ود/ رضوى عاشور لرواية الزيني بركات للغيطاني، وفي قراءات أخرين من أمثال هؤلاء وأولئك مما لا يكاد يحاط بها حصرًا. تقابل ذلك محاولاتٌ أخر تزاورت عن (التفسير) لارتضائها مناهج أمكنت الناقد من (التأويل) من مثل قراءة د/ يمنى العيد لرواية الطيب صالح (موسم الهجرة إلى الشمال)، وإن استغلقت إجراءاتها النقدية تحليلًا ووصفًا على كثير من القرّاء فلم تمتزج بنسيجه الثقافيّ، ومن مثل قراءة د/ طه حسين الحضرميّ لروايات علي أحمد باكثير التاريخيّة، وإن لم تحظ بالذيوع والتداول اللائقين بها من حيث هي دراسةٌ منهجيّةٌ عز نظيرها بين دراساتٍ عرضت لروايات باكثير التاريخيّة وغير التاريخيّة.

وفي هذا المقام غامر كاتب هذه السطور بإعادة قراءة أعمال الأستاذ صالح باعامر القصصيّة في الجزء الأوّل من أعماله الكاملة فوقف على قصتين من مجموعته الثانية الموسومة بـ(دهوم المشقاصي) وجد فيهما شبهًا في الموقف والرؤية، وإن اختلفتا في المعالجة والأداء. وحين همّ بالتفكير - نقديًا- في القصّتين تحيّر عقله، أيسعى إلى تفسير النصّين أم يمضي نحو تأويلهما؟ فجال بفكره ذات اليمين وذات الشمال، وقلمه فاغرٌ فاه على الورقة حتّى ارتضى صيغةً لا هي من التفسير الخالص، ولا هي من التأويل المحض ولكنّها في منزلةٍ بين المنزلتين، فجاءت مقبولةً في دوائر النقد، ولم يجفل منها القارئ، وإن شكّ كاتبها أنها تصلح أن تكون نموذجًا يُحتذى لو سعى ساعٍ للاستئناس بها، ولعلّ هذه خصيصةٌ من خصائص توظيف الثقافة في النقد، فتتسع دوائره، ويعزّ فيه الضبط المنهجيّ إلا في مظانّ ضيّقةٍ ومحدودةٍ.

رؤية العالم في النص:

سيقول قائلٌ: أنّى لك أن تصف هذه القراءة بعدم الضبط المنهجيّ وأنت تنطلق في قراءة النص السرديّ من

معطيات منهج منضبط قال به ناقدٌ من طراز رفيع وهو لوسيان جولدمن؟

وأقول: إنّ الوعي بصنيع جولدمن لم يَعْنِ هنا الالتزام بكلّ إجراءاته المنهجيّة، فكانت هناك مندوحة للمرء أن يأخذ من منهجه شيئًا ويترك منه أشياء. وإنّ النظر من هذا المنظور يتيح للمرء أن يقف على زاويةٍ للنظر إلى النصّ محددة دون أن يعنّي نفسه بالنظر إليه من زوايا متعددةٍ متنوعة. ولعلّ القراءة الثقافيّة تبيح له حريّة مثل ذلك التناول، وتعينه على مثل تلك المعالجة.

تسلل الواقع المعيش إلى عوالم التخييل لدى باعامر ليتجلى بلغته وحكايته وخطابه مستقلًا عن ذلك الواقع

وإذا وافق قولُنا هذا وعيَ القارئ كما وافق شنّ طبقةً فإنّه حقٌّ علينا أن نعرض مفهوم رؤية العالم وما تعلّق به من مفهومات. وإنها -كما جلاها جولدمن نفسه، وعرّف بها من عرضوا لها من نقاد عرب وسواهم- بناءٌ متناسقٌ من الأشواق والأفكار والعواطف تختصّ بها فئةٌ ما في المجتمع لا ترقى أن تكون طبقةً بالمفهوم الماركسي للطبقة. وهي -أي تلك الفئة الاجتماعيّة- على تضادّ مع فئات اجتماعية أخرى لها أشواقها وأفكارها وعواطفها. وتسعى كلُّ فئةٍ من تلك الفئات إلى إدراك الواقع المحيط بها إدراكًا مرتبطًا بحركة التاريخ على جميع المستويات سياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وتربويًا، ودينيًا، وثقافيًا. ومن هنا ينشأ وعيٌ يمثل بنية فكريّة ترتبط بالمشكلات الآنية التي ينفعل بها المجتمع ويتفاعل معها من خلال صورتين من صور الوعي. فهو إما واقفٌ عند حدود الموجود عاجزٌ عن تجاوزه إلى ما ينبغي أن يكون وتسميه اللغة الواصفة بالوعي القائم ووجوده كائنٌ بالفعل. أو هو متجاوزٌ المشهود، يتنظّر المنشود ويسعى للالتحام بما ينبغي أن يكون وتسميه اللغة الواصفة بـ(الوعي الممكن) ووجوده كائنٌ بالقوة.

الوعي القائم صورةٌ من ارتباط الحاضر بالحدث التاريخيّ الذي تكوّن ويتكوّن في المجتمع. أما الوعي الممكن فصورةٌ من ارتباط الحاضر بالمستقبل الذي سيتشكّل من خلال سعي الفئات الاجتماعيّة التي اعتقدته في الحاضر ومضت معه إلى زمانٍ قادم.

مصطلح رؤية العالم كما تمّ عرضه في السطور السالفة -على الرغم من قصور الوصف في بلوغ مراقي الفهم لأبعاده النقدية- يصلح أن يكون وسيلةً للناقد في تأويل العمل المبدَع، ذلك أن قصارى ما يتغيّاه الفنان المبدعُ هو جلاء مواقف الشخصيات، وتجسيد أبعادها النفسية والفكرية وبناء عوالم من التخييل تمتح من الواقع المحيط بها بعضَ شيءٍ ثم يدع للغة استكمال ما تبقّى من خَلْقٍ وإبداع.

اثراء من هنا جاز لنا البحث عن رؤية العالم في أدب الأستاذ صالح سعيد باعامر؟ لعله كان جائزًا.

وأدب الأستاذ باعامر ثريٌ ومتنوعٌ ومتعدّد. فله مجموعات قصصية، وله روايات. فهو من السعة بحيث لا تقوى على احتوائه مقالةٌ في مجلة. فلا سبيل إذًا إلا تخيّر نماذج وانتقاء أمثلة تكون برهانًا على طبيعة البناء الفكري في بعض أعماله، فينفتح الباب لقراءات أخرى تستكنه مغاليق أعماله السردية، وتفضي إلى خصوبة في عرض الرؤى المكتشفة، وجلاء براعته في التشكيل.

ولقد سبق القول إلى أن كاتب هذه السطور وقف في الجزء الأول من أعماله الكاملة على مجموعته الثانية (دهوم المشقاصي)، وهنا يشير إلى أنه اختار منها قصتين هما: (العيك العيك)، و(صاحبة الشامة)، لتماثل بينهما في الموقف والرؤية، وإن اختلفتا في المعالجة والبناء.

حركة الأيام في تاريخ المجتمع:

وإنّ من متممات القول في حديث رؤية العالم الإشارة إلى حركة الأيام في تاريخ المجتمع لنرى ما للأحياء فيه ذكورًا وإناثًا من صلةٍ به وباتجاهاته الإيديولوجية وتأثرهم بها. فمنذ مطلع العقد الثامن من عقود القرن العشرين بدأ التنظيم السياسي للجبهة القومية (ج. ي. د. ش) يسنّ القوانين التي تنظم العلاقة بين الطوائف الاجتماعية على جميع المستويات، ويصدرها لتلتزم شرائح المجتمع بتنفيذها، وإن تكن في بعضها مخالفةً لمنظومة الشريعة الإسلامية كقانون الأسرة الذي سُنّت فيه موادّ تجرّم من يعمد إلى تعدد الزوجات، وتقيّد الطلاق بنزعه من يد الزوج ليصبح بيد الحاكم يفصل فيه بعد مداولةٍ بين الطرفين يصلان فيه إلى تراضٍ، وقد لا يصلان. وكان لهذا القانون وأشباهه أضراره على الأحياء في مجتمع الجمهورية أورثته رذائل لم تنس عواقبها حتى حين. ولم يكتفِ التنظيم بذلك بل أنتج مبادئ صاغها في شعاراتٍ ثوريّةٍ حماسيّةٍ من مثل (تحرير المرأة واجب)، و(حرق الشيذر واجب)... إلى آخر ما هنالك من ذلك، وإن يكن فيها خروج على أعراف المجتمع وتقاليده التي رسخت من سنين. ولقد كان من نتائج تلك المبادئ بحثُ المرأة عن سبل للحصول على عمل تتهيأ به للخلاص من تحكم الرجال في حاضرها ومستقبلها، ففي العمل فرصٌ ناجعةٌ للتحرّر من

في قصة (العيك.. العيك) تغيرت رؤية العالم فغدا الرفض لا الانتماء شعارها الموسوم وبندها العالي المتعالي

السيطرة والأسر والقهر الاجتماعي، فأنشئ في مدينة المكلا مثلًا ما عرف بالمجمع المهني الخاص بتدريب المرأة على صنوفٍ من الأعمال، وتنهيًا من بعد للانخراط في مكاتب الإدارات المعنيّة مختلطةً مع زملائها في المكتب. فانفسح الدرب أمام الأحياء في المجتمع ذكورًا وإناثًا لتشكيل رؤىً مغايرة للرؤى التي نشأوا عليها من قبل. وصار العالم من حولهم يتشكّل على نحوٍ مختلفٍ عمّا كان عليه من قبل. ضعفت سيطرة الأب فلانت قبضته، وتقبل الزوجُ الحالَ الجديدَ تحت غطاء التمدّن ودعوى التحرّر والتطور، واستمرأ شبابُ ذلك المنظور الجديد للحياة فتفاعلوا معه منفعلين به، وجرّ الوضع الجديد نيولًا خلفه لم يستبن خطرها الأحياءُ في المجتمع إلا بعد سنين. وبدا المجتمع يتشكل شرائح تتضاد رؤاها للعالم المحيط بها. ففي حين ارتضت شرائح منه (الرذيلة) فعاقروها حتى أدمنوها، اعتصمت شرائح منه (بالفضيلة) جبلًا يتحدى صور السقوط والابتذال. وبدت مدينة كالمكلا مشطورةَ الأهواء والميول، تلقى فيها المتدينّين الذين يقيمون فيها شعائر الدين كاملةٍ من صلاةٍ وزكاةٍ وصوم وصفاء سريرةٍ وحسن خلق، كما تعثر فيها على اللاطة والزناة والسكارى الذين لا يقيمون للفضيلة ولا للخلق الحميد أدنى اعتبار. ومن هذه الأجواء خرجت (حسناء وحسن) في قصة (العيك.. العيك) وإن صار لهما مآلٌ آخرُ غير ما كانا عليه، ومنه جاءت (صاحبة الشامة وصديقها الموظف/ ملك الزمان). وهنا تسلّل الواقع المعيش إلى عوالم التخييل لدى المؤلف ليتجلى بلغته وحكايته وخطابه مستقلًا عن ذلك الواقع وإن لم يبتر جذوره كاملة منه فيغدو مَرْكَبَةً تائهةً في فضاء لا توازنَ فيه. أو بنيةً فكريّةً مجرّدةً من قيود الزمان والمكان تنساح في مطلق منهمر لا يحيط به واقعٌ ولا تقيده حدودٌ. وهذه سمةٌ في الإبداع السامي حين يغدو نصًا لغويًا يمتح من واقعه صورًا وأشكالًا ويعيد صياغتها لتشكل رموزًا تشفّ عن رؤيةٍ وتكشف عن واقع.

في البنية الدلالية للسرد ورؤية العالم:

• العيك .. العيك:

في القصة بطلان، عشيقة وعشيق. جمعت بينهما الأيام. كانت (حسناء) متشردةً تائهةً في مدينة المكلا، آواها (حسن) ومنحها ما لم يستطع أن يمنحها إياه الآخرون حبًا فيها واشتهاءً لها. ولعلّ الرغبة في الظفر بها كانت الدافع الأقوى إلى تضحياته في سبيلها: (يقينًا لن يتحوّل حبّها إلى أيّ شخص مهما كان إلا إذا لم تقدّر تضحيتي بكل شيء). هكذا أنبأنا راو يعلم أسرار الشخصية حاضرًا وماضيًا. ويمتلك القدرة على الجوس في خفايا النفس فينقل عنها ما استتر على المتلقين للسرد. ولقد استبطن صمت (حسن) حين استحضر في نفسه ما قدّمه (لحسناء) من عطاءٍ غير مجذوذ: (التقطتها من الشارع. أخرجتها من أزقة المكلا المشبوهة. أبعدتها عن البيوت التي تتردّد عليها من أجل التكسب. ألبستها أفضل الملابس، زينتها بالأساور والخواتم والأقراط الذهبية. أزلت عن وجهها مظاهر الشحوب والبؤس...) إلى آخر ما هنالك من ذلك.

أفعالٌ ساميةٌ في ذاتها، لكنّها في الحقّ وسائل لغاية، لا غاية تتقصّد صنع الجميل والمعروف لأنّه خيرٌ وأجملُ. إنّ ما قدّمه (حسن) سنانير اصطاد بها (حسناء) لتغدو عشيقته التي يتشهّاها، ولا يهمّه منها إلا ما يشبع حاجاته الحسية دون أدنى اعتبار لإنسانيتها المنتهكة من زمن بعيد. فهو حين يخرج بها مساءً إلى (خلف) لا يقصد إلى الترويح عنها ولكن ليفيض وجدانه بلحظات الاشتهاء داخله: (ألقى نظرة على الجسد الذي تكوّر بجانبه، وأخذ يتشمّم الرائحة العطرية التي امتزجت برائحة العرق الذي طالما أسكره). وعند انسرابها إلى أعماقها متفكّرة يسعى إلى جذبها إلى حاضره بفعل لا يخلو من إيحاءٍ جنسيٍّ: (مدّ يده إليها وقرص فخذها). وحين كانا في السيارة (مرّر نظرةً على الجسد الذي ابتعد عنه روحيًا...). وذاك ما أنبأ به راو يعلم المخفيّ من الصفات والصور الذهنية وكأنّه البطل نفسه.

هكذا تبدأ العلاقات بين عوامل (جريماس) تتشكّل في ثنايا السرد، ويتهيأ النصّ لجلاء رؤيته للعالم المحيط به. فـ(حسناء) تتجلى موضوعًا للسرد، أنثى يتشهّاها (حسن)، ولكنّها تتأبّى عليه في تلك اللحظة الزمنية منصرفةً عنه وعن رغباته وإن انصاعت لها في لحظاتٍ زمنيّةٍ سالفةٍ يوحي بها النص ولا يفصّل القول فيها تفصيلًا. علاقة الرغبة التي تتملّك نفس (حسن) وتملأ كل وجدانه تجد لها مُعينًا على إنجازها يتمثل في (الخمر) و(العشاء) و(الأجواء المحيطة بهم في المكان المختار)، -هو هنا منطقة خلف حيث ينتشر العشّاق، يومذاك، على مسافاتٍ متقاربةٍ بما يأذن بسماع الوشوشات والهمسات كما يقول النص-. لكنها رغبةٌ تعجز الذات عن تحقيقها إذ

يعوقها انصراف (حسناء) إلى أعماقها تتأمل حالها، ويستغرقها السؤال عن أهلها في (نوجد) ممّا نأى بها عن جوّ الأنس المشتهى. وهنا تنشأ علاقة صراع بين ذاتٍ راغبةٍ وموضوع مشتهى، وتتشكّل رسالةٌ تبعثها رغبةُ اشتهاءٍ إلى وعيٍ لم ينفصل بعد عن الوعي القائم في المجتمع بالفعل، وعي لم ير في اللذاذة الحرام ما يقام عليه الحد، لكنّه في تلك اللحظة الزمنية يستيقظ على رفضٍ لم تكتمل أسبابه وتنضج صورته ليتحدّى الموجود سعيًا إلى المنشود فظلّ كما يقول السرد غثيانًا في النفس تشعر به (الأنثى) ولا يدرك سرّه (الذكر). (رائحة أشجار السيسبان تنفذ إلى منخريها.. فتسبّب لها شعورًا بالغثيان)، ولم يقف بها الحال عند ذلك بل سحبها الفراش الذي أعدّه (حسن) لجلوسهما إلى ذكريات طفولتها في (نوجد) (فتراءت لها "الشملة" السقطرية المنسوجة من شعر الأغنام التي يفترشها أبوها وأمها).

وهنا تتجلّى أمامنا علاقةٌ جدليّةٌ تقوم على أساس من الاتصال والانفصال. (فحسن) متصل بقيم المجتمع كما رسمتها أعوام العقد الثامن في (ج. ي. د. ش) وملتحم بها، لكنه منفصل عن قيم (الإله)[1] الذي بدا خفيًا في وجودٍ شريحةٍ عريضةٍ في المجتمع. تتماهى معه علاقة (حسناء) بقيم المجتمع، فهي مثله تمامًا خفي الإله في وجودها، ولذلك هربت من منزل الحاكم الذي آواها وتزوّجها في إطار منظومةٍ شرعيّةٍ لكنها كما قالت نصًا: (عفت الحاكم بعد أن امتلكت نفسي، وانتظرت أحدًا من أولئك الشبّان أن يأتي ليطلب يدي لكن انتظاري طال). فهجرت (قصيعر) إلى (الريدة) ثم إلى سواهما من قرىً وحواضرَ تنتقل من رجلٍ إلى آخر حتى التقت بـ(حسن) (وأخذتْ ما تبقّى من نصفي السفلي). فصار (حسن) و(حسناء) كيانًا واحدًا متماهيًا مع قيم لا علاقة لها بالدين ولا شرائعه ولا مثله. وقد أورثتهما تلك الحالة وضعًا نفسيًا يلقى فيه (العقل) ويستبدّ به القلق، ينبئ عن ذلك الحوار الذي أداره (حسن) مع (حسناء) دون أن تردّ عليه سوى بقولها (لن تفهم)، والسبب في عدم الفهم أنه أضاع (نصفه العلوي). وهنا تغلّب الوعي القائم الموجود على الوعي الممكن المنشود وتراءت رؤية السرد للعالم المحيط بأحيائه رؤية انتماء والتحام. لكن حركة القص أنبأت أن (حسناء) كانت قد انسحبت من (الزمن الحاضر) وغاصت في أعماق (زمن ماض) استحضرت منه بعض صوره، يوم كانت طفلة (تلعب بين جذع نخلة هرمة)، وكان أبوها يغلي الحليب، وأمُّها وجدّتُها كل منهما تفعل ما شاءت. وهذا تحفيزٌ تأليفيٌ قصد إليه (كاتب السرد) فوظفه على نحو رمزيّ، حيث أوحى إلى حال البراءة التي افتقدتها حسناء حين أخذت قسرًا من عالمها إلى عوالم أخرى لا صلة لها بها فافتقدت بكارة الحياة وطزاجتها، تذكّرْ أن الطائر قد هجم على القدر الفخاري الذي يغلي فيه الحليب -وهو رمزٌ للفطرة والنقاء فكسره ليهراق منه الحليب-. هذا الاسترجاع محفّزٌ تأليفيٌ آخر يدّخره (السرد) لتهيئة (حسناء) للانفصال القادم في سطور القصة اللاحقة. على أنّ هذا استباقٌ نقديٌ، لكننا واصلون إليه ولا مراء.

في قصة (صاحبة الشامة) تقوم الكاميرا بدور السارد الذي يروي لنا الأحداث فنسمع تحاورهما ونرى حركة ما حول البطل

حين أتمت (حسناء) سرد حكاية طفولتها، وما وقعت فيه من تجارب، كانت قد أدركت أنّ (حسنًا) قد أضاع وعيه تمامًا، وأصبح وجدانه يرتعش فَرَقًا من عدم إدراكه سرَّ (الطائر والعجوز والحوت) فاتخذتها وسيلة للوصول إلى مبتغاها، وهو النجاة بنفسها واستعادة نصفها السفلي ليلتحم كيانها في كلٍّ واحدٍ متّحدٍ، مستغلّةً أجواء الظلام المحيطة بهما لإثارة انفعال الخوف والرعب في نفس (حسن). (نظرت حواليها مرارًا ثم توقفت عيناها طويلًا على شجرة السيسبان ثم حولت نظراتها إليه بينما هو ظل ينظر إليها وهي تتلفّت وتفتح منخريها أكثر فأكثر لتشمّ روائح العالم)، وفجأة أخبرته أنها ترى ما لا يراه (المرأة العجوز. انظر إنها تقترب نحونا .. يا سلام .. وفوق الشاطئ ينتظر الحوت). وهنا تلاشت الرغبةُ كاملةً من نفس (حسن) في (حسناء)، وغدا اشتهاؤه إياها لهبًا يحرق شرايينه فيحيلها رمادًا، فخشي على قليل ما تبقّى له من لذائذ حسيّةٍ تمثّلت في (لفافة الأكل) والقنينة والكأسين الزجاجيين، (وزحف نحو شجر السيسبان). وهذا محفزٌ تأليفيٌ آخر، حيث أصبح السيسبان معادلًا موضوعيًا لانقطاع العطاء والعجز عن الإثمار النافع المفيد، ورمزًا لتلاشي الحياة إن طغا على الأرض واستبد بالحياة. أما هي فقد (انتصبت وأدخلت أصابع يديها بين خصلات شعرها وأبرزت صدرها وغنت بصوت طروب: العيك .. العيك .. العيك).

وهذه علاقة انفصال بين (حسن) وما يمثله من وعي قائم موجود، تقابلها علاقةُ اتصال بين (حسناء) ترفض (حسنًا) وبين عوالمه الشهوانية المبتذلة، وترتفع بنصفها السفلي عن

آبار الرذيلة المعتمة لتتعزز في ربى الفضيلة التي تترقب إشراق شمسها في محيطها المظلم. ولذلك كانت آخر جملة في السرد: (وطارت هي في الأجواء البعيدة وكأنها ستعانق الشمس).

كانت (الرذيلة) في وجود (حسناء) نتاجَ وعي قائم لا يقيم لشرائع الدين اعتبارًا، ويستبدل بها قوانينَ ما أنزل الله بها من سلطان. فهل في رفض (حسناء) إيذان بشروق شمس تلك الشرائع والاستئناس بها في ممارسة الحياة؟ إن النظر إلى بنية العلاقة هنا في إطار (الاحتباك) يجعل الإجابة عن السؤال بالموجب واردةً وصحيحةً.

وهذا يعكس طبيعة الصلات بين (حسناء) و(حسن ومجتمعه) وشرائع الإله. فهو هنا يتجلى في نفسها فترفض ما حرّمه، وتتأبّى على رغبات مرذولةٍ محرمةٍ وتنفصل عن قيم مجتمع اختفى فيه الإله وما ينبغي له أن يختفي لولا نظمٌ مفروضةٌ لا بقوة الفكر وتصادم الإيديولوجيا ولكن بفعل السلطة وجبروتها الفرعونيّ، ومن هنا كان الانزياح سهلًا والتوافق مع بديله ميسّرًا، فتغيّرت رؤية العالم في النص فغدا الرفض لا الانتماء شعارها الموسوم وبندها العالي المتعالي. وهذا نقيضُ ما أفضت به قصة باعامر الثانية (صاحبة الشامة).

• صاحبة الشامة:

لم تقف الآثار الاجتماعية لقانون الأسرة وما تعلّق به من مبادئ وشعاراتٍ عند حدود الإناث المتشردات في الشوارع، المتنقلات بين بيوت ذكور تائهين في المجتمع لا غاية سامية لهم تصاعد بهم إلى مستويات من الرؤية ذات سمتٍ رفيع فانحصروا في دوائر شهواتهم التي كانوا يتلقطونها من شارع عام أو زقاق ضيّق، فتجاوزتهن إلى عمق المؤسسة الشرعية العظمى -أعني الزواج- لتتراءى أعدادًا من المتزوجات متخذات أخدان يتلهين بهم كما يتلهون بهنّ، مشكلاتٍ في المجتمع شريحةً تنتخب كلُّ واحدةٍ من أفرادها معشوقًا بعينه تخصّه بجناح مفردٍ من عواطفها ومشاعرها وتشاركه لحظات أنسها به وأنسه بها غير مكرهة على فعل كائنة ما كانت صفته. ولقد تكون الأنثى متزوجة وبعلها يعيش معها في المنزل، وقد تكون متزوجة وبعلها يعيش مغتربًا في أحد المهاجر، وقد يكون حالها معه قريبًا من هذا وذاك. وأيًا كان حال الزوج -مقيمًا في الوطن أو مغتربًا عنه- فإنها تجد في عاشقها ومعشوقها في آن واحد ما يثري وجودها ويمنحها حالة من الاتزان النفسيّ فتراها تتلذذ بهيامها به، وتجد في استعادة ذكرياتها معه سعادةً وصفوًا. وإن لصفاء العلاقة بين الطرفين يدًا في قبول جانبٍ حسيٍّ تولده الرغبة والاشتهاء في قلبيهما، فلا تجد هي غضاضةً في مضاجعته والالتذاذ به، ولكم وجد هو هناءً في إطفاء لهيب حسه في خلجانها الدافئة.

ومن تلك الأجواء التي عرفها المجتمع ولم يقبل بها، فما زال للفضيلة حراسُها، انبثقت قصة باعامر الموسومة بـ(صاحبة الشامة). وتلك صفة صاحبة القصة، و(اسمها العَلَم) الدال على هويتها. وكأنما أراد السرد أن يبثّر (الشامة) -وهي نكتةٌ سوداءُ في خدّ الحسناء تزيدها فتنةً- لتظهر على مستوى العنوان، وعلى مستوى (العَلَميّة)، وعلى مستوى (التحفيز التأليفي) كما سنراها في خاتمة القصة.

تتكون القصة من ثلاثة مقاطع سردية يكتنفهما زمنان، حاضر تنطلق منه أحداثٌ، وماضٍ تُسترجع فيه أحداثٌ. أما زمن الحاضر فيشتمل على مقطعين هما المقطع الأول والمقطع الثالث. وفيهما تتغلّب تقنية (المشهد) في عملية (العرض). فيروى حدث الحكاية من خلال حوار هاتفي بين (العاشقين)، يعودان فيها إلى التواصل عبر الاتصال بعد انقطاع لا ندري أمده. وهو حوارٌ يشفّ عن طبيعة العلاقة بين (العاشقين) وسمتها الجنسيّة. قال لها: (رائحتك تخترق سلك الهاتف). قالت له: (وذكورتك تطاردني). وهي تقصد (فحولته) فما كل ذكر بفحل.

وفي هذين المقطعين تقوم (الكاميرا) -وهي آلةُ تصويرٍ مرئيٍّ- بدور السارد الذي يروي لنا الأحداث، فنسمع تحاورهما، ونرى حركة ما حول البطل وهو في مكتبه الوظيفيّ، ونبصر أثر وقع كلامها عليه على أعضاء جسده. (تأوه .. أخرج تنهيدة موغلة .. نظر إلى وجوه المتحلقين حوله وأدار ظهره لهم ... دق قلبه دقات فوق ما يحتمل)...

ولقد دلّ الحوار على أنّ (العاشقة المعشوقة) لم تعد تطيق فراقًا فسعت إلى وصل ما انقطع بينهما ولكن في ضوء شروطها التي اعتادت إملاءها على (عاشقها المعشوق)، فهي أقوى منه شخصيّةً وأظهر إصرارًا على الرأي وأوغل في التحدي. ففي المقطع الأول يظهر لك إصرارها على استنطاق (الذكر المتصل به) ليكشف لها أنه عرفها واستحضر ذكراها واستدل على اسمها ولو من خلال الصفة. (هل أنستك السنين صوتي؟ من؟ يبدو أنك لم تتذكرني). فما كان منه غير الاعتراف لها بأنّه عرفها (وكيف لا أعرف من ارتسمت شامتها في كل دواخلي).

وهنا ينقطع السرد في المقطع الأول

عمل السرد على تبئير الحالة النفسية للبطل باستخدام تحفيز تأليفي يتمثل في (البخاري) الذي زاد اشتعاله من غليان الماء بداخله

لينتقل بتقنية الاسترجاع في المقطع الثاني، لكني أؤثر أن أستمرّ في استقراء حالة السرد في زمنه الحاضر ليتسق العرض والتحليل. في المقطع الثالث تستمر الكاميرا في رصد حركة الحدث وتجسيد الحوار بين البطلين. فنرى (المتحلقين) حول البطل منشغلين بأنفسهم عمّا يدور حولهم من مكاشفة (عشق) مما أتاح لهما أن يبوحا علنًا بما لا ينبغي له أن يباح، أعني اشتهاء العاشقين بعضيهما، لكن اللافت أنّ البطلة وإن اشتهت (ذكورة صاحبها) إلا أن لها من الاقتدار على احتمال لهبها دون ارتخاء، في حين أورثت الشهوة (للأنثى) فيها البطلَ حالةً من الامتهان جعلته يتضرّع لها مستجديًا وصالها بعد انقطاع:

(- لنعد كما كنا

* وهل الذي ينكسر يعود كما كان؟

- بي توق إليك).

وهنا تدثر البطلة تمنّعها عليه بتعلّاتٍ قد تكون صائبةً وقد لا تكون، ولكنها اعتصمت بها. وفجأة ضحكت (فقال بفرح طفولي: كم اشتقت لهذه الضحكات). وحين استنكرت منه شوقه لضحكاتها، أردف قائلًا: (وإلى الشامة التي تميزك عن سائر البشر). فتردّد الأنثى -وفي ردها يتجلى إصرارها وتحديها وقوة إرادتها في مجابهة ومواجهة رغبتها وإن تك مشتهاةً- (ولأنها تميزني أزلتها بعملية جراحية).

وذلك ما لم يحسب له الذكر حسابًا فغرق في الصمت، وانتهت القصة. لكنّ وقفتنا إزاءها لم تنتهِ، فما زال عرضنا لأحداثها في الزمن الماضي المسترجع لم يبدأ بعد، ولم يزل حديثنا عن جلاء رؤية العالم فيها متواريًا غير معلن.

يفتتح المقطع الثاني بمرأى (العاشق المعشوق) صاعدًا سلالمَ منزلها ويقرع جرس بابها لتفتح له متهللةً هاتفةً باسمهِ: (ملك الزمان). ولسنا على يقين من أن ذلك هو اسمه العَلَم أم أن تلك صفةٌ أسبغتها عليه حبًا وهيامًا. وتلك ملاحظة يدركها قارئ القصة. وأعني بها تقنية اللبس التي يقع فيها القارئ فتتكاثر فيها الأسئلة في نفسه دون العثور على جواب، والعلة فيها هو بتر التفاصيل السردية التي تساعد على جلاء الغموض وتعيين طبيعة المواقف وهوية الشخصيات. ومن ذلك مثلًا أهذه الأنثى زوجٌ مقيمٌ أو مغتربٌ - سيان- أم ليس لها (شيء) من ذلك الارتباط الشرعي؟ وما مدى تاريخ هذه العلاقة بين العاشقين المعشوقين التي بلغت حدًا من الثقة تجعل الأنثى تستضيف ذكرها في منزل الزوجية وتبيح له ما لا يباح إلا لزوجها وفق معطى الشريعة وأعراف المجتمع (انفتح الباب فرآها دون نقابٍ فبدا له جسمها المرمري ينفح بالحياة داخل الثوب الشفيف).

ولقد قضيا وقتًا تمتعا فيه بلذائذ شتى متحلقين حول (البخاري) ليشربا من شاهيه ما شاءا، ولينغمسا في سوى تلك اللذة الحسية من متع أخرى لا يعلمها إلا الله وهما.

لكنهما ما إن اكتفيا من ذلك كله فاجأته برغبتها في الفراق عنه وقطع أسباب العلاقة بينهما. هكذا دون علةٍ مذكورةٍ أو مشارٍ إليها بذكر. وهذه صورة من صور البتر في جلاء الحدث. بيد أن السرد انصرف عن ذلك ليبئر الحالة النفسية للبطل باستخدام تحفيز تأليفيٍ يتمثل في البخاري الذي زاد اشتعاله من غليان الماء بداخله فنفث دخانًا كثيفًا كأنه الآهات المحمومة التي تراكمت أبخرةً في وجدانه المصدوم بما ذكرت له من رغبتها في فراقه. يتماهى معه تبئير السرد لمظاهر من جسدها ليكشف عن بضاضته وملاسة ملمسه مما يثير الحسرة في نفسه (هل سأفتقد هذا الجسد البض، هل سأحرم من هذه الروح الشفيفة، والرائحة العطرة التي ينفح بها شعرها...؟). على أن هذا لا يجديه نفعًا، فقد تحقق الفراق، واستمر سنين عددًا حتى جاء اتصالها ليحيي أملًا لم يبدأ حتى انتهى، وبه أنهى السرد حركته ليتولّى التحليل جلاء رؤية العالم فيه.

والحق أن تلك الرؤية نابعةٌ عن وعي (العاشقين المعشوقين) بصور الحياة كما هي ممارسةً في وجوديهما. وهما وجودان غير منفصلين عن حركة الحياة في المجتمع، فانبثق عنه (وعيٌ) أدرك سر الوجود في إطار الموجود دون مجاوزته إلى المنشود. وهو وعي صاغته قوانين سلطةٍ ومبادئ نظام متحديةً منظومةَ شرع وأعرافِ مجتمع، كان ذلك سمة وعيهما في زمن القصة الماضي، وظل هو وعيهما في زمن القصة الحاضر، إنه وعيٌ قائمٌ بالفعل، يتحدد منظوره السرديّ بتعيين العلاقة بين الذكر والأنثى في علاقة اشتهاء خارج دائرة الشرع الذي يبيح للزوجين استحلال بعضهما لبعض بأمر الله، أما العاشقان فقد استحلّا محرّمًا بقوة القانون وجبروت سلطته.

وهنا يخفى (الإله) ولا يتجلى في الوعي القائم في المجتمع من جهة فيتمثله البطلان وعيًا قائمًا بالفعل من جهة أخرى، فيتم الالتحام بينهما منفصلين عن ذلك (الإله الخفي)، وتتجلى الرؤية في النص رؤية انتماء للموجود، وعجز عن الالتحام بالمنشود. وهي رؤيةُ سلطةٍ حكمت مجتمعًا كاملًا ردحًا من الزمن حتى أذن الله بزوال، فانتفى حالٌ، وتجلى حالٌ.. وتلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنته تبديلًا ولا تحويلًا.

---

١) أقصد (بالإله) هنا كل معالم الشريعة الإسلامية وما اتصل بها من قيم وأخلاق وما نتج عنها من أعراف.

المكلا في ٦/ ١١/ ٢٠١٧م

105
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

استراتيجية العنونة

في مجموعة (ناهية)[1] لسالم العبد

(نافذة السيدة ميرلي Mereille) أنموذجًا

الأستاذ سالم العبد قاص وروائي مبدع ومذيع مُتألق، طالما طربت آذاننا إلى صوته الدافئ في شؤونه الأدبية، بدأ كتابة القصة في مستهل سبعينيات القرن الماضي، وتوجهها في منتصف ثمانينياته بمجموعته الخارجة عن دائرة التقليدية[2] ليبحر في قواقعه السحرية[3] عبر آفاق الإبداع اللامتناهية؛ ثم جعلنا نلهث فيما بعد خلف هذيان مرافئه[4]، وها هو اليوم يتحفنا برائعته الجديدة الناهية عن كل جمود والكاشفة عن كل مستتر، فهل يا ترى نستطيع اللحاق بأنسجته الإبداعية التي صاغ بها هذه المجموعة ؟! أشك في ذلك، بيد أنه لا بأس إذا وقفنا عند عتبة من عتباته المستفزة، وأعني بها عتبة العنوان؛ استهلالاً بعمومها؛ وتحليلاً لإحداها المطلة على نافذة السيدة ميرلي.

د. طه حسين الحضرمي

يشكل العنوان في الكتابة الأدبية عمومًا لعبةً مثيرةً؛ لأن الكاتب لم يعدْ يكتفي في عنونته بوفاء العنوان للنص والالتزام به[5]، وإنما يسعى إلى إقلاق المتلقي وتشويش أفكاره لا حصرها - حسب تعبير إمبرتكو إيكو[6] - وفتح شهيته للولوج إلى عوالم الإبداع السحرية؛ لهذا أصبح للعنوان الأدبي استراتيجيته الخاصة للوصول إلى هذه الغاية، فاتخذ إلى ذلك وسائلَ أشتاتٍ منها:

١- التغريب الصياغي دلاليًا ومعجميًا وتركيبيًا وصرفيًا وصوتيًا.

٢- الاستعارة من لغة الشعر المكثفة الموجزة.

٣- التطريس من خلال التضافر النصي، وما سوى ذلك مما تتيحه استراتيجية النص الموازي.

العنوان بنية تتأرجح بين الانغلاق والانفتاح، فهي تنغلق على ذاتها بوصفها نصًا مستقلًا، ينث من خلاله الناص رسالة لها دلالتها الفكرية والجمالية إلى المتلقي؛ ليغدو علمًا على كتاب أدبي ما، كما أنه ينفتح على النص بوصفه بنية صغرى دالة على البنية الكبرى؛ فتتداخل البنيتان في تفاعل نصي ينتج قراءة واعية للنص عمومًا؛ لهذا لن يُفهم العنوان منقطعًا عن نصه، ولا تُدرك إشاراته إلا بوساطة هذه العلاقة التي تربطهما بمتانة[7]؛ فمن هنا كان العنوان عنصرًا موسومًا سيميولوجيًا في النص -حسب تعبير صلاح فضل[8]- يحرك رواكده بإيجازه وغرائبيته.

وفي هذه المجموعة القصصية الجديدة (ناهية) يبحر بنا المبدع سالم العبد من خلال إبداع قصصي متميز، وشاعرية سردية متفردة، إلى عوالم السرد الساحرة التي تغري الدارسين بأن يبحروا في محيطاتها الشاسعة، متخلين عن حذرهم من الأخطار المحدقة بهم، متجاوزين زلل العثار في متاهات التأويل، والخوض في خَبَار إيحاءات النص النفسية، وقديمًا قيل (مَنْ تَجَنَّبَ الخَبَارَ أمِنَ العِثَارَ)، وحسبي ها هنا اقتناص شعرية العنونة من خلال فك طلاسم استراتيجيتها الخاصة وفقًا لمنطوقها النصي، وحسبي في هذا المقام المرور الاستهلالي بعنوانات المجموعة، مكتفيًا بالإطلالة على نافذة من نوافذها المشرعة، وأعني بها (نافذة السيدة ميرلي)، التي هي بمنزلة واسطة العقد المحيط بعنق هذه

المجموعة المكون من ثلاث عشرة درة بهية.

تتزين المجموعة كما أسلفت بـ(ثلاث عشرة أقصوصة)، يمكن تقسيمها وفقًا لوظيفتها الدلالية على خمسة أقسام على النحو الآتي:

١- قسم يشير إلى شخصية رئيسة في النص علمًا أو وصفًا، ويضم ثلاثة أقاصيص (صابرين، ناهية، شيخ الحجار).

٢- قسم يشير إلى مكان يشمل مساحة ذات أهمية في فضاء النص؛ حسيًا أم معنويًا، ويضم أقصوصتين (نافذة السيدة ميرلي، النبع البارد).

٣- قسم يمثل إشارة زمنية ذات طابع بلاغي، ويضم أقصوصة واحدة (متى يا معين؟).

٤- قسم يشير إلى أحداث تتجلى في طابع فكري تأملي يمتطي الرمز الاستعاري المكثف لدلالات النص، تحلق بعضها في سماء الفانتازيا، ويضم أربع أقاصيص (فحولة عكاز، ورائية معاصرة، تهويمات مالحة، طواف غانم).

٥- قسم يشير إلى ألفاظ لها صلة وثقى بأحداث القصة، ويضم ثلاثة أقاصيص (فتنمة، الشهادة، حقيقة).

هذه مقدمة أولى مضت، وتليها مقدمة ثانية تمتطي تساؤلًا صارخًا: لماذا أضحت (ناهية) علمًا على هذه المجموعة؟ وبهذا التساؤل ينفتح الفضاء التأويلي بكل طرائقه المشروعة وغير المشروعة، بيد أن الباحث سيبحر في فضاء النص متأولًا كيفيات تشكله المضموني عبر هذا العنوان المستفز (ناهية)، وهو عنوان أقصوصة من أقاصيص المجموعة على ما جرت عليه عادة القصاصين، وليس هذا بدعًا في الصياغة العنوانية، و(ناهية) علمٌ على أنثى متمردة على التقاليد وعلى رفض ما يوحي به اسمها بعد ذلك «والآن لي طلب عندك، أو قل رجاء حار، أن تصدقني بأني لست ناهية التي في أذهانكم» (ص٩٧)، وناهية من حيث الاشتقاق اسم فاعل للفعل نهى، وقد يجوز مع هذا أن يكون مصدرًا كالفالح ونحوه مما جاء فيه المصدر على فاعل، كما يرى صاحب اللسان، والنهي هو الكف عن فعل الشيء، وها هنا يراوغ العنوان كونه علمًا على المجموعة كلها، فالعنوان في الأدب لا يكتفي بالوظيفة الإحالية والوظيفة المرجعية، بل يسعى إلى تشويش فكر المتلقي، فهو يخفي أكثر مما يظهر، ويسكت أكثر مما يصرح؛ لتسهم رسالته إلى المتلقي في تعميق أواصر التواصل المعرفي والجمالي: فها هنا يسعى المتلقي إلى استحضار المسكوت عنه في العنوان، وكذلك فعلتْ (ناهية)، فهناك نهي (مبطن) في أقاصيص المجموعة كلها، كما أن هناك اختراقًا (علنيًا) لهذا النهي، هذه واحدة، أما الأخرى فتحيل على نوعية (ناهية) المؤنثة التي يشير سهمها الدلالي إلى احتشاد الأنثى ورائحتها العبقة في النص، بل قل إن شئت: بحث الراوي الدؤوب عن نصفه الآخر من خلال الأنثى المتأبية، ولهذا الأمر مجال آخر له صلة بالعالم القصصي عند سالم العبد، وبهذا تكون (ناهية) قاسمًا مشتركًا في معظم أقاصيص المجموعة، مما يسوغ نصيًا كونها علمًا على المجموعة.

تلك فذلكة ألج بها إلى استراتيجية عنوان قصة (نافذة السيدة ميرلي)، وهذا العنوان -تركيبيًا- ينتمي إلى المركب الإضافي الذي «يقفل دلالة العنوان على المضاف إليه الذي يجيء أساسًا دلاليًا لتخصيص ما هو عام في المضاف قبل أن يكون مركبًا»[١].

نافذة (منزل) السيدة ميرلي

فها هنا مضاف إليه محذوف على سبيل الإيجاز (منزل) فحل محله المضاف إليه الثاني (السيدة)، وفي هذا الحذف دلالة اتصال النافذة مباشرة بالسيدة ميرلي، والقصة مبنية على ضمير الشخص الأول (الراوي الشخصية الرئيسة)، وهو عربي (شرقي) سكن حديثًا في إحدى شقق نزل السيدة ميرلي الأوربية (غربية)، وبهذا تتلاقح ثنائيتان تشكّل النافذةَ قاسمًا مشتركًا بينهما:

والنافذة هي المكان الذي ينفذ من خلاله الهواء والشمس إلى البيت (الغرفة هنا)، وهي المكان الذي يطل من خلاله الساكن إلى العالم الخارجي، ولكنها نافذة وحيدة «الأضواء الصفراء تشق جو الغرفة الرطبة بصعوبة، سارعت إلى فتح النافذة الوحيدة، فهبّت نسمة باردة من الفضاء المفتوح كثيف الظلمة» (ص٢٣)، ولكن المفارقة أن الساكن الجديد لا يملك مؤقتًا سوى نافذة واحدة، في حين أن السيدة ميرلي تملك على سبيل الديمومة كل نوافذ منزلها هذه واحدة، وهذه النافذة الوحيدة تطل على مقبرة «أمعنت النظر في الفراغ القطراني الهامد مستجليًا طبيعة المكان، فبرزت شواهدُ قبور صامتة مثل أشباح قزمية مرعبة، لفتني قشعريرة باردة حتى طفحتْ أعماقي بمزيد من ذلك الشعور المقبض، فأغلقت النافذة باندفاعة تلقائية» (ص٢٣) وهذه ثانية، لهذا تتداخل ثنائيتان جديدتان تنبثقان من الثنائيتين السابقتين:

فالسيدة ميرلي ترى ضرورة فتح النافذة فيضطر الراوي موافقتها «وإذن لعلك ستذهب إلى الحمام، ريثما أفتح النافذة وأجدد هواء الغرفة، أومأت برأسي موافقًا» (ص٢٤)، «وعرفت مؤخرًا أن السيدة (ميرلي) الطيبة كانت تعمل في غيابي على تجديد هواء الشقة الراكد» (ص٢٥)، «ثم ذهبتُ لتفتحَ النافذةَ بخفة وحيوية فانفتين» (ص٢٦)، أما الراوي فقد قرر تبديلَ سكنه بسبب هذه النافذة، بيد أنه عَدَلَ عن قراره هذا بعد اكتشافه لطافة السيدة ميرلي وطيبة نفسها «وهكذا وطّنت نفسي فيما تلا من الأيام والشهور على إلغاء المشهد الوحيد الذي تطل عليه شقتي المعتمة الرطبة» (ص٢٥)، فها هنا تتقابل ثنائية الرفض والقبول، رفض الراوي للنافذة والنظر إليها من زاوية مغرقة في التشاؤم مما تثيره المقبرة من أحاسيس الوحشة والفراق والموت «وصمت مختلسًا النظرَ إلى النافذة المُشْرَعةِ بشيء من عدم الارتياح!!» (ص٢٧)، في حين أن السيدة ميرلي تتجاوز هذه المسألة من خلال إبداء وجهة نظر أخرى «النظر من النافذة ينتزعني من تفاصيل الحياة المكررة بضجر قاتل.

- ولكنها مقبرة!! إنها، إنه مشهد يبعث في النفس كآبة فظيعة» (ص٢٧)، ومن خلال هاتين الثنائيتين المتقابلتين (الرفض والقبول) ينزاح الراوي عن وجهة نظره إلى وجهة نظر السيدة اللطيفة -التي ذكّرته بأمه- المندهشة من إصراره على إغلاق النافذة أو عدم النظر من خلالها إذا كانت مفتوحة، فتطلب منه على استحياء أن تطل من النافذة «قمت إليها وأحطتها بذراعي دون أن أنطق وقدتها إلى النافذة المشرعة، لقد صيّرتني إلى حالة من الانهمار، وقفنا متلاصقين بصمت حميمي نتملّى المشهد!! هتفتُ برغمي وقد هزّني التغيير الهائل الذي طرأ على المقبرة:

- إنها معجزة!!

ضمتني بحنان سابغ وتمتمت بخفوت:

- اليوم ذهبت إلى المقبرة لأضع باقة من الورود، لم أكن وحدي، كان هناك العديدون» (ص٢٨، ٢٩)، وهكذا يتحول الراوي من حالة اللاتوازن إلى حالة التوازن؛ فتتحول شواهد القبور الكالحة إلى غطاء كثيف من الورود والأزاهير المنفتحة، وكأنها صورة أخرى من الحياة «وبدت عينا السيدة (ميرلي) الزرقاوان مغرورقتين بدموع تسطع بأنوار غريبة، مسّت أعماقي البعيدة، وددتُ أن أخبرها بأنني سأواظب على فتح النافذة، ولكنني لم أجرؤ على خدش الصمت البليغ» (ص٢٩).

وهكذا كان العنوان سهمًا دلاليًا يشير إلى قضية من أبرز قضايا العصر، وهي صلتنا بالأمم الأخرى ولا سيما الغربية، وهي قضية دندن حولها جملةٌ من المبدعين العرب ابتداء من رفاعة الطهطاوي في (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، ومرورًا بتوفيق الحكيم في (عصفور من الشرق)، وسهيل إدريس في (الحي اللاتيني)، والطيب الصالح في (موسم الهجرة إلى الشمال) وغيرهم، وهو ما يواصل دندنته سالم العبد في كثير من أقاصيصه بدءًا من قصتي (دفء الثلج)،[10] و(أتاتانيا)[11]، ومرورًا بروايته (هذيان المرافئ) ووصولًا إلى ثلاث أقاصيص من هذه المجموعة (فتنة، النبع البارد، نافذة السيدة ميرلي)، بيد أن (نافذة السيدة ميرلي) تبحر في فضاء التصالح مع الآخر من خلال نبع الأمومة، بعيدًا عن عقدة الفحولة الشرقية الطاغية والأنوثة الغربية الذابة في هذه الفحولة المزعومة، حتى غدا الرجل الشرقي في أوربا أشبه بالديك المحشو بالفيتامينات بحسب تعبير جورج طرابيشي(١٢)، أما في هذه القصة فيتحول الشاب الشرقي إلى ابن تابع للسيدة الغربية التي تطوي في ثناياها حنان كل أمهات العالم لتأخذ بيد ابنها الرافض للانفتاح على الآخر من خلال نافذة وحيدة تطل على مقبرة كالحة؛ لتتحولَ هذه الصورة القاتمة في نظره فيما بعد إلى بستان بهيج.

الهوامش:

١. من إصدارات دار حضرموت، المكلا، ٢٠٠٩م.

٢. إشارة إلى مجموعة (من خارج الدائرة)، ١٩٨٤م.

٣. إشارة إلى مجموعة (القواقع)، ٢٠٠٢م.

٤. إشارة إلى رواية (هذيان المرافئ)، ٢٠٠٥م.

٥. ينظر: في نظرية العنوان (مغامرات تأويلية في شؤون العتبات النصية)، خالد حسين حسين، التكوين، دمشق، ص٢٠٩.

٦. ينظر: سيمياء العنوان، بسّام قطّوس، وزارة الثقافة الأردنية، عمّان، ط١، ٢٠٠١م، ص٤٩.

٧. ينظر: ثريا النص (مدخل لدراسة العنوان القصصي)، محمود عبدالوهاب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٥م، ص٩.

٨. ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة (١٦٤) الكويت، أغسطس ١٩٩٢م، ص٢٣٦.

٩. ينظر: العنوان الشعري مدخلًا إلى الاتجاه الرومانسي في شعر صالح علي الحامد، سعيد سالم الجريري، مجلة جامعة حضرموت [١٩٩-٢٢٠]، المجلد الرابع، العدد (٩)، ديسمبر ٢٠٠٥م، المكلا، ص٢٠١.

١٠. نشرت في مجموعتيه (من خارج الدائرة)، و(القواقع).

١١. نشرت في مجموعة (القواقع).

١٢. ينظر: شرق وغرب، رجولة وأنوثة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م، ص١١٣.

108
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

العبودية في رواية (سالمين)

١- أمّا قبلُ:

فإن رواية (سالمين) للكاتب الروائي الشاب عمار باطويل، هي باكورة إنتاجه الأدبي، والرواية تقع في (١٠٧ صفحات من القطع المتوسط)، وغلاف بسيط، من إصدارات دار فضاءات - الأردنية - عام ٢٠١٤م.

ولعله من الطبيعي أن تكون البدايات في الأعمال الأدبية صعبة وغير مكتملة، وقد عانى كُتّابٌ أصبحوا كبارًا ومشهورين من هذه الظاهرة الطبيعية، فقد كتبوا ومزقوا، ونشروا وندموا... إلخ.

وهناك عبارة للراغب الأصفهاني، يقول فيها ما معناه (أنه إذا أنجز عملًا كتابيًا، وأعاد النظر فيه لتمنى أن يعدل ويغير فيه).

وإذا جاز التعبير فإني أشبه ذلك بالطفل الذي يبدأ المشي بالاستناد إلى الحائط، ثم يمشي بخطوات مهتزة، ثم ينطلق، أو كما تتطور الثمرة من البرعم إلى التفتح إلى الاخضرار إلى النضج، المهم أن تكون عندك الموهبة.

د. أحمد عبدالله السومحي

والكاتب في تقديري يملك موهبة كتابية قوية في الفن الروائي، ستبرز في المستقبل القريب، فلا يستعجل الشهرة، فالجاحظ لم يبلغ مرحلة النضج إلا في سن الستين، وهناك شعراء نبغوا بعد الأربعين، والكاتب إلى الآن لم يبلغ هذا القدر من العمر، والأدب: موهبة، وثقافة، وتجربة، ثم ممارسة، والممارسة تحتاج إلى نَفَس طويل، فكم من كاتب -مثلًا- كتب قصة قصيرة ممتازة بعد أن مزق عشرات المسوَّدات، والسبيل إلى ذلك هو الاطلاع بعمق على تجارب الآخرين، فالموهبة وحدها لا تكفي.

وليس في ذلك من عيب، فالتطور من سنن الكون، وطبيعة الحياة، والدليل على ذلك أن رواية الكاتب الثانية (عقرون ٩٤) أنضج فنيًا مما نحن بصدد الحديث عنها، وربما تكون الثالثة أقوى.

وليس معنى ما أقوله أن الرواية سيئة، ولكني أريد أن أدفع بالكاتب إلى مزيد من الاطلاع والممارسة؛ لأني في السطور القادمة سأتحدث عنها بحسب رؤيتي وقراءتي لا برؤية الكاتب أو القارئ، ولكل رؤيته وقراءته.

٢- العبودية:

وفكرة الرواية تتمحور حول العبودية، والعبودية أنواع وأصناف وأشكال، فالإنسان عبد لله منذ وجوده، ثم يصبح عبدًا لامرأة، وقد يصبح عبدًا لشهواته ونزواته، أو يصبح عبدًا للمال، أو للوظيفة.. وهكذا هلم جرًا.

لكننا هنا أمام حالة فتى أسود في الرواية يسمى (سالمين)، اشتراه سيده الوجيه صالح من (حجر) أو من تاجر جلبه من حجر بئور، صفقة رخيصة إنسان بحيوان، ولا أدري لماذا اختار الكاتب حجرًا مع أن الراوي يقول: إن العبيد يباعون في سوق (بضه، والخريبة) بدوعن، وحجر بعيدة من (دوعن). هل لأن حجرًا بؤرة السواد، وبه أنواع من هذا الجنس (العبيد، والصبيان)، أو لسبب آخر؟!

وشراء سالمين من حجر، الذي لا يعلم شيئًا عن أبيه وأمه، ولا يعرف شيئًا عن جذوره يثير هذا الجهل بأصوله في ذهني تساؤلات هل هو شخصية حقيقية أو رمز للجهل والغيبوبة التي يعيشها المجتمع الحضرمي في ذلك العصر، ومن تناقضاته، ويذكّرني هذا بقول الشاعر العكبري (برجف):

واحد عشق في عبد حبه ملك له
من زام عاد الناس تعشق في العبيد
عشقه ع صيته ولا يعرف سمه
والعبد حر من زام هارون الرشيد
يومن من الأيام شل عبده معه
وتملكوا وادي وهي ترعد رعيد
حتى وصلهم سيل ماشي مثل له
ونووا على عبوره يريد أو ما يريد
وقال له يلعبد سيدك عز به
وحمله حتى وصله للغوط الشديد
سبر براوس به وجاته حلته
ورماه من كتفه ونط منه بعيد
هذه دلول العبد لا ما تعرفه
بدعات يلثيها ويلقي شي جديد

قطعًا الشاعر لا يقصد العبودية الآدمية، وإنما قد يكون يقصد أمرًا قبليًا أو اجتماعيًا أو نظامًا سياسيًا.

على كل حال بعد أن نال سالمين ألوانًا من الإهانات والخدمة والتهديد بالبيع، هاجر مع سيده إلى السعودية بعد أن بذل جهدًا في إقناعه بالسفر معه؛ ليقوم على خدمته، على أن يقوم بالإشراف على النخل والأرض الزراعية الصبي (صالح)، وصالح هذا من فئة سالمين الاجتماعية، إلا أنه يرى أنه أفضل منه درجة، فهو لا يباع ولا يشترى.

انتقل سالمين مع سيده حمد أو أحمد إلى جدة بالمملكة العربية السعودية، واستقرا فيها، وانتقل من العبودية إلى الحرية، ومن الجنسية الحضرمية إلى السعودية بعد أن اشترى له سيده الجنسية السعودية بمليون ريال سعودي بعد أن راجت تجارته في الذهب، والأراضي، وهنا يصعد إلى ذهني سؤال، كيف اشترى الجنسية للعبد سالمين؟ فالمفترض أنهم هاجروا إلى السعودية في زمن كان خوية آل سعود يدورون بالتابعيات على الدكاكين والبقالات أي في الخمسينيات من القرن الماضي، وكان هناك من يرفضها، إذن نحن أمام عبودية جديدة.

وتتحدث الرواية عن تهديد الشيخ أحمد ومنّه على سالمين لكونه اشترى له الجنسية، وجعله بني آدم مثل خلق الله، وبذلك انتقل سالمين إلى عبودية جديدة.

الروائي عمّار باطويل

بعد أن استقر سالمين بطل الرواية وسيده أحمد في جدة، وأخذت ثروتهما في النمو، تزوج أحمد من (سوسن)، وقد عرفنا زواج السيد، لكن الكاتب لم يخبرنا عن زواج العبد، ودخلوا في عبودية النساء والإنجاب والمال، وانقلبت حياتهما، حيث أخذتهم عبودية الشهوات والنزوات، وتعددت الرحلات، وأغرم العبد الأسود باللحم الأبيض، ونسي أحمد مريم حبيبته التي كان يطاردها في الشعاب والغيران، كما نسي خديجة أخته التي أرسلها أبوه له من إندونيسيا.

ويبدو أن استعباد سوسن لأحمد كان طاغيًا وشرسًا، فقد سيطرت عليه ومسخت شخصيته، فلم يظهر كشخصية عامة من رجال الأعمال لها مكانتها في المجتمع.

وذلك ما أدى إلى عدم اهتمامه بموطنه الأصلي، وإقامة مشاريع فيه، والمرة الوحيدة التي ذكر فيها موطنه حضرموت هي في تأنيبه لسالمين بقوله: (هكذا يا سالمين نسيت البلاد بعدما وصلت جدة)، ولكن يظهر العبد أنه ما زال متمسكًا بوطنه كتمسكه بعبوديته التي لم يستطع الخلاص منها، فكيف لهذا الإنسان مجهول الأب والأم والأصل أن يتمسك بوطن ذاق مرارة العبودية فيه مع جهله لأصله، هل كان الكاتب يريد أن يفهمنا أمرًا ولكن في فمه ماء؟؟ ربما!

ومع أن سالمين استرد حريته وآدميته في السعودية إلا أنه ظلت العبودية تحاصره في أشكال مختلفة في زوجة سيده، وابنه حسن، وفي الشارع، وفي الأحلام، ففي الشارع يسبونه وينادونه يا العبد بسبب لونه، وفي أحلامه التي تعيد عليه الماضي في رؤية محمد سالم ذاهبًا به للبيع، وفي السوق ينادي عليه (عبد للبيع)... إلخ.

وتبرز من خلال العبودية إشكالية تنكر السيد لأصله الحضرمي، وتمسك العبد بها الذي يجهل أصله وفصله وأباه وأمه ومكان مولده، ويقفز أمام القارئ سؤال إلى أين يتجه بنا الكاتب؟ هل يقصد العبودية الآدمية حقًا أو أن العبودية غلاف لواقع الحضارم في المملكة العربية السعودية وخاصة المهجنين منهم كما يطلق عليهم؟!

والكاتب إن أراد بالعبودية، العبودية الفردية، فالرواية مجرد حكاية عادية.

«رجل يدعى صالح يملك ثورًا وأرضًا زراعية، فيبادل بالثور عبدًا، ثم تضيق عليه الحياة فيهاجر إلى إندونيسيا

ويموت بسنغافورة، ويهاجر ابنه أحمد مع العبد سالمين إلى السعودية، وينالون الجنسية السعودية، ويثرون ثراء فاحشًا، ويتزوجون وينجبون، وينسون وطنهم الأصلي أو يكادون».

أما إذا أراد بها واقع الحضارم وعبودية المال، واتخذ العبد سالمين ستارًا لذلك، فالرواية تعد عملًا أدبيًا جيدًا، وأنا أميل إلى الرأي الثاني، ويرشح هذا الرأي أن سالمين يريد أن يتخلص من لون جلده وعبوديته مع أنه أصبح حرًا فلم يستطع، ويعني ذلك مهما غيَّرتُمْ يا حضارم من أسمائكم وعيشكم ستظلون في نظر السكان الأصليين (أبوحضرم) أو (حضيرمي)، وسيظل (الباء) مركوزًا أمام أسمائكم، وأمر آخر جدير بالملاحظة في هذا الترشيح، وهو أن العبد سالمين من غير أب ولا أم ويبحث عن جذوره.

على أنه من الجائز أن يكون قصد نوعًا آخر من الاستعباد، كاستعباد الاشتراكية أو الرأسمالية.

٣- الهجرة وتحولاتها:

والرواية تتعرض لهجرة الحضارم، وذهابهم في أصقاع الأرض بحثًا عن الرزق والعيش الكريم، فهذا صالح أبو أحمد بطل الرواية من قرية من دوعن يهاجر إلى أفريقيا، ثم إلى الهند فجاوة، ثم يقتل في سنغافورة في أثناء الحرب العالمية الثانية، وهذا ابنه أحمد يطلب من وكيلهم في إندونيسيا أن يتصرف في أملاكهم هناك بالبيع، وأن يحول المبلغ إلى السعودية، وفي السعودية تتحول حياة أحمد من حضرمي إلى سعودي، ومن ملاليم إلى ملايين، وهكذا العبد سالمين من العبودية إلى الحرية، ومن ملاليم إلى ملايين، ويطلب من أولاده أن يتزوجوا نساءً بيضًا لتتحول ألوانهم من السواد إلى البياض، وحياة الشظف تحولت إلى ترف، وابن خال أحمد تحول إلى مكاوي، ويحاول يغير جلده ولهجته، فقد تزوج من سعودية من أصل مغربي، وأولاده أصبحوا بيضًا، وهو يحاول يقلد أهل مكة في كلامهم، وهناك تحولات في السلوك والمشاعر والمثل والعادات.

تبرز من خلال العبودية إشكالية تنكر السيد لأصله الحضرمي، وتمسك العبد بها الذي يجهل أصله وفصله وأباه وأمه ومكان مولده

٤- أمّا بعدُ:

فإن كتابة الرواية الأدبية ليست سهلة، وهي من أصعب الأجناس الأدبية؛ إذ كيف يأتي الكاتب بأشخاص، ويوجد لكل شخصية حياتها بأحداثها من خير وشر، ويعبر عن شعورها وإحساسها، ثم يؤلف بين تلك الشخصيات، أو يفرق، ويجعلها تتصارع أو تتواءم.

وفي منتصف القرن الماضي تقريبًا هاجم النقاد المفكر الأديب عباس العقاد، وتحدّوه أن يكتب رواية أدبية، وقبل التحدّي، وكتب قصة هزيلة بعنوان (سارة)، وفشل في ذلك ولم يعاود التجربة؛ لأن قدراته الفكرية أعظم من الخيالية والتخيل، وليس ذلك عيبًا، فالمواهب متعددة ومختلفة، فنجيب محفوظ -رحم الله الجميع- كاتب رواية من الطراز الأول، لكنه لا يستطيع كتابة مقال جيد، وإنما كان له عمود صغير في (الأهرام) أو (الأخبار).

وبناء على ذلك فإن هذه الرواية التي نتحدث عنها هي باكورة كاتب شاب، وبداية مشواره الأدبي، ومن الطبيعي أن تكون للبدايات قصورها الفني، ومع هذه البداية فهناك إجادة، وهناك هفوات، وسأبدأ حديثي عن فنياتها من الغلاف:

فغلاف الرواية بسيط يعلوه العنوان (سالمين) وفي الوسط رسمة في غاية البساطة، وهي معبرة عن فكرة الرواية؛ حيث تجمع بين السواد والبياض، وكأن هناك إنسانًا ممسوخًا، ولعل الكاتب أراد أن ينبهنا، إلى أن هذا المسخ مخلوط من اللونين، فغلافه أسود لكن داخله إنسانية، والإنسانية بيضاء؛ لذلك فالقدم واليدان بيضاوان واضحتان، وكأن البياض يريد أن يتخلص من السواد، وهي فكرة جيدة وطبيعية، فالرّجل البيضاء بارزة وكأنها تريد الهرب.

أما عنوان الرواية (سالمين) فلا يشدني ولا أظنه يشد القارئ، وربما أعاد النظر الكاتب فيه في الطبعة الثانية.

والرواية تبدأ بأسلوب الحكاية، وسردها حكواتي فأحمد رجل بدوي، يتنقل في القرى والأودية والشعاب، ويقابل أناسًا مختلفين، ويتحدث إليهم حديثًا عاديًا، ويجالسهم، ثم إنه جمّال على جمله (الدهس)، هكذا يبدأ السرد إلى الفصل الرابع فترتفع وتيرة السرد الفني قليلًا.

وبعد.. فإن ما قلته مجرد استنتاج وهو رأي شخصي يخصني ولا يخص الكاتب، والإنسان قد يصيب وقد يخطئ..

111
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

ما لعينيك لا تحكيان؟

مريم بن سمير

ما زلت أمطر
بعد كل الحريق والدمار
ما زلت أشتعل نارًا
بعد كل الخراب
ما زلت أراك أنت
وأنت وأنت
رغم الضباب
رغم السراب
ترينى كيف أرمم الرماد
أمد الحياة للأحياء
أعلم الحب للأقدار
أنا الانتظار.. أنى الاقتراب
مالي أجهل خلق حوار؟!
ما حدث للجدار؟!
ألن تقول عذبني الاشتياق؟
وإن حياتي بقيت إليك؟
ألا ملاذ للصلوات؟!
ولما قيل مع الاشتياق؟
فقد حرَّبي موعدنا
استفدت موتًا ودموعًا وعتابًا
لعلك تهبني خيالاً مُصابًا
لتأتي إليَّ ثباتًا صائبًا
تعال إليَّ خطايا وافتراءات
لم يغلق أي باب
لم يكن هناك أبواب
لا قضبان تقيد الصدى
لا سماء تلد الأغنيات
لا نسيان يعذر الأسباب
بقيت أنت أنت
مغيثٌ ينامُ بالذات

والوقت مرتجفٌ بيننا
تغلفنا الثقاب والسواد
لُعنت الأجرام كما جُبّت الأجراس
لا محراب يحل الضياع
بقيت أطنان الرماد تخسر الرماد
أتتحامل علينا الإجابات؟!
فإذا رميمٌ يضمُ وهن ضيمنا
يلهم وهمًا للعمر الآتي

ألا تشفع للهوى؟
وقلبي قلَّما يهوى
أتلومه وتريد مني ختامًا ملحميًا
وبكاءً يعذُر النوى؟
أصراطًا يختفي خلفي كلما
الدنسيانًا وقليلاً ما أحيا!
أيُ نحيبٍ أو انتحارٍ أو شعيرٍ يرثنا
أو ملائكة تذرف جثمان رحيلنا
أتريد قيدًا تحررني به
واذهبي مني إلى الصدى؟
أأصير وردةً ترتدُ غروبًا وثموت
إذا غاب المساء؟
سحابٌ يبتعد ويتعدى
حزنًا وشوقًا ومطرًا ولظى
ما نويت بك حياةَ الفناء
أريد أن أبقى ها هنا
لا تقيدني بأرضٍ أخرى
قيدني هنا
حررني هنا
أتظن حبكَ فعلاً منكرًا؟
نجومٌ تهتدي بك صوابًا ورشدًا
كونٌ يولي سواك السدى
ليرثي بذنوبك الآيات الأولى
لتكون شفيعًا للحب الذي انقضى

(الحلم)

يعقوب بلسعد

أدنو إليك مكبلًا بهيامي ... ومسرّحًا في الذكريات، حمامي
ومُحمّلًا بالشوق من بعد النّوى ... كي أحتسي في راحتيك مُدامي
بيني وبينك في الوصال علائق ... العشقُ نهجك والوفاء حُسامي
يا غاية الولهان يا نبع الهوى ... يا نورَ بدْد خرْقتي وظلامي
حبل الوصال إلى حماك يشدُني ... بالحب يهطُل في ربـاك، غمامي
وجوارحي ما بين حضنك تنتشي ... وتزول من وسط الحشا أوهامي
في خورك الأنسامُ تشعل جذوتي ... وتزيدُ نبـض الفكر في إلهامي
مَنْ ذاك غيرك يـا الوداد يحضُني ... في ناظريك تهلّلت أحـلامي
قـلبي يحنُ إلى ثراك، وينتمي ... يا بلسمًا يشفي غليل غرامي
بك حضرموت الخير تسمو للعلا ... أنت السّلام وأنت مسكُ سلامي

112
العدد (8)
إبريل
يونيو
2018م

حكايات من المشقاص

بين الحقيقة والخيال، وبين قصيعر والبحر يروي الأجداد قصصا لا تنتهي. ليست العلاقة ودية دائما. البحر سر وجود قصيعر، فلولاه ما قامت بلدة في هذا المكان. لكن البحر أيضًا أخذ من بيننا رجالًا لم يعدهم إلينا، ولم يخبرنا أماتوا أم ما زالوا أحياء ؟

مقتل عاشور بن حميد

فائز محمد باعبّاد

بين أسوار قصيعر العتيقة وفي حواريها وأزقتها وبيوتها الطينية القديمة جرت في خمسينيات القرن الماضي قصة غاية في العجب! ليست من نسج خيال أو أساطير، بل حقيقة وقعت في زمن ابتعد، لكن صدى الحقيقة المفجع ما زال يتردد باحثًا عن أجوبة لم يجدها رغم مرور سنوات طوال، إنها حكاية عاشور أحمد بن حميد، هذا الرجل الغامض، الذي قتل في أحد بيوت قصيعر القديمة بجوار السوق الفوقية سوق قصيعر الصاخبة ذلك الزمن، عندما تسأل عنه تأتي إليك الأجوبة متناقضة متباعدة، فلتعذروني إن أخطأت في تقديمه، فهذا الرجل رجل المتناقضات الأول في حكاياتنا المشقاصية، قيل أصله من الشحر، وقيل من غيل باوزير، والغيل أرجح، قيل كان ظالمًا عربيدًا فاسقًا متحرشًا بالنساء والفتيات... وقيل كان رجلًا صالحًا عاديًا، حتى كان يعلّم بعض الأولاد القراءة والكتابة، وقيل كان محاميًا فطنًا ذكيًا يكسب القضايا لموكّليه بالشرع والقانون، وقيل كان محاميًا سمسارًا محتالًا، يستغل قربه من رجال السلطة القعيطية والقضاء لكسب القضايا والاستيلاء على الحقوق.

ينسب للشاعر الشعبي المشقاصي الكبير علي بن حسن باعباد أبيات أرسلها لابنه أو لزوجته يحذرهما فيها من عاشور على ذمة قضية بينهما، فيقول:

برسل سلامي معك يا طير قل للبرك...
قل له يصرف تصاريف الذي قد ملك...
عاشور ما هو سهب بالقي دباديب لك...
دهن يشل القلادة والعلم والمتك...

إذن عاشور في نظر معاصره الشاعر علي بن حسن محام محتال، قد يستولي حتى على (القلادة والعلم والمتك) وهي حلي لنساء ذلك الزمن -والحلي أخر ما قد تملك أي أسرة- فالحذر إذن والانتباه من رجل كهذا، لكن للإنصاف تبقى تلك وجهة نظر الشاعر الذي ربما كان على خلاف مع عاشور على قضية ما.

سكن عاشور منطقة (معبر)، وملك فيها بيتًا وزرعًا، ومارس فيها حياة سكانها وأسلوب عيشهم، وكان قليلًا ما يذهب لبلده ومسقط رأسه، ويبدو أنه كان لا أهل كثير له هناك ولا ذرية، كان يذهب صباحًا إلى قصيعر المدينة لمتابعة القضايا أمام (محكمة قصيعر والريدة القعيطية)، واستأجر بمحاذاة السوق الفوقية السوق الرئيسة في قصيعر آنذاك بيتًا، كان قريبًا من (حصن القاضي)، يعود البيت لأسرة آل باشراحيل، وكان يبقى في هذا البيت أحيانًا ولا يعود لبيته في معبر. -و(حصن القاضي) كان ملاصقًا في منتصف السور الغربي لقصيعر القديمة طمس اليوم ولم يعد له وجود-.

جرّت بعض القضايا وأسلوب المحامي الملتبس الكثير من العداوات لعاشور، الذي لم يكن لييالي بها، وهو القريب من رجال السلطة وفي حمايتها، هذا الشعور بالأمان الزائف المتكئ على كتف القوة والحكم الغافل عن الانتباه لانتقام الخصم الضعيف أوقع الرجل في المهالك، كأنها لم تطرق مسامعه (لا تحتقر كيد الضعيف فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب).

اختفى عاشور في غمرة قضاياه القانونية الشائكة ولم يسأل عنه أحد، ظن أصدقاؤه أنه ذهب لمسقط رأسه في مهمة عاجلة، ولافتقاد وسائل الاتصال مرّتْ عشر أو يزيد من الأيام والليالي لم يكتشف أحد أين ذهب المحامي (الشاطر) حتى فاحت رائحة جريمة غريبة في مجتمع قصيعر البسيط المسالم، وصلت المعلومة الأمنية لمسامع السلطة القعيطية، هناك رائحة نتنة وإن كانت خفيفة تنبعث منذ يومين أو ثلاثة من بيت عاشور بن حميد المغلق بالأقفال والمفاتيح -كما يرى على الباب من الخارج-، ظن بعض المتفائلين أن حيوانًا نفق داخل البيت هو مَنْ سبّب هذه الرائحة، في حين ساورت السلطات الشكوك فكلّفتْ قوة لكسر الأقفال ودخول البيت ليتم اكتشاف ما لم يكن في الحسبان، المحامي عاشور بن حميد مقتول بطريقة وحشية، قيل كانت جثته ممزقة وقريبة من التحلل، وقيل أيضًا إن القاتل رش في أحشاء القتيل وفي جسمه الممزق ملحًا كي يتأخر انبعاث الرائحة، جُنّ جنون السلطات القعيطية لهذا الخرق الأمني الفاضح، فسيق العشرات للتحقيق، وتم احتجاز البعض ممّنْ تربطهم قضايا خصومة مع عاشور من أبناء قصيعر والريدة ومناطق أخرى، ومرت الأيام والشهور وخرج المتّهَمون من السجون الواحد تلو الآخر، ومرت السنون ولم تثبت الجريمة على أحد، وقيّد الزمن القضية ضد مجهول. ظلّتْ قضية عاشور على ألسنة الناس ردحًا من الزمن في قصيعر وفي المشقاص عامة، كثير من أبناء قصيعر الطيبين اعتبروا أن عاشور مات مظلومًا، وحتى إن البعض ظلّ يردّد مقولة أصبحت كالمثل (نصفة عاشور) كلما أصابت قصيعر مصيبة أو اجتاحتها جائحة، إن الله لن ينصف لعاشور من قصيعر بالتأكيد؛ لأن قصيعر بلدة مسالمة لم تقتل أحدًا، وأن الله لا شك سينصف المقتول عاشور من قاتله -رجل أو رجال- في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، لكن يجب على أهل الجور والفساد المتكئين على كتف السلطة والقبيلة ممّنْ سرقوا المال العامّ، ونهبوا الأرض، وهتكوا العرض أن يتعظوا.

توقيع قلم

(السناوة ولا جاوة)

يغادرون الوطن مكرهين، يحملون معهم وطنًا يسكن في دواخلهم، يبدو لهم أنه في صدورهم أكبر ممن في الوطن يسكنون، لا يخامرهم الشك في أنهم سيعودون عندما يتغير الحال غير الحال أو هكذا هم يحلمون. ويتطلع الذين في الوطن إلى الاستقرار والأمان والازدهار أو هكذا يتمنون. لقرون عديدة كان هذا حال حضرموت والحضارمة فهم بين مهاجرين يسيحون في أرض الله، وبين مشاريع مهاجرين. المشروع الشخصي هو الطاغي، وسط تلك الحالة الغير المستقرة توجد مساحة سحيقة تحكي قصة درامية طويلة معجونة بالدموع وبالآهات والألم والمسكنة والفشل والنجاح. فهل عجزت بلاد الحضارمة أن تكون ملاذًا آمنًا لأهلها؟ وهل قدر لحضرموت أن تكون أقرب إلى الأمنية والحلم، ومحطة للرحيل؟

وعوضًا عن البحث عن إجابات للتساؤلات الملحة زخرت ثقافة الهجرة الحضرمية بالأمثلة والأشعار والمقولات التي تدافع عن الهجرة أو تلك التي ترفضها وعلى سبيل المثال يقول الرافضون للهجرة : (السناوة ولا جاوة) والسناوة: هي طريقة رفع الماء من الآبار بوساطة الحيوان وأحيانًا الإنسان وذلك لري الأرض. ويقصد أصحاب هذا المثل أن البقاء في الوطن تحت الظروف الصعبة أفضل من الهجرة إلى جاوة حيث الخضرة، والمطر. وهناك من يعطي للمثل بعدًا آخر بإضافة كلمة البحر: (السناوة ولا بحر جاوة) فتغيرت الدلالة وصار وكأنه خطاب من الآخر بالتشجيع بالبقاء في الوطن بغوبيا مخاطر البحار حتى لا يغادر الفلاحون مزارعهم.

وفي المقابل يرفع المهاجرون من روحهم المعنوية ويرددون من الأشعار والأمثلة ما يشجع على الهجرة وما يؤكد صحة قرار مغادرتهم الوطن من ذلك المثل الرمزي (ما يبقى في السوق إلا خس [الرديء] الجلب [الغنم]). فيرون أنفسهم أصحاب الروح الكبيرة والهمة العالية وغيرهم: خاملون، قليلو الحيلة، وبلا طموح، وفي النصين (السناوة - الجلب) إشارات تعبر عن وجهتي نظر متضادتين وعلى ما يبدو من القسوة في طرح أصحاب (الجلب) اتجاه أصحاب (السناوة) فإن في باطن هذا المثل خطابًا داخليًا أكثر منه خارجيًا يعوض به المهاجر حالة الخنوع في بلاد الناس التي يواجهها (فالجلب) تدرك قبل المغادرة، وبعدها إنها لن تجد في بلاد الناس السهول المفتوحة ولن تكون الطريق مفروشة بالورود، وهنا يتفق الطرفان على أن: (من خرج من داره قل مقداره).

ويبدو لنا أن ثقافة الهجرة تقوم على ثلاثة مفاهيم أساسية هي: الرزق، والأمان، والكرامة. والترتيب هنا متعمد من حيث الأولويات ولهذا تجد الأغلبية منهم تقول (بلادك حيث ترزق فيها وليس حيث تولد)، والمقابل لذلك وليس في الضد منه تلك النصيحة الشهيرة: (مال ما هو في بلادك لا لك ولا لعيالك). وهناك من يكون عامل الأمان الذي فقده في بلاده مقدمًا على عامل الرزق، وقد تجتمع أو تتداخل هذا العناصر بوصفها عوامل دافعة للهجرة لكن بنسب متفاوتة من حيث الأولويات ربما مفهوم الكرامة بمعنى البحث عن وطن تسود فيه الحرية وسيادة القانون تمثل حالات نادرة لا تتسق مع عوامل الهجرة التقليدية الطاغية (الرزق - الأمان). ومعروف أن مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان تعد في بلدان العالم الثالث من الترف غير المباح إلا ما رحم ربي، وحتى الأمان الذي قد ينشده المهاجرون بعيدًا عن أراضيهم فهو يغيب بالهواجس والتوجسات الدائمة من توقع تغير قوانين الهجرة والإقامة فهم طال الزمن أو قصر مصنفون أجانب مع الشعور المباشر وغير المباشر بالنظرة المتأرجحة تجاههم بوصفهم مزاحمين لأهل البلاد الأصليين في الرزق والوظيفة والمدرسة والطريق. لهذا هم يتحركون باستراتيجية المسكنة (يا غريب قع [كن] أديب).

لقد كانت أرض الله واسعة ومفتوحة أمام الحضارمة فهاجروا إليها بحثًا عن الرزق والأمان والكرامة وغيرها. كان موسم الهجرة القديم يتجه جنوبًا في بلدان حوض المحيط الهندي، ثم تتفرع مسارات تحركاتهم شرقًا وغربًا وشمالًا عبر البحر الأحمر إلى الحجاز وما بعدها، وإلى منتصف القرن العشرين كانوا يجدون في تلك المساحة الكبيرة مجالًا خصبًا للحركة والاستقرار، وبعد الحرب العالمية الثانية ومع ظهور الدول القومية انتهى عصر البحار والمحيطات المفتوحة وتقلصت خيارات الهجرة باستثناء بلدان الجزيرة العربية الغنية فاطمأنوا بها وصارت وجهتهم والأقرب لهم من حيث وحدة الدين واللغة والتداخل القبلي والجغرافي والتاريخي بل المصير المشترك، وهنا حطوا عصا الترحال حيث الخيار الوحيد أو المحطة الأخيرة.

قد يعتب البعض على إخواننا العرب وقد يلومونهم على إجراءاتهم التي تتعلق بقوانين الهجرة الأخيرة التي أزاحت غير المواطنين من مهن معينة وتطالب برسوم إقامة تصاعدية لكن هذا ليس الغرض من موضوعنا ثم هي بلدانهم وهم أحرار فيها كما قد يقول البعض الآخر، وعلى أية حال فإن آخر معاقل الهجرة وخياراتها صارت محدودة جدًا، والأهم من ذلك لا بدَّ من مغادرة دهاليز الجدل العقيم الذي استنزفته قرون التاريخ السحيقة فالأمر صار اليوم أكبر وأعمق من مجرد وجهات نظر لهذا علينا مواجهة استحقاقات الحاضر الملحة، ورسم تطلعات المستقبل المنشود، بالأعمال الصادقة المخلصة، والتخطيط العلمي السليم، لا مجال لثقافة اللوم، ولطم الخدود (ولعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها....).

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

ميناء المكلا ١٩٤٤م

سينون ١٩٤٧م

مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

Hadhramaut Centre for Historical Studies
Documentation and Publication.

من إصدارات المركز